الحياة العلمية في الشام

برهان

في القرنين الأول والثاني للهجرة

خليل داود الزرو

دار الآفاق الجديدة

بيروت — لبنان

الحياة العلمية
في الشام

خليل داود الزرو

الحياة العلمية في الشام

في القرنين الأول والثاني للهجرة

رسالة نالت درجة الماجستير في الآداب

(من الجامعة الاميركية في بيروت)

دار الآفاق الجديدة

بيروت ـ لبنان

الطبعة الأولى

بيروت كانون الأول ١٩٧١

الإهداء

إلى روحي الصحابيين الجليلين خالد بن الوليد وابي عبيدة عامر بن الجراح اهدي كتابي هذا، لما أسديا من فضل في فتح الشام، ولأياديهما الجليلة على الاسلام والمسلمين والعرب .

المؤلف

مقـدّمـة
في أحوال الشام أثناء الفتح الإسلاميّ

الناحية الجغرافية :

سميت الشام بهذا الاسم لأسباب كثيرة ذكرها المؤرخون .منها « كثرة قراهـا وتداني بعضها من بعض فشبهت بالشامات ... وقيل نسبة للشمال أو لسام بن نوح »[1] ، وقد ذكر ياقوت حدودها بانها « من الفرات الى العريش المتـاخم للديار المصرية ، واما عرضها فمن جبل طيء من نحو القبلة الى بحر الروم ... وذكر من مدنها منبج وحلب وحماه وحمص ودمشق والبيت المقدس والمعرة ، وفي الساحل انطاكية وطرابلس وعكا وصور وعسقلان ... ويعـد في الشام ايضاً الثغور وهي المصيصة وطرسوس واذنة وانطاكيـة وجميع العواصم من مرعش والحدث وبفراس والبلقاء وغير ذلك[2] » .

وقد كان هناك فرق بين اسم الشام وسورية ، ويستـدل على ذلك من قول هرقل « فلأصالحه على ان اعطيه ارض سورية ويدعـني وارض الشام . قال وكانت ارض سورية أرض فلسطين والأردن ودمشق وحمص وما دون الدرب من أرض سورية ، وكان ما وراء الدرب عندهم الشام »[3] .

وقد اعتبر بعض الصحابة الجزيرة جزءاً من الشام لأنها امتـداد لها وذلك

---

١ – معجم البلدان: مادة شام .
٢ – نفس المصدر والمادة .
٣ – تاريخ الطبري ٢ / ٢٩٣ .

لحديث النبي ﷺ الذي ذكره ابو الدرداء وهو : « أهل الشام وأزواجهم وذراريهم الى منتهى الجزيرة مرابطون فمن نزل مدينة من المدائن فهو في رباط ، أو ثغراً من الثغور فهو في جهاد »[1] .

ويلاحظ ان حدود بعض الاجناد لم تكن كحدودها المتعارف عليها اليوم ، فجند الاردن مثلاً وهو احد الاجناد الخمسة كان يضم زمن الفتح الاسلامي عدة كور منها « طبرية وبيسان وصور وعكا »[2] ، وكان لبنان تابعاً لحمص ويمتد الى دمشق والاردن وفلسطين باسماء أخرى ، قال عنه ياقوت « جبل مطل على حمص فما كان بفلسطين فهو جبل الحمل ، وما كان بالاردن فهو جبل الجليـــل ، وبدمشق سنير ، وبحلب وحماه وحمص لبنان ، ويتصل بانطاكية والمصيصة فيسمى هناك اللكام ثم يمتد الى ملطية وسميساط وقاليقلا الى بحر الخزر فيسمى هناك القبق »[3] .

الطبيعة السكانية :

كانت الشام في اثناء الفتح الاسلامي تجمع اصنافاً متعددة من السكان : عرب وروم وفرس ويهود .

فالعرب كانوا من النصارى مثل غسان ولخم وجذام ، فقد اورد الواقدي عن معركة اليرموك « وكان جبلة بن الأيهم في المقدمة في ستين الف فارس من العرب المتنصرة من غسان ولخم وجذام ، وهم على مقدمة ماهان »[4] .

وكانت بكر ومضر وقضاعة تنزل الجزيرة ، ففي معجم ما استعجم « ان ديار مضر هي الجزيرة »[5] ، وان « ديار ربيعة تضم عدة كور منهـا نصيبين

---

١ — تاريخ دمشق ١ / ٢٦٩
٢ — معجم البلدان : مادة الاردن
٣ — معجم البلدان : مادة لبنان
٤ — فتوح الشام ١ / ١٠٥
٥ — معجم ما استعجم ٢ / ٥٦٩

وقرقيسيا ... وغيرها من مدن الجزيرة »[1] . وكان العرب ينزلون حواضر الرقة ففي فتوح البلدان « انتهت طليعة عياض الى الرقة فاغاروا على حاضر كان حولها للعرب وعلى قوم من الفلاحين فأصابوا مغنماً ، وهرب من نجا من اولئك فدخلوا مدينة الرقة »[2] . وكانت طيء تـــنزل في قنسرين في شمالي الشام ، وقيل ان حاضر قنسرين لتنوخ؛يقول البلاذري : «كان حاضر قنسرين لتنوخ مذ اول ما تنخوا بالشام ، نزلوا وهم في خيم الشعر ، ابتنوا به المنازل ، فدعاهم ابو عبيدة الى الاسلام فاسلم بعضهم ، واقام على النصرانية بنو سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، وقال عبد الرحمن بن غنم عن قنسرين .. : كانت حاضر طيء قديماً نزلوه بعد حرب الفساد التي كانت بينهم »[3] وقـــد اورد البلاذري اصنافاً من العرب من تنوخ وغيرهم كانوا في حاضر حلب « فصالحهم ابو عبيدة على الجزية ، ثم انهم اسلموا بعد ذلك »[4] وهذا يدلنـــا على ان العرب قد سكنوا قبل الفتح الاسلامي كافة أرجاء الشام .

الفتح الاسلامي واستيطان العرب في الشام

فتح المسلمون الشام زمن الخليفتين ابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، ولم تأت سنة ١٥ هـ بعد معركة اليرموك سنة ١٤ هـ حتى كانت الشام كلها — عدا بعض الثغور القليلة — تحت حكم المسلمين ، ثم احتل العرب هذه الثغور بعـــد سنوات قليلة فأصبح الشام بأكمله والجزيرة كذلك تحت حكم العرب ، وقد تولى امرها زمن الخليفتين عمر وعثمان معاوية بن ابي سفيان الذي اصبح خليفة بعد مقتل الامام علي رضي الله عنه .ومنذ بداية الفتح اخذ المسلمون يستوطنون الشام كلها

---

١ — المصدر السابق ٢ / ٥٦٨
٢ — فتوح البلدان ٢٠٥
٣ — نفسه ١٧٢
٤ — فتوح البلدان ١٧٣

وكان الخليفة عثمان وكذلك معـاوية يقطعان الجند المرابطين في الثغور وغيرها بعض الاقطاعات ، فاستوطنوا بها .

أما تقسيمات القبائل التي نزلت في الشام عند الفتح ، فالواقع أن كافة القبائل قد نزلت بها ، فان جيش المسلمين الذي وجهـه ابو بكر كان يضم المهاجرين والأنصار ، وقبائل من نجد والحجاز واليمن وعمان ، واعتقد ان قول الطبري بأن اليمن كانت تنزع الى الشام ومضر الى العراق غير صحيح ، لأن القبـائل العربية كانت ممثلة في كلا القطرين تقريباً فقد جاء في الأخبار الطوال عن معركة صفين « فان علي جعل يدور على رايات أهل الشام فيقول : من هؤلاء ، فيسمون له ، حتى اذا عرفهم ، وعرف مراكزهم قال لازد الكوفة : أكفوني ازد الشام ، وقال لخثعم : اكفوني خثعم ، فأمر كل قبيلة من أهل العراق أن تكفيه اختها من أهل الشام» [١] ، ويذكر الدينوري ايضاً بعض القبائل التي كانت تحارب في صف معاوية من اهل الشام وفيها قبائل من قيس ومن قضاعة وكندة وحمـير ولخم وحمدان وغسان فقال : « استعمل معاوية على قيس دمشق همام بن قبيصة ، وعلى قيس حمص هلال بن هبيرة ، وعلى قضاعة دمشق حسان بن بجدل ، وعلى قضاعة حمص عباد بن زيد ، وعلى كندة دمشق عبدالله بن جون السكسكي ، وعلى كندة حمص يزيد بن هبيرة ، وعلى حمير هانىء بن عمير ، وعلى قضاعـة الاردن مخارق بن الحارث ، وعلى لخم فلسطين نابل بن قيس ، وعلى همدان الاردن حمزة بن مالك ، وعلى غسان الاردن زيد بن الحارث » [٢] ، ومن النظر في هذه القبائل نتبين أن اغلبها كان من اليمن ، ولم يوجـد من الشمال الا قيس ، ولكننا نلاحظ ان في جيش معاوية جنوداً لا يذكرون باسماء قبائلهم بل باسماء مدنهم أو مناطقهم مما يوحي بأن هناك عناصر كثيرة من المهاجرين والانصار وابنـاء الجزيرة العربية المتفرقين كانوا ينزلون تلك المدن على أساس فردي وليس على أساس

---

١ — الاخبار الطوال ١٨١ .

٢ — نفسه ١٧٢

القبيلة ، قال الدينوري في نفس مقالته عن قواد الجند : « واستعمل على أهل دمشق الضحاك بن قيس ، وعلى أهل حمص ذا الكلاع ، وعلى أهل قنسرين زفر بن الحارث ، وعلى أهل الاردن سفيان بن عمرو ، وعلى اهل فلسطين مسلمة ابن خالد »[1] .

وقد نزل في الشام عدد كبير من الصحابة منذ الفتح الاسلامي وكان لبعضهم تأثير كبير على الناحية العلمية في الشام من حيث الرواية والتفسير والقراءات والقصص وغير ذلك من العلوم ، وبعضهم ارسله الخليفة عمر بن الخطاب لتعليم الناس الامور الدينية كأبي الدرداء وعبادة بن الصامت ومعاذ ابن جبل ، وسنذكر مجال نشاطهم العلمي فيما بعد ، وقد ذكر الحاكم النيسابوري بعض الصحابة الذين نزلوا الشام ومنهم « ابو عبيدة بن الجراح ، وبلال بن رباح وعبادة بن الصامت ، ومعاذ بن جبل ، وسعد بن عبادة ، وابو الدرداء ، وشرحبيل بن حسنة ، وخالد بن الوليد ، وعياض بن غنم ، والفضل ابن العباس بن عبد المطلب ، وابو مالك الأشعري وعوف بن مالك الأشجعي وثوبان ، وشداد بن أوس ، وفضالة بن عبيد ، وعمرو بن عنبسة ، والحارث بن هشام ، ومعاوية بن ابي سفيان ، وواثلة بن الأسقع ، وبسر بن ابي ارطاة ، وحبيب بن مسلمة ،والضحاك بن قيس وقباث بن أشيم والعرباض بن سارية ، وعبد الله بن بسر المازني ، وعتبة بن عبد السلمي ، وعبد الله بن حوالة وكعب ابن مرة ، وكعب بن عياض والمقدم بن معدي كرب وأبو هند الداري وسلمة ابن نفيل وغطيف بن الحارث وعطية بن عمرو السعدي وفروة بن عمرو الجذامي »[2] ، ويلاحظ انه أغفل ذكر كل من ابي امامة الباهلي صدي بن عجلان وابي ذر الغفاري جندب بن جنادة مع أن كلاهما قد أثر تأثيراً كبيراً في الحياة العلمية في الشام .

---

١ — نفس المصدر والصفحة

٢ — معرفة علوم الحديث ص ١٩٣ .

.أما الأسلوب الذي اتبعته في كون العالِم شامياً أم لا فانني قد اعتبرت كل من سكن الشام وتوفي فيه شامياً ، وكذلك من سكنه ونفي منه أو خرج دون ارادته كأبي ذر الغفاري الذي أخرج من الشام الى الحجاز .

الأجناس التي كانت تسكن الشام اثناء الفتح من غير العرب

ذكرنا أنه كان يسكن الشام أثناء الفتح الاسلامي اليهـود والفرس : فكان اليهود يسكنون في حمص وقيسارية وغيرها ، فيروي البلاذري أنه عند تقدم جيوش هرقل قبل معركة اليرموك الى حمص ارتد عنها المسلمون ، فقال لهم اليهود : « والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص الا أن نغلب ونجهد؛ فأغلقوا الأبواب وحرسوها ، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود » [1] ، وفي قيسارية كان هناك اليهود والسامرة والمرتزقة فقد أورد البلاذري : « حاصر معاوية قيسارية حتى يئس من فتحها ، وكان عمرو بن العاص وابنه حاصراها ففتحها معاوية قسراً ، فوجد بها من المرتزقة سبع مئة الف ، ومن السا مرة ثلاثين الفاً ، ومن اليهود مئتي الف » [2] .

وكان الفرس يسكنون بعلبك وحمص وانطاكية ،قال البلاذري : « نقل معاوية قوماً من فرس بعلبك وحمص وانطاكية الى سواحـــل الاردن : صور وعكا وغيرها سنة اثنتين واربعين » [3] . وهذا يدل على انهم كانوا موجودين في تلك المدن قبل قدوم معاوية عليها لاقتران اسمهم بأسماء هذه المدن .

ويبدو ان أصنافاً كثيرة اخرى من الناس قد عاشت في الشام ، من ذلك ما اورده ياقوت من ان لبنان كان فيه سبعون لساناً فقال « ان في هذا الجبل سبعين لساناً لا يعرف كل قوم لسان الآخرين الا بترجمان » [4] .

---

١ – فتوح البلدان ص ١٦٢ .
٢ – نفسه ص ١٦٧ .
٣ – نفسه ص ١٣٩
٤ – معجم البلدان: مادة لبنان .

لمحة عن الثقافات في الشام قبل الفتح الاسلامي

كان لتباين الاجناس والاديان في الشام قبل الفتح الاسلامي أثر في نشوء ثقافات عدة فيها . وقد كان في الشام من الديانات اليهودية والنصرانية ، والصابئة ومركزها حران ، كما وجد بعض المذاهب الفارسية على أساس وجود جاليات فارسية في الشام ، والمعروف أن ديانة فارس قبل الاسلام كانت المانوية والمزدكية ، وقد أثر هؤلاء جميعاً على مجرى الحياة الثقافية بعد الاسلام ، وقد كان للديانة النصرانية القسط الأكبر في ذلك لأن المسيحيين كانوا يسيطرون على الشام لفترة طويلة سبقت الفتح . لذا فقد تميزت الشام منذ القرن الثالث الميلادي بكثرة المدارس اللاهوتية والفلسفية المنتشرة فيها مثل مدارس انطاكية وحران والرها وقيصرية وبيروت. فعن مدرسة انطاكية يقول الأب سويريوس توما « لقد كان في انطاكية على الدوام مدرسة للعلوم الدينية وأخرى شهيرة للعلوم الفلسفية العالية » (١) ، ويقول عن مدرسة قيصرية بفلسطين : « انها فاقت مدرسة الأسكندرية في العلوم ، تأسست سنة ٢٣٠ م بهمة العلامة اوريجانس الذي كان يدرس بها بالإضافة الى اللاهوت والفلسفة علوم الطبيعة والمنطق والهندسة والرياضة والفلك والموسيقى » (٢) .

« وقد شاركت الرها في الثقافة الهيلينية في القرن الثالث قبل الميلاد» (٣) .
أما حران فاشتهرت بالصابئة الذين كانوا فيها ويذكر أن الباطنية ينسبون اليها ، قال البغدادي « ومنهم من نسب الباطنية الى الصابئين الذين هم بحران واستدل بأن صابئة حران يكتمون اديانهم ولا يظهرونها الا لمن كان منهم، والباطنية أيضاً لا يظهرون دينهم الا لمن كان منهم بعد إحلافهم اياه على ان لا

---

١ ـ تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية ١ / ١٥٨
٢ ـ نفسه ١ / ١٤٨
٣ ـ دائرة المعارف البريطانية :مادة الرها .

يذكر اسرارهم لغيرهم » [1] ، إلا أنه يذكر انهم كانوا عبدة اصنام ، وظلوا على ذلك حتى بعد الاسلام « فخيرهم المأمون بين الاسلام أو أي دين آخر مباح وبين القتل فزعموا انهم من الصابئة ، وبهذه الحيـــلة انقذوا أنفسهم من الهلاك» [2] ، وقد اورد السفاريني عن ابن تيمية أن تعطيل الصفات التي قال بها الجعد بـــن درهم كانت من حران حيث اخذها هناك عن اليهود والصابئة فقال: « ثم أصل مقالة التعطيل للصفات انما هو مأخوذ من تلامــذة اليهود والمشركين وضلال الصابئين فان أول من حفظ عنه انه قال هذه المقالة في الاسلام هو الجعد بن درهم واخذهــا عنه الجهم بن صفوان فنسبت اليه ، وقد قيل ان الجعد اخــذ مقالته عن أبان بن سمعان وأخذها أبان عن طالوت بن اخت لبيد بن الأعصم، واخذها طالوت عن لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر ... وكان الجعد هذا فيا قيل من أهل حران وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة بقايا أهل دين النمرود والكنعانيين الذين صنف بعض الساحرين في سحرهم » [3] .

ويشير الاب سويريوس توما الى مدرسة بيروت فيقول: « وقد كان في بيروت كلية فقهية رومانيــــة في القرن الثالث الميلادي .. قال القديس غريغوريوس ٢٧٠ م ان بيروت جامعة كل دساتير الشرائع الرومانية » [4] ، كما ذكر مدرسة بيروت الفقهية الاستاذ فيليب حتي في كتابه تاريخ سورية ولبنان وفلسطين .

وقد كانت فلسفة كل من افلاطون وارسطو معروفة بالشام منذ القرن الثاني للميلاد ، فيذكر الأب توما ان « يوسطينس من مدينة نابلس ولد سنة ١٠١ م وقد أخذ بفلسفة افلاطون » [5] .

وقد كانت اللغــــة السريانية هي اللغة السائدة في ديار الشام حتى الفتح

---

١ ـ الفرق بين الفرق ص ٢٩٤.
٢ ـ دائرة المعارف الاسلامية جـ ٧ / ٣٥٥
٣ ـ لوامع الانوار البهية ١ / ٢٣
٤ ـ تاريخ الكنيسة السريانية ١ / ١٥٧
٥ ـ نفسه ١ / ١٠٦

الاسلامي ، وظلت لغة الترجمة من اليونانية واليها ثم الى العربية .

ويلاحظ الدارس أن هناك مسائل تتعلق بالعقيدة قد ثارت في هذه الفترة وأثرت على بعض علماء الكلام المسلمين بعد ذلك ، فقد أشار سيل الى المعرفة الفطرية التي تحدث بها غيلان وكيف انها مأخوذة من آراء آباء الكنيسة الاوائل امثال جوستين (١٠٠ — ١٦٥ م) ، وهو راهب سوري ، وكذلك اوريجن (١٨٥ — ٢٥٤ م) فقد كتب اوريجن الى سانت بول يقول « إن الوثنيين الذين لم يرسل اليهم رسول من الله لديهم ديانة فطرية ، قانونها مطبوع في قلوبهم ... ولكنهم قاوموا وانكروا معرفة الخالق الأعلى بالرغم من اثبات خلقه للطبيعة »[1] ... ويضيف اوريجون « انني كمحب للحقيقة اشير الى حكماء اليونان ذوي الآراء السديدة فمع انهم عرفوا الله ، الا انهم لم يعظموه أو يشكروه كإله »[2] .

وقد وردت مسألة نفي صفات الله — وهي التوحيد عند المعتزلة — في كلام لجوستين الذي قال « ان الله — تعالى — قال لموسى - عليه السلام - : لا تتصور أن الله سبحانه ينزل أو يصعد لأي مكان لأن الرب لا يأتي الى أي مكان ولا يمشي ولا ينام ، ولا يستيقظ ، بل يبقى في مكانه .. وليس له عيون ولا آذان ولا يمكن وصفه ، يرى كل شيء ، ولا ينجو أحد من مراقبته »[3]

ويشير سيل الى القول بخلق القرآن ويدعي انه مأخوذ من أقوال علماء اللاهوت النصارى في خلق كلمة الله وهو المسيح ، وأن هذه الفكرة هي فكرة مسيحية قبل أن ينادي بها الجعد بن درهم وجهم بن صفوان والمعتزلة فقال عن هذا القول : « ان ذلك يشبه قول المسيحيين الذين ادعوا ان عيسى بن مريم لم يكن مخلوقاً لأنه كان كلمة الله »[4] وهو يشير بذلك الى الآراء المخالفة

---

١ - سيل - Mnslim Theology - ص ١٩

٢ - نفسه ص ١٩ - ٢٠ .

٣ - نفسه ص ٦٤ - ٦٥

٤ - نفسه ص ٦٨

المعتزلة والتي تقول أن القرآن غير مخلوق وأنه كلام الله ويقارنه برأي المسيحيين القائل أن عيسى بن مريم غير مخلوق بل هو كلمة الله ، مما يبين أن هذين الرأيين قد وجدا منذ القديم . وقد نقل سيل عـــن دونكان ماكدونالد في كتابه Muslim Thealogy قوله عن خلق القرآن : « اننا لا نجد صعوبة في أن نتبين أن هذه الفكرة مأخوذة من اللاهوتيين المسيحيين والكنيسة اليونانية ربما عن طريق يوحنا الدمشقي الذي لعب دوراً مهماً »[١] .

ومن المسائل التي وجدت في الشام قبل مجيء الاسلام والتي كانت مثار جدل في الكنائس المسيحية مسألة القضاء والقدر ،فقد كان من تعاليم كنيسة انطاكية في القرون الاربعة الاولى للميلاد « الانسان يفعل الخير أو الشر بارادته وحريته المطلقة ، سوف يثاب أو يعاقب تبعاً لأعماله ، وهذا الثواب أو العقاب ابديان ، ولما تشدق كربوكرانس وابنه ابيفانس زاعمين بان كل شيء من الله ، وحين زعم مرقيـون أن في المـــادة شراً طبيعيــاً خلقه الله ، وادعى بسيليديس وكربوكرانس أن لا حساب للانسان مهما فعل ، وصرح اوريجانس بنهايـــة العذاب وشمول العفو في الآخرة للخطاة حتى الشياطين : حرمتهم بيعة الله »[٢] كما بين سيل « أن القضاء والقدر كان معروفاً عند السريان قبل الفتح الاسلامي ، ومنذ القرن الثاني للميلاد »[٣] .

ولا بد لنا من الاشارة الى الجدل العنيف الذي كان في الشام في القرنـــين الخامس والسادس الميلاديين حــول طبيعة المسيح متمثلاً بانقسام في الآراء بين الكنيستين النسطورية واليعقوبية ، وكانت وجهة نظر النسطورية انه يوجد في المسيح شخص الهي بشري يتصلان واحدهمــا بالآخر بانسجام تام ، بينما نادى اليعاقبة بالطبيعة الواحدة للمسيح .

---

١ ـ نفس المصدر والصفحة .
٢ ـ تاريخ الكنيسة الانطاكية ١ / ٣٠٠
٣ ـ انظر سيل ص ٣٧ ـ ٣٨ .

هذا موجز لما كان من أثر النصارى في الشام قبل الفتح الاسلامي ، وقـــد ظهر تأثير ذلك على علم الكلام عند المسلمين كما سنبين فيما بعد . أما تأثير العناصر الأخرى كاليهود والمجوس والصابئة فكان أقل من تأثير النصارى كما بيّنا ،ومع ذلك فإننا رأينا بعض العلماء يتأثر بهذه الطوائف .. ويمكننا القول أن تلاقي مثل هذه الثقافات المتعددة لا بد أن يخلق حركة علمية في الشام تتمـــيز عن غيرها من الأقطار الاسلامية الأخرى،وسأحاول أن ابين في هذا البحث مظاهر هذه الحركة في القرنين الأول والثاني للهجرة .

تمهيد
في النشاط التعليمي

روي عن النبي احاديث كثيرة تحض على طلب العلم وترفع من شأن طالبه منها قوله (ص) : « اذا جاء الموت طالب العلم وهو على حالهمات شهيداً ».(١) وقوله: « تعلموا العلم وعلموه الناس وتعلموا الفرائض وعلموها الناس ، فإني امرؤ مقبوض ، وأن العلم سيقبض وتظهر الفتن حتى يختلف الاثنان في الفريضة لا يجدان أحداً يفصل بينهما »(٢). وهذا ما حدا بالصحابة في كافة الاقطار الاسلامية الى أن يعقدوا حلقات التعليم في المساجد التي كانت المدارس الأولى حينئذ ، فكان مسجد دمشق هو المكان الذي يلتقي فيه أهل الشام لتدارس العلوم وكان الصحابة يحثون المسلمين على طلب العلم ويرفعون من قدر صاحبه ، قال أبو الدرداء: « من رأى الغدو والرواح الى العلم ليس بجهاد، فقد نقص عقله ورأيه ».(٣) وكان أحياناً يعنّف أهل الشام على عدم اقبالهم على العلم قائلاً : « مالي أرى علماءكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون ، وأراكم قد أقبلتم على ما تكفل لكم به

(١) ابن عبد البر ، جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله « جـ ١ ص ٣١ » (المكتبة العلمية بالمدينة المنورة ، لا تاريخ) وسيشار اليه بـ جامع بيان .
(٢) نفسه جـ ١ ص ١٥٤ .
(٣) نفسه جـ ١ ص ٣٢ .

وتركتم ما امرتم به ألا أن قوماً بنوا شديداً وجمعوا كثيراً وأملوا بعيداً فأصبح بنيانهم وأملهم غروراً وجمعهم بوراً الا فتعلموا ، وعلّموا فإن العالم والمتعلم في الأجر سواء ، ولا خير في الناس بعدهما . »[1]

وقد كثر طلاب العلم وخصوصاً لقراءة القرآن في المساجد حتى اصبحت بعض الحلقات تضم الآلاف ، وكان أبو الدرداء من اوائل من عقد هذه الحلقات بالشام وقد بلغ عدد تلاميذه ألفا وستمئة ونيف ، كان يقرئهم القرآن «عن ابي عبد الله مسلم بن مشكم قال : قال لي أبو الدرداء : أعدد من يقرأ عندنا يعني في مجلسنا هـذا ، فعددت ألفا وستمئة ونيفاً ، فكانوا يقرأون ويتسابقون عشرة وعشرة لكل عشرة منهم مقرئ ، وكان أبو الدرداء قائماً يستفتونه في حروف القرآن ، يعني المقرئين ، فاذا احكم الرجل من العشرة القراءة تحـول الى ابي الدرداء . وكان أبو الدرداء يبتدئ في كل غداة إذا انفتل من الصلاة ، فيقرأ جزءاً من القرآن واصحابه محدقون به يستمعون الفاظه ، فاذا فرغ من قراءته جلس كل رجل منهم في موضعه واخـذ على العشرة الذين اضيفوا اليـه ، وكان ابن عامر مقدماً فيهم » .[2] وهذه الرواية تعطينا صورة عـن التعليم في مساجد دمشق ، وتقسيم المتعلمين الى مجموعات صغيرة لكل مجموعة عريف ، وهـذه المجموعة تسأل عريفها ، فاذا عجز عن الإجابة رجع الى المدرس .

قال سويد بن عبد العزيز عن حلقات أبي الدرداء : «كان اذا غلط احدهم رجع الى عريفهم فاذا غلط عريفهم رجع الى ابي الدرداء فسأله عـن ذلك وكان ابن عامر عريفاً على عشرة ، فلما مات ابو الدرداء خلفه ابن عامر » [3] . ونستدل

---

(١) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، جـ ١ ص ٢٥٨ (مطبعة حيدر آباد الهند ١٣٥٦ هـ).

(٢) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، جـ ١ ص ٣١٥ ، تحقيق صلاح الدين المنجد « مطبعة المجمع العلمي العربي بدمشق » ١٩٥١ م . وسيشار اليه بـ (تاريخ دمشق) وكذا المجلد ٢ .

(٣) ابن الجزري ، غاية النهاية في طبقات القراء جـ ١ ص ٦٠٦ « مطبعة السعادة مصر » ١٩٣٢ ، وسيشار اليه بـ (طبقات القراء).

من ذلك ايضاً أن المتعلمين كانوا يقرأون القرآن على قراءة ابي الدرداء ، امـا العرفاء وهم مقرئوهم فكانوا يسألونه عن حروف القرآن الأخرى ؛ و كلما كبرت الحلقات زاد عدد العرفاء ، قال ابن الجزري عن ابن عامر: « لقد بلغنا عن هذا الامام — ابن عامر — انه كان في حلقته اربعمئة عريف يقومون عنه بالقراءة، ولم يبلغنا احد من السلف على اختلاف مذاهبهم وتباين لغاتهم وشدة ورعهم انه انكر على ابن عامر شيئاً من قراءته »[1] . ومن مميزات التعلم في فترة الصحابة اقتصاره على قراءة القرآن وتفسيره وما يستخرج منه من المواعظ والقصص ، وذلك ان هم الصحابة الأول كان تعليم القرآن الكريم ، واقتران هذا العلم بالعمل حتى ان معاذ كان لا يكتفي بالعلم وحده للانسان الا اذا اقترن بالعمل فيقول : « اعلموا ما شئتم ان تعلموا ، فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا »[2] . ولم يكن التعليم في هذه الفترة بأجر بل طلباً لثواب الآخرة ، وقد ايـد الذين كرهوا اخذ الاجر على تعليم القرآن موقفهم بأحاديث مرفوعة الى الرسول ، فقد رووا أنه قال لعبادة بن الصامت حين اهدى اليه قوس في المدينة لتعليمه أحد المسلمين القرآن : « ان سرك ان تطوق بها طوقاً من نار فاقبلها »[3] .

ثم استحدثت في قراءة القرآن في العصر الأموي طريقة تسمى « الدراسة ». قال ابـن عساكر: « اول من احدث الدراسة بدمشق زمن عبد الملك بـن مروان(هشام بن اسماعيل بن هشام بن المغيرة المخزومي) ، واول من احدث الدراسة في فلسطين (الوليد بن عبـد الرحمن الجرشي)»[4] . ويبـدو ان « الدراسة » كانت تعني التكرير وراء قارىء ما ، وقد يكون المكرر واحداً

---

(١) ابن الجزري ، النشر في القراءات العشر جـ ٢ ص ٢٦٤ (مطبعة مصطفى محمـد القاهرة) لا .ت وسيشار اليه بـ والنشر.

(٢) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ ١ ص ٤٠ ، ط الثالثة ، (دار الكتاب العربي للطباعة والنشر - بيروت) ١٩٦٧ م وسيشار اليه بـ تفسير القرطبي .

(٣) نفسه جـ ١ ص ٣٣٥ .

(٤) تاريخ دمشق جـ ٢ ص ٥٠ .

أو جماعة،يدل على ذلك وصف ابن عساكر للدراسة: « فقرأ هشام بن اسماعيل فجعل عبد الملك يقرأ بقراءة هشام ، فقرأ بقراءته مولى له ، فاستحسن ذلك من يليه من اهل المسجد فقرأ بقراءته »[1] . ويظهر ان هذه الدراسة قد تعدت لتشمل تدبر معاني القرآن والتفكر فيه مما جعل بعضهم ينكرها ، قال عبد الله ابن العلاء : « كنا ندرس في مجلس يحيى بن الحارث في مسجد دمشق في خلافة يزيد بن عبد الملك ، اذ خرج علينا امير دمشق الضحاك بن عبد الرحمن بن عرزب الاشعري من الخضراء ، فأقبل علينا منكراً لما نصنع فقال : ما هذا وما انتم ؟ فقلنا : ندرس كتاب الله . فقال : أتدرسون كتاب الله تبارك وتعالى ؟ ان هذا شيء ما سمعته ولا رأيته ولا سمعت انه كان قبل،ثم دخل الخضراء »[2].

ونشأت دور لتعليم الصبيان في العصر الاموي وهي التي دعيت الكتاتيب ، ومن معلمي الكتاب الشاميين قبصة بن ذؤيب قيل انه كان « معلم كتاب »[3] وقد انتشرت الكتاتيب في الامصار الاسلامية عامة فقيل في الحجاج بن يوسف « انه كان مكتباً »[4] .

وقد كان بالاضافة الى ذلك مجالس التعلم التي تعقد خارج المسجد ، ويستدل على ذلك من كتاب عمر بن عبد العزيز ، الى جعفر بن برقان حيث يقول : « فمر اهل الفقه والعلم من عندك فلينشروا ما علمهم الله في مجالسهم ومساجدهم »[5] .

وقد ظهرت طبقة المؤدبين في البلاط الاموي لتعليم اولاد الخلفاء والامراء وكذلك ابناء الخاصة ، وسنبين ذلك عند كلامنا عن اشهر المعلمين في تلك الفترة .

---

(١) تاريخ دمشق ٢ ص ٤٩ .
(٢) تاريخ دمشق ٢ - ١٥٢
(٣) الذهبي ، تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام جـ ٣ ص ٢١٦ . (نشر مكتبة القدسي ، مطبعة السعادة بمصر) ١٣٦٩ هـ وسيشار اليه بـ تاريخ الاسلام .
(٤) تاج العروس (مادة كتب) .
(٥) جامع بيان جـ ١ ص ١٢٤ .

١ ـ اساليب التعلم :

ويمكن ان يستشف من الاخبار والروايات انه كانت هناك طرق تعليمية بسيطة تراعى فيها بعض الاصول ، من ذلك مراعاة المستوى العقلي لدى المتعلم. قال الزهري : « ما حدثت قوماً حديثاً قط لم تبلغه عقولهم الا كان فتنة على بعضهم »[١] ، كذلك كان الزهري لا يميل الى تكرار الحديث رغم ان التكرار مفيد للمتعلمين ، ولذلك يقول : « تكرير الحديث اشد عليّ من نقل الصخر »[٢] .

وكان الزهري يؤيد اخذ العلم درجة درجة وعدم اخذه دفعة واحدة ، قال : « من طلب العلم جملة فاته جملة ، وانما يدرك العلم حديثاً وحديثين »[٣] ، وهذا يشبه ما قاله يونس بن يزيد (سنة ١٥٩ هـ) ، وهو مولى معاوية بن ابي سفيان : « لا تكابر هذا العلم فانما هو اودية فأيها اخذت فيه قبل ان تبلغه قطع بك ولكن خذه مع الليالي والأيام »[٤] .

ومن الغريب اعتقاد بعض العلماء ان العلم لا يصلح لكل الناس كالرعاع والسفلة اذ أن تعلمهم قد يضر بالمجتمع. يقول مكحول : « تفقه الرعاع فساد الدين وتفقه السفلة فساد الدنيا »[٥] ، وقد حاول بعضهم أن يبين ان العلم لا يصلح الا لأصحاب الحسب والدين والسلطان ، ويؤيد هذا القول ما ذهب اليه ابو بكر بن عبد الرحمن ان « العلم لواحد من ثلاثة : لذي حسب يزينه ، او

---

(١) جامع بيان جـ ١ ص ١٣٤ .

(٢) نفسه جـ ١ ص ١٤٠ .

(٣) تفسير القرطبي جـ ١ ص ٤٠ .

(٤) جامع بيان جـ ١ ص ١٠٤ .

(٥) نفسه جـ ١ ص ١٦٠ .

لذي دين يسوس به دينه ، أو لمن يختلط بالسلطان ويدخل اليه بتحفة تعلمه وينفعه به »[1] .

٢ – ارتباط التعليم بالقصص والوعظ .

ارتبط التعليم بالقصص والوعظ منذ البداية ، وارتبط الجميع ارتباطاً وثيقاً بالقرآن الكريم ، اذ كان القصص مأخوذاً من القرآن الكريم ، ثم يأخذ القاص بتفصيل الحادثة خصوصاً اذا كان من اهل الكتاب الذين اسلموا ،كتميم الداري فقد كان نصرانياً واسلم ، وهو أول من قص على الناس في الاسلام ، قال الذهبي : « ان تميماً استأذن عمر في القصص فأذن له ثم مر عليه بعد فضربه بالدرة ثم قال له بكرة وعشية ، وعن حميد بن عبد الرحمن أن تميماً استأذن عمر في القصص سنين ويأبى عليه ، فلما اكثر عليه قال : ما تقول ، قال : اقرأ عليهم القرآن ، وآمرهم بالخير وانهاهم عن الشر ،قال عمر ذلك الذبح، ثم قال عظ قبل أن اخرج للجمعة ،فكان يفعل ذلك فلما كان عثمان استزاده فزاده يوماً آخر »[2] . وينسب الى تميم روايات اقرب الى الخرافة منها الى الواقع كقصة الجساسة وهي تتعلق بأمر الدجال ، وهذا ما يدعو للاعتقاد ان القصص كان طريقاً لدخول الاسرائيليات ، فبالاضافة الى تميم الداري كان هناك كعب الاحبار وهو يهودي ، أسلم وادخل كثيراً من الاسرائيليات عن طريق القصص والتفسير وغيرهما ؛ فمن قصص كعب عن الارض قوله : « نجد صفة الارض في كتاب الله – يعني التوراة – على صفة النسر فالرأس الشام ، والجناحان المشرق والمغرب ، والذنب اليمن ، فلا يزال الناس بخير ما بقي الرأس »[3] ، وقد كان كعب يبدأ بقراءة التوراة قبل القرآن ، وحين نبهه معاوية الى ذلك

---

(١) جامع بيان جـ ١ ص ١٨٦ .
(٢) تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ١٩١ .
(٣) تاريخ دمشق جـ ١ ص ١٧٩ .

قال : « ان الله بدأ بالتوراة قبل القرآن » [1] ، وكثيراً ما كان يتخذ القصص عند كعب شكل تنبؤات ، كتنبؤه عن خراب العالم وموعده ، «وتنبؤه عن الدار التي سيسكن بها الدجال » [2] . والمعروف أن القصص القرآني اتخذ طابع العظة ورواية القصة بصورة اجمالية دون الدخول في التفصيلات التي لا فائدة منها ، وكان ذلك مدعاة لسؤال اصحاب الكتب السماوية الأخرى عنها لأن هذا القصص قد ورد الكثير منه في التوارة مفصلاً ، وقد روى كعب كثيراً من هذه الأخبار ، منها قوله عن سيدنا موسى أنه قال : « يا رب أقريب أنت فأناجيك أم بعيد فأناديك . قال : يا موسى أنا جليس من ذكرني [3] .

ولم يكن كعب وتميم وحدهما يقصان ، وهما من اصحاب الديانتين السابقتين إلا أن بعض الصحابة كان يقص كأبي الدرداء الذي كان يقص في الشام ويكتب عنه الشاميون قصصه في صحف، ولكنه قوبل بمعارضة شديدة من قبل الصحابة ومنهم عبد الله بن مسعود : « عن عبد الرحمن بن الاسود عن أبيه قال : جاء رجل من أهل الشام الى عبد الله بن مسعود ومعه صحيفة فيها كلام من كلام أبي الدرداء وقصص من قصصه ، فقال : يا ابا عبد الرحمن الا تنظر ما في هذه الصحيفة من كلام اخيك ابي الدرداء ؟ فأخذ الصحيفة فجعل يقرأ فيها وينظر حتى اتى منزله فقال : يا جارية ائتني بالاجانة مملوءة ماء . فجاءت بها فجعل يدلكها ويقول : (ألر. تلك آيات الكتاب المبين، انا انزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ، نحن نقص عليك أحسن القصص) أقصصاً احسن من قصص الله تريدون، أو حديثاً أحسن من حديث الله تريدون » [4] .

---

(١) ابن عساكر ، تهذيب تاريخ ابن عساكر ص ٢٦٠ – ٢٦١ ، هذبه ابن بدران. (مطبعة روضة الشام ، دمشق) ١٣٣١ هـ ،وسيشار اليه بـ « تهذيب ابن عساكر »،

(٢) تاريخ دمشق ١/٦٠٦

(٣) تفسير القرطبي ، جـ ٤ ص ٣١١ .

(٤) البغدادي ، تقييد العلم ، ص ٥٤ – ٥٥ ، أصدره وحققه يوسف العش (طبعة المعهد الفرنسي دمشق) ١٩٤٩ م .

ولم يتورع بعض علماء التابعين الشاميين من الأخذ عن علماء أهل الكتاب من الذين اسلموا ، فهذا خالد بن معدان الكلاعي يأخذ عن كعب الاحبار بعض تنبؤاته ومنها ذكر السفياني الذي ذكره كعب فقال خالد : « يهزم السفياني الجماعة مرتين ثم يهلك »[1].

وقد تطور القصص في عصر بني امية في الشام خصوصاً ، حتى اصبح القاص يعيّن من قبل الخليفة وكذلك يعزل بواسطته ، أي ان القصص اصبح وظيفة رسمية . ويذكر ان الخليفة عبد الملك عزل ابا أدريس الخولاني عن القصص واقره على القضاء ، فقال ابو ادريس: « عزلتموني عن رغبتي وتركتموني في رهبتي »[2] ، وكان ابو ادريس يقص بعد تعليمه القرآن في المسجد ثم قدم القصص بعد ذلك .

وقد كان لبعض الخلفاء قصاص كعمر بن عبد العزيز وكان قاصه محمد بن قيس كما « كان ابن عيينة يقص عند سليمان »[3] .

ومن القصاص من كان يعمد الى آية في كتاب الله فيها صورة معينة سواء كان ذلك للترغيب أو الترهيب ، ثم يبدأ يصور تفصيلات هذا المشهد ، ويضيف اليه أشياء مبالغة ليكون اكثر أثراً في النفوس ، فاذا قرأ قوله تعالى « فارتقب يوم تأتي السماء بدُخان مبين ، يغشى الناسَ هذا عذاب أليم » الدخان ١٠ ، ١١ـ فهذه صورة من الممكن أن يستغلها القاص وامثالها كثيراً في قصصه ، مستعيناً بمخيلته تارة أو بوضع صور اخرى للترهيب ومن هنا ينشأ ارتباط القصص بالوعظ ، إذ أن القصص في مضمونه ما هو الا اتعاظ بمن مر من الامم الخالية . والسول

---

(١) تاريخ دمشق جـ ١ ص ٦٠٥

(٢) تاريخ الاسلام جـ ٣ ص ٢١٦

(٣) الطبري، تاريخ الامم والملوك جـ ٥ ص ٣٠٥ (مطبعة الاستقامة بالقاهرة) ١٩٣٩ م . وسيشار اليه بـ تاريخ الطبري .

الزائلة ، لذا كان اكثر القاصين وعاظاً كتميم الداري وأبي إدريس الخولاني .

وكان الوعظ يستمد اكثر مادته من القرآن ، حتى في التعبيرات احياناً وتمثل ذلك في الشام بالاوزاعي الذي نقل عنه كاتبه الهقل بن زياد بعض المواعظ ، التي توضح مدى صلتها بالقرآن ، قال الاوزاعي : « ايها الناس تقوّوا بهذه النعم التي اصبحتم فيها على الهرب من نار الله – عز وجل – الموقدة التي تطلع على الافئدة فانكم في دار الثواء فيها قليل ، وانتم فيها مرحلون خلائف بعد القرون التي استقبلوا من الدنيا انفها وزهرتها، فهم كانوا اطول منكم اعماراً ، وامد اجساماً واعظم آثاراً ، فخددوا الجبال وجابوا الصخر ، ونقبوا في البلاد مؤيدين ببطش شديد واجساد كالعماد ، فما لبثت الايام والليالي أن طوت مدتهم ، وعفت آثارهم واخربت منازلهم وانست ذكرهم ، فما تحس منهم من احد » [1]. فالأخذ من القرآن واضح في جميع أجزاء العظة ، وقد كانت بعض العظات تفسيراً لآية بطريقة مطولة فيها اسهاب ، كقول خالد بن معدان في قوله تعالى (أم على قلوب اقفالها) : « ما من عبد إلاّ وله أربع اعين، عينان في جبهته يبصر بهما امر الدنيا ، وعينان في قلبه يبصر بهما امر الآخرة فاذا أراد الله بعبد خيراً فتح عينيه اللتين في قلبه ، فيبصر بهما ما وعد بالغيب ... وإذا اراد الله بعبد غير ذلك تركه على ما هو عليه » [2].

وقد كان الخلفاء الامويون والعباسيون يطلبون العظة من العلماء ، فهذا عمر ابن عبد العزيز يرسل الى الحسن البصري طالباً العظة ، وهشام بن عبد الملك يعظه خالد بن صفوان مستشهداً بموعظة لأحد أصحاب العلم يعظ فيها ملكاً من ملوك العجم ، ومن ضمن ما قاله ذلك الرجل والملك ، نورد ما يلي : « – قال الملك بعد الموعظة – واين المهرب ؟قال : إلى أحد امرين ، اما أن تقيم في ملكك

(١) تاريخ دمشق مخطوط ظاهرية جـ ١٠ / ٤٨ – ب – ١٢٥٦ ، وصفة الصفوة جـ ٤ ص ٢٣٠ – ٢٣١ .

(٢) صفة الصفوة جـ ٤ ص ١٨٨ .

فتعمل فيه بطاعة ربك ، وأما أن تلقي عليك امساحاً ثم تلحق بجبل تعبد ربك حتى يأتي أجلك ، قال فما لي إذا أنا فعلت ذلك ؟ قال : حياة لا تموت وشباب لا يهرم وصحة لا تسقم وملك جديد لا يبلى ،فأتى جبلاً فكان فيه حتى مات » [1] . وللاوزاعي مواعظ كثيرة قالها لأبي جعفر المنصور .

٣ – اشهر المعلمين والمؤدبين والقصاص

ومن الصحابة الذين كانوا يقومون بالتعليم في الشام عبادة بن الصامت ومعاذ ابن جبل . أما عبادة فهو « أحد من جمع القرآن في زمن النبي ، ارسله عمر إلى فلسطين ليعلم أهلها القرآن ، فأقام بها إلى أن مات » [2]. ويروي الذهبي « أن عمر لما استخلف كتب يزيد بن أبي سفيان اليه ، ان اهل الشام كثير وقد احتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم ، فقال اعينوني بثلاثة ، فخرج معاذ وأبو الدرداء وعبادة » [3] . وكانت لعبادة عند عمر منزلة كبيرة حتى أنه لما اختلف مع معاوية في أمر ، ورجع إلى المدينة مخبراً عمر قال له الخليفة : «ارحل إلى مكانك فقبح الله أرضاً لست فيها وأمثالك ، فلا إمرة له عليك » [4] .

أما معاذ بن جبل « فكان أعلم الأمة بالحلال والحرام » [5] ، وقد علم قبل ذلك بمكة واليمن ، ثم انتقل الى الشام في خلافة عمر ، وهو أحد من جمع القرآن حفظاً زمن النبي ، ومن ذلك نتبين انه كان يعلم القرآن وما يستنبطه من احكام تتعلق بالحلال والحرام .

وقد أرسل عمر رجلاً آخر لتعليم أهل الشام وهو عبد الرحمن بن غنم

---

(١) ابن قتيبة عيون الاخبار ، جـ ٢ ص ٣٤٢ ،(مطبعة دار الكتب المصرية)١٩٢٥ م.
(٢) ابن حجر العسقلاني ، تهذيب التهذيب ، جـ ٥ ص ١١١ – ١١٢ ، (دار صادر بيروت ، عن طبعة حيدر آباد) ١٣٢٥ هـ .
(٣) تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ١١٨ .
(٤) نفس المصدر والصفحة .
(٥) نفسه جـ ٢ ص ٢٤ .

الاشعري ، وقد اختلف في صحبته، وعده أبو مسهر الغساني « رأس التابعين بالشام ، كان كبير القدر وهو الذي تفقه عليـــه التابعون في الشام ، مـــات سنة ٧٨ هـ » (١) .

ومن المدرسين في العصر الاموي في الشام أبو إدريس الخولاني « عائذ الله بن عبد الله » المتوفى سنة ٨٠ هـ ، وكان يقوم بتعليم القرآن ثم يقص بعد ذلك ممـا يدل أن القصص اصبح جزءاً من التعليم : « عن سعيد بن عبد العزيز قال : كان أبو ادريس عالم الشام بعد أبي الدرداء ،وعن يزيد بن عبيدة أنه رأى أبا ادريس في زمن عبد الملك ، وان حلق المسجد بدمشق يقرؤون القرآن يدرسون جميعاً وأبو ادريس جالس الى بعض العمد فكلما مرت حلقة بآية سجدة بعثوا اليه يقرأ بها فأنصتوا له وسجد بهم وسجدوا جميعاً بسجوده .. حتى اذا فرغوا من قراءتهم قام ابو ادريس يقص » (٢) .

وفي العصر الأموي ظهرت فئة المؤدبين وهم الذين كانوا يعلمون ابناء الخاصة كما اسلفنا وكان هؤلاء المؤدبون يدرسون القرآن والنحو واللغة والانساب والشعر وكان الخلفاء يغدقون عليهم العطاء من اجل تدريس هذه العلوم ما عدا القرآن حيث يكره اخذ الاجرة على تعليمه ؛ فقد حدث اسماعيل بن عبيد الله أن عبد الملك قال له : « يا اسماعيل علم بني فإني مثيبك على ذلك ،قلت يا امـير المؤمنين فكيف وقد حدثتني أم الدرداء عن ابي الدرداء عن رسول الله ﷺ « من أخذ على تعليم القرآن قوساً قلده الله قوساً من نار يوم القيامة » قال : فانني لست اعطيك على القرآن ، إنما اعطيك على النحو » (٣).ومن المؤدبين« عبـــد الواحد بن قيس السلمي وهو علم أهل الشام بالنحو » (٤) . وكان معلم بني يزيد

(١) تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٤٤ .
(٢) تاريخ الاسلام جـ ٣ ص ٢١٦
(٣) نفسه جـ ٥ ص ٢٢٦ .
(٤) نفسه جـ ١ ص ١٠٥ .

ابن عبد الملك . وكان الزهري يؤدب أولاد الخلفاء من بني أميـة ومنهم« هشام ابن عبد الملك »ويذكر أنه ادى عن الزهري سبعة آلاف دينار«[1]» والمعروف أن الزهري كان إماماً في الحديث والرواية .

وللأنساب نصيب في مجال التعلم عند بني أميـة ، ومن المؤدبـين النسابين «دغفل بن حنظلة» استقدمه معاوية وأمره أن يعلم ولده يزيد » . [2]

وقد كان أثر المؤدب كبيراً على اولاد الخلفاء الذين قـد يصبحون خلفـاء بعد ذلك فيعتنقون مبادىء المؤدب ويحاولون تطبيقها . فهذا مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية يلقب بمروان الجعدي نسبة إلى الجعد بن درهم مؤدبه الذي قال بخلق القرآن والجبر . ويبدو أنه كانت للمؤدب مهمة أخرى غير التعليم في العصر الاموي ، وهي الاشراف على اولاد الخلفاء في حياتهم العادية حتى في طعامهم وشرابهم ونظافتهم لقد جاء في وصية عبد الملك لمؤدب ولده « واحف شعورهم تغلظ رقابهم ، واطعمهم اللحم يقووا » [3] .

ومن المؤدبين في البلاط الاموي « عبد الحميد الكاتب ، وعبد الصمد بن عبد الأعلى وكان معلم ولد عتبة بن أبي سفيان ، كان يتهم بالزندقة ، وكان يؤدب أيضاً الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، ويقال أنه هو الذي أفسده » [4] .

وقد ظهر في بلاط بني أمية اهتمام بالعلوم الطبيعية كالكيميـاء والطب والهندسة. وكان الامويون يستدعون العلماء اليونان وغيرهم ليعلموهم هذه العلوم، فخالد بن يزيد بن معاوية يستدعي ماريانوس اليوناني ليتلقى عنه علوم الصنعة أي الكيمياء كما سنوضح ذلك عند كلامنا عن علوم الأوائل .

---

(١) عين الاخبار جـ ٢ ص ١٦١ .

(٢) تهذيب ابن عساكر جـ ٥ ص ٢٤٢ .

(٣) عيون الاخبار جـ ٧ ص ١٦١

(٤) الجاحظ، البيان والتبيين ، جـ ١ ص ٢٥١ ط الثالثة (دار التأليف بمصر) ١٩٦٨م.

اما الوعاظ في الشام فمن اشهرهم بلال بن سعد ، قال الذهبي عنه : « انه واعظ أهل الشام وعالمهم ،» [1] ، وشبهه بعضهم بالحسن البصري حتى قال أبو زرعة الدمشقي : « كان لأهل الشام مثل الحسن بالعراق » [2] ، وقال الاوزاعي عنه « لم اسمع واعظاً قط أبلغ من بلال بن سعد » [3]. ومواعظه موجودة في تاريخ الاسلام للذهبي رواها الاوزاعي وعبد الرحمن بن يزيد بن تميم ، وعبد الله بن العلاء ، وسعيد بن عبد العزيز ، والضحاك بن عبد الرحمن ، ومن مواعظه التي نقلها عنه عبد الرحمن بن يزيد قوله: « يا اهل الخلود يا أهل البقاء انكم لم تخلقوا للفناء وإنما تنقلون من دار الى دار كما نقلتم من الاصلاب الى الارحام » [4] . وقد أورد له ابن الجوزي بعض المواعظ في كتابه ، صفة الصفوة تحت باب ذكر المصطفين من أهل الشام وقد عده من الطبقة الرابعةفيهم

ومن الوعاظ الشاميين يزيد بن ميسرة بن حليس ، كان واعظاً زاهداً ، والزهد من صفات الواعظ،بالاضافة الى كثرة الصلاة والصيام والعبادة والذكر، حتى أن بعض الوعاظ وهو أبو مسلم الخولاني كان يرى أن يذكر الله الرجل حتى كأنه مجنون فيقول : « اذكر الله حتى يحسبك الناس من ذكر الله مجنوناً [5] وقال الاوزاعي في بلال بن سعد « كان من العبادة على شيء لم نسمع احداً قوي عليه كان له كل يوم وليلة الف ركعة » [6] .

---

(١) تاريخ الاسلام جـ ٤ ص ٢٣٤ .
(٢) نفسه جـ ٤ ص ٢٣٥ .
(٣) نفسه جـ ٤ ص ٢٣٥ .
(٤) نفسه جـ ٤ ص ٢٣٥ .
(٥) تهذيب ابن عساكر جـ ٧ ص ٣١٦ .
(٦) تاريخ الاسلام جـ ٥ ص ١٣٥ .

الفَصْلُ الأول

العُلومُ الدِينيّةُ الإسْلاميَّة

١ ـ القراءات
٢ ـ التفسير
٣ ـ الحديث
٤ ـ الفقه

١ — القراءات

أطلق لفظ القراء في عهد النبي والخليفتين أبي بكر وعمر على من كانوا يحفظون القرآن ، كما أطلق عليهم اسم « حملة القرآن » ، فقد ورد عن عمر بن الخطاب بعد معركة اليمامة بين المسلمين والمرتدين قوله لأبي بكر الصديق : « إن القتل قد كثر واستحر بقراء القرآن يوم اليمامة ، وإني أخشى أن يستمر القتل بالقراء فيذهب من القرآن كثير ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن »[١] . وقد سماهم «حملة القرآن» في رواية أخرى حيث قال لأبي بكر : « إن حملة القرآن قد قتل أكثرهم يوم اليمامة ، فلو جمعت القرآن فإني أخاف عليه أن يذهب حملته »[٢] . وقد أطلق هذا اللفظ على كل من حفظ القرآن الكريم ، دون النظر إلى اختلاف الحروف ، أو غير ذلك من الأمور التي عرفت بعد هذه الفترة .

وفي عهد عثمان بن عفان تطوّرت هذه اللفظة وأخذت معنى أدق فشملت عدداً محدوداً من الصحابة اشتهروا بقراءاتهم وكان لكل منهم مصحف . وقد بدأت الأمصار تأخذ عن بعض هؤلاء الصحابة ، فالشام تأخذ عن أبيّ بن كعب والمقداد بن الأسود ، والكوفة عن عبد الله بن مسعود ، حتى ظهر الخلاف بين أهل الشام والعراق في غزوة (أرمينيه) سنة ٣٠ هـ . فقد جاء في الكامل في

---

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج٣ص ١١٢ (دار صادر — بيروت) ١٩٦٥ م ، وسيشار إليه بـ الكامل .

(٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج٢ص ١٣٥ (دار صادر—بيروت) ١٩٦٠م .

حوادث سنة ٣٠ عن حذيفة بن اليمان قوله : « رأيت أناساً من أهل حمص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم وانهم أخذوا القرآن عن المقداد ، ورأيت أهل دمشق يقولون : إن قراءتهم خير من قراءة غيرهم . ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك وانهم قرأوا على ابن مسعود »(١) . وفي رواية أخرى أن أهل الشام – وخصوصاً دمشق – كانوا يقرأون بقراءة أبيّ بن كعب . وقد روى الطبري هذه الحكاية عن حذيفة بقوله : « غزوت (أرمينيه) فحضرها أهل العراق وأهل الشام ، فإذا أهل الشام يقرأون بقراءة أبيّ بن كعب ،فيأتون بما لم يسمع أهل الشام فتكفرهم أهل الشام »(٢) . وهذا ما حدا بعثمان أن يأمر بكتابة مصحف واحد ويحرق الباقين ، ويبعث لكل بلد مصحفاً ومنها الشام ، وقد زاد من إصرار عثمان على توحيد النسخ القرآنية ما رواه ابن الأثير من : « انه بلغه أن الناس يقولون : قرآن آل فلان ، فأراد أن يكون نسخة واحدة »(٣) .

ومن الاختلافات التي حدثت في القراءة قبل نسخ المصحف العثماني ما رواه الأعمش عن علقمة قال : « قدمنا الشام فأتانا أبو الدرداء فقال : أفيكم أحد يقرأ علي قراءة عبد الله –ابن مسعود – قال : فأشاروا إليّ . فقلت : نعم أنا .قال: كيف سمعت عبد الله يقرأ هذه الآية : ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ قال : قلت سمعته يقرأها : ﴿ والليل إذا يغشى والذكر والأنثى ﴾. فقال أبو الدرداء: وأنا والله هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها وهؤلاء يريدونني أن أقرأها وما خلق فلا أتابعهم . قال ابو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وهكذا قراءة عبدالله بن مسعود : ﴿والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى والذكر والأنثى﴾(٤). ومثل هذا الخلاف في القراءة حصل بين معاوية بن أبي سفيان وابن عباس قبل كتابة

(١) الكامل جـ ٣ ص ١١١ .
(٢) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، جـ١ص٢٦. ط الثانية(مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة) ١٩٥٤م. وسيشار إليه بـ : تفسير الطبري .
(٣) الكامل جـ ٣ ص١١١ ،
(٤) الترمذي ، سنن الترمذي، جـ١١ص٥٨–٥٩ (مطبعة الصاوي، القاهرة) ١٩٣٤م .

المصحف العثماني ، حيث قرأ معاوية قوله تعالى : ﴿ تغرب في عين حامية ﴾ . فقال ابن عباس : ما نقرأها إلا حمئة . وقد أيّد عمرو بن العاص قول معاوية ، فاحتكموا إلى كعب الأحبار فقال : « أما العربية فأنتم أعلم بها وأما أنا فأجد الشمس في التوراة تغرب في ماء وطين »[1]. فاختلاف الصحابة أدى إلى اختلاف المسلمين في القراءة . ثم أمر عثمان بكتابة المصحف ، وأرسل إلى كل بلد مصحفاً ومع كل مصحف رجلاً يقرأه لأهل ذلك البلد ، فأرسل إلى الشام المغيرة بن أبي شهاب »[2] .

وتدل بعض الأخبار على أن المسلمين لم يقرأوا مصحف عثمان بلا تصحيف إلا لخلافة عبد الملك بن مروان ، أي ما يقل عن نصف قرن ، ثم ظهر التصحيف بعد ذلك مما حدا بالحجاج بن يوسف إلى وضع النقط لأن التصحيف قد ظهر في العراق . فعن أبي أحمد العسكري : « وقد روي أن السبب في نقط المصاحف أن الناس غبروا يقرأون في مصاحف عثمان — رحمة الله عليه — نيفاً وأربعين سنة إلى أيام عبد الملك بن مروان ، ثم كثر التصحيف وانتشر بالعراق ، ففزع الحجاج إلى كُتّـابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات »[3].

وممن أثروا في القراءة في الشام من الصحابة نفر منهم : أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وفضل بن عبيد ووائلة بن الأسقع . أما أبو الدرداء ومعـاذ بن جبل فقد جمعا القرآن في عهد النبي ، فعن أنس قال : « مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيدبن ثابت وأبو زيد »[4] . وقد كان تأثير أبا الدرداء كبيراً على أهل الشام في القراءة كما في التفسير حتى قال أحدهم :

---

(١) طبقات القراء جـ ٢ ص ٣٠٣ .

(٢) نفسه جـ ٢ ص ٣٠٥ .

(٣) العسكري «أبواحمد» شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ، ص١٣ ، تحقيق عبدالعزيز أحمد ، ط الأولى (مطبعة البابي الحلبي — القاهرة) ١٩٦١ م .

(٤) تذكرة الحفاظ جـ١ ص ٢٢ .

« رأيت أبا الدرداء دخل المسجد ومعه من الأتباع مثل ما يكون مع السلطان، وهم يسألونه عن العلم »[1] . والمعروف أن أبا الدرداء كان يقوم بإقراء القرآن والتفسير في المسجد .

وقد ورد قراءة المرادف لأبي الدرداء ، وأعتقد أن ذلك كان لضرورة وقتية اضطر إليها لقراءة رجل أعجمي لم يحسن نطق الكلمة . قال همام بن الحارث : « كان ابو الدرداء يقرىء رجلاً أعجمياً فقرأ : « طعام الأثيم طعام اليتيم » فقال أبو الدرداء : «طعام الأثيم» فلم يقدر يقولها . فقال ابو الدرداء : «طعام الفاجر» فاقرأه طعام الفاجر »[2] . ولم يكن أبو الدرداء ليجيز القراءة بالمرادف إلا أنه قد يكون من رأيه أن قراءة «الفاجر» أفضل وأقرب للمعنى من « الأثيم » . ولم يعرف عنه نص صريح يجيز فيه القراءة بالمرادف . كما لم يرد بتاتاً عنه أو غيره من الصحابة أنه قرأ القرآن بالمعنى وذلك بخلاف رواية الحديث .

وقد وصف الذهبي أبا الدرداء بأنه « مقرىء أهل دمشق وفقيههم »[3] . وقد روى عنه أكثر التابعين في الشام ومنهم زوجته أم الدرداء وجبير بن نفير وابنه بلال وخالد بن معدان وأبو إدريس الخولاني وعبد الله بن عامر — الذي خلفه بالقراءة — وآخرون .

أما فضالة بن عبيد فقد كان قاضي دمشق ، وأحد من بايع بيعة الرضوان ومن قراءته «وأصبح فؤاد أم موسى فازعاً – بالزاي »[4] . وقد أخذ عنه القراءة أيضاً عبد الله بن عامر .

وكان في الشام واثلة بن الأسقع الذي أخذ القراءة عن النبي وقرأ عليه جماعة من الشاميين .

---

(١) تذكرة الحفاظ جـ١ ص ٢٢ .
(٢) تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ١٠٩ .
(٣) تذكرة الحفاظ جـ١ص ٢١ .
(٤) تاريخ الاسلام جـ ٣ ص ٣١١ .

أما من التابعين فكان شهر بن حوشب الذي قرأ على ابن عباس فقال : « عرضت القرآن على ابن عباس سبع مرات »[1] . ومن التابعين الذين أثروا في القراءة في الشام تأثيراً كبيراً وكانت له قراءة مميزة به عبد الله بن عامر اليحصبي مقرىء أهل الشام وقاضي دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك :

عبد الله بن عامر :

ولد ابن عامر سنة ثمان للهجرة وتوفي سنة ١١٨ هـ . وقد روى الذهبي أنه كان ينتسب إلى حمير وقبيلته يحصب، إلا أنه قد اتهم بأنه ينتسب إليهم بالولاء، وروى قصة عن جذبه من امامة الناس لاتهامهم إياه بأنه دعي" »[2] .

اشتهر ابن عامر بالقراءة بعد وفاة أبي الدرداء سنة ٣٢هـ. وقد ظل أهل الشام يقرأون بقراءته حتى سنة خمسمئة هجرية بالتقريب »[3] . أما شيوخه الذين قرأ عنهم فمنهم المغيرة بن أبي شهاب المخزومي عن عثمان بن عفان ، ويقال أن ابن عامر سمع قراءة عثمان في الصلاة ، ويقال أنه قرأ عليه نصف القرآن ، كما قرأ على أبي الدرداء وواثلة بن الأسقع وفضالة بن عبيد ، وقد خلف أبا الدرداء بحلقته في المسجد »[4] .

ولم تكن قراءة ابن عامر اجتهاداً منه ، لأن قراءة القرآن كلها توقيفية ، قرأها الصحابة عن الرسول ﷺ وأقرأوها للتابعين من بعدهم ومنهم عبد الله بن عامر ، وان الاختلاف راجع إلى اختلاف الصحابة في تلقيهم ، وفي هذه الناحية كان ابن عامر متلقياً ولكنه يختار من بين هذه القراءات قراءة لها مميزاتها

---

(١) تاريخ الاسلام جـ ٤ ص ١٣ .
(٢) نفسه جـ ٤ ص ٢٦٧ .
(٣) طبقات القراء جـ ١ ص ٤٢٤ .
(٤) ترجمته في تاريخ الاسلام جـ ٤ ص ٢٦٦ — ٢٦٧ ، والداني ،التيسير في القراءات السبع ص ٥، ٦، ٧ ،تحقيق أوتو برتزل (مطبعة استانبول) ١٩٣٠ م وسيشار إليه بـ التيسير، وطبقات القراء جـ ١ ص ٤٢٤ — ٤٢٦ ، والنشر جـ ٢ ص ١٤٤ .

وتنسب إليه . يقول ابن الجزري : «إن ابن عامر لم يتعد فيما ذهب إليه الأثر ولم يقل قولاً يخالف فيه الخبر»[1] . وهو يختار ما يراه صحيحاً من بين هذه القراءات ومما يدل على ذلك قول ابن حجر : « اتخــــذه أهل الشام إماماً في قراءته واختياره »[2]. وأعتقد أن اختياراته ناشئة عن تأثره بالأئمة العلماء الذين أخذ عنهم وأغلبهم من الحجاز ، لذا كان يفضل اختيار لغة الحجاز على لغة تميم . من ذلك الإدغام في المجزوم والاسم المضاعف هو لغة تميم والفك لغة أهل الحجاز . لذا نجد ابن عامر لم يوافق القراء في قراءتهم بلغة تميم قوله تعالى : ﴿ ومن يرتدّ منكم عن دينه ﴾[3] قرأها ابن عامر ونافع :﴿ومن يرتدِد منكم عن دينه ﴾ ، وهي القراءة الموجودة في المصحف الحالي ، وكقراءته : ﴿ يحببْكم الله ﴾[4] . مع أن الزركشي يقول : « أنها نزلت بلغة تميم يحبكم الله »[5].

وإذا تتبعنا كتب القراءات لنرى الملامح التي تميز قراءة ابن عامر نجد أن لها بعض المميزات ، منهـــا ما يتعلق بطبيعة القراءة ، ومنها ما يتعلق بالرسم والنحو ، فمن طبيعة القراءة البسملة بين السورتين : «ورأى ابن عامر السكت بين السورتين من غير قطع ، وقد اتفق في ذلك مع ورش وأبي عمرو ، بينما كان ابن كثير وقالون وعاصم والكسائي يبسملون بين السورتين في جميع القرآن ما خلا الأنفال وبراءة »[6] . وإن دل ذلك على شيء ، فإنما يدل على أن ابن عامر لم يكن يخالف القراء دائماً ، فكثيراً ما اتفق مع غيره منهم في مسائل معينة ، واختلف معهم في مسائل أخرى . وقد روى الداني في كتابه التيسير في القراءات السبع النواحي التي انفرد بها ابن عامر عن بقية القراء وهي تتجاوز الخمسين قليلاً في قراءات تتعلق بالرسم والنحو .

---

(١) طبقات القراء جـ ١ ص ٤٢٥ ،

(٢) تهذيب التهذيب جـ ٥ ص ٢٧٥ ،

(٣) سورة البقرة ٢١٧ . (٤) سورة آل عمران ٢١ .

(٥) الزركشي ، البرهان جـ ١ ص ٢٨٥ (مطبعة البابي الحلبي بمصر) ١٩٥٧م.

(٦) التيسير ص ١٧ – ١٨ .

« فالامالة مثلاً لم تكن عند ابن عامر بعكس غيره كحمزة والكسائي حيث كانا يميلان كل ما كان من الأسماء والأفعال من ذوات الياء كموسى وعيسى ويحيى، أبى، فسوّى »[1] . وقال الفارسي في الحجة عن الامالة في الياء والألف مبيناً أنها لم تكن في قراءته : « وكان ابن كثير وابن عامر وعاصم يفتحون ذلك كله »[2] .

وتخفيف نون لكن هو من مميزات قراءته فقد قرأ : «ولكنِ الشياطينُ»[3]. وقد قرأ : «ولكنِ اللهُ رمى » . « ولكنِ اللهُ قتلهم »[4].وقد اتفق في ذلك مع حمزة والكسائي، واتفق مع نافع في قراءة:«ولكنِ البرُّ »[5]. وقرأ الباقون بفتح النون وتشديدها ونصب الراء ، أي :« ولكنّ البرّ من آمن بالله »[6] . ولم يكن ابن عامر يخفف نون لكن فقط ولكنه أحياناً كان يخفف نون أن كقراءته: « إنْ هذا »[7]. وقد شددها الباقون »[8]. وكان ابن عامر يكثر من اختيار ضمير المخاطب التاء بدلاً من ضمير الغائب الياء ، فمن ذلك قراءته : « ولو ترى الذين»[9]. قرأها مع نافع ترى والباقون بالياء ، وكذا : « عما تعملون »[10]. بالتاء والباقون بالياء »[11] كما قرأ ابن عامر «تبغون »[12] . بالتاء والباقون بالياء ، وكذا : « ولا تؤمنون »[13] والباقون بالياء : « يؤمنون »[14]. ومع أن ابن عامر كان يميل إلى تخفيف نون لكنّ وأنّ إلا أنه كان يميل إلى تضعيف

---

(١) التيسير ص ٤٦ .

(٢) الفارسي ، الحجة في علل القراءات السبع جـ ١ ص ٣٠٦ ، بلا طبعة ، ١٩٦٥ م ، وسيشار إليه بـ الحجة .

(٣) البقرة ١٠٢ . (٤) الأنفال ١٧ .

(٥) البقرة ١٨٩و١٧٧ . (٦) التيسير ص ٧٩ .

(٧) الأنعام ١٥٣ ، (٨) التيسير ص ١٠٨ ،

(٩) البقرة ١٦٥ . (١٠) البقرة ١٤٤ .

(١١) التيسير ص ٧٧ — ٧٨ ، (١٢) المائدة ٥٠ .

(١٣) الأنعام ١٢٩ .

(١٤) التيسير ص ٩٩ص ١٠٦ .

بعض الأفعال كقراءته : « وقتّلوا » [1] و«والذين قتّلوا» [2] . كما قرأ بما كنتم تعلّمون الكتاب ، «وبما كنتم تدرّسون»[3]. قال مكي معلقاً : التشديد أبلغ ، لأن كل معلم عالم بمعنى يعلم ، وليس كل من يعلم شيئاً معلماً ، فالتشديد يدل على العلم والتعليم ، والتخفيف إنما يدل على العلم فقط»[4] . وله غيرها في التضعيف .

واتفق ابن عامر مع الكوفيين في «ننشزها» بالزاي والباقون بالراء [5] . وقدخالف ابن عامر القراء أحياناً في الأعراب فمن ذلك قراءته : « فيغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء »(البقرة ٢٨٤) برفعهما واتفق في ذلك مع عاصم ، أما الباقون فجزموهما »[6]. والآية هي : «وإن تُبدوا ما في أنفُسِكم أو تُخفوه يحاسبكم به اللهُ فيغفرُ لمن يشاءُ ويعذّبُ من يشاءُ واللهُ على كل شيءٍ قدير ». فهو هنا لم يعطف الفعلين على جواب الشرط ، وقرأ ابن عامر قوله تعالى: « مافعلوه إلا قليلاً منهم» (النساء ٦٦) بينما رفعها الباقون [7] . والوجهان أجازهما النحويون إذ يجوز في الاستثناء التام المنفي أن يعامل المستثنى على أنه بدل من فعلوه أو الاستثناء بالنصب . وفي قطر الندى عن هذه الآية عند كلامه على المستثنى المنفي المتصل ومثاله : « ما فعلوه إلا قليل منهم» . قال : « قرأ السبعة غير ابن عامر بالرفع على الإبدال من الواو في (ما فعلوه) . وقرأ ابن عامر وحده بالنصب على الاستثناء »[8]. ومما خالف به ابن عامر أيضاً القراء في نواح إعرابية رفعه لكل في قوله تعالى:«وكُلاً وعدَ اللهُ الحُسْنى » (الحديد١٠).فقرأ ابن عامر برفع لام وكل وكذا هو في المصاحف الشامية وقرأ الباقون بالنصب[9] . وقد وافق

---

(١) النساء ١٩٥ .(٢) الانعام ١٤٠. (٣) آل عمران ٧٩ .

(٤) تفسير القرطبي جـ ٤ ص ١٢٣ .

(٥) التيسير ص ٨٢ .

(٦) نفسه ص ٨٥ .

(٧) نفسه ص ٩٦ .

(٨) ابن هشام،شرح قطر الندى ص ٢٤٥، ط العاشرة (مطبعة السعادة بمصر) ١٩٥٩م .

(٩) التيسير ص ٢٠٨ .

ابن عامر القراء في النصب في الآية : « لايؤمنون إلا قليلاً » (النساء ٤٦) ، كما وافقهم بنصب : «وكلا » في(النساء ٩٥) . ويعلل الزركشي السبب فيقول . « الفرق أن الذي في سورة الحديد شغل الخبر بهاء مضمرة ، وليس قبل هـــذه الجملة جملة فعلية ، فيختار لأجلها النصب ، فرفع بالابتداء ، وأما التي في سورة النساء فإنما اختير فيها النصب ، لأن قبله جملة فعلية وهي قوله : « وفضل الله المجاهدين»[1] . وهذا يدلنا أن ابن عامر كان يهتم بالنحو في قراءته إذ أنه في آية واحدة يغير من قراءته بتغيير اعرابه وذلك لرأيه أن الاعراب يتغير بتغير المعنى. ونذكر في الاعراب أيضاً المبني للمجهول أو المعلوم فقد خالف ابن عامر القراء في قوله تعالى : « من بعد ما فَتَنوا » (النحل٣٥) ، فجعلها غير مبنية للمجهول بينما قرأها الباقون مبنية للمجهول :«فُتِنوا » بضم الفاء وكسر التاء[2] . وهذا الأمر مرتبط بالمعنى من جهة وبالرسم من جهة ثانية ، إذ أن الرسم كان من عوامل اختلاف القراءات فهذا ابن عامر يقرأ : « ينشرُكم في البرّ والبحر» (يونس٢٢) بالنون والشين من النشر بينما الباقون بالسين والياء من التسيير »[3] قال تعالى : « هو الذي يُسيِّركم في البرّ والبحر » .

أما الزيادة والنقصان فموجودة بالمصحف الشامي في بعض الآيات بزيادة بعض الحروف أو نقصانها كقراءة ابن عامر : «قالوا اتخذ الله ولداً » (البقرة ١٦٦) ، بغير واو ، و « بالزبر وبالكتاب المنير » (آل عمران ١٨٤) ، بزيادة الباء في الاسمين فإن ذلك ثابت في المصحف الشامي »[4] . وقد أنقص ابن عامر واواً في في قراءته : «قالوا اتخذ الله ولداً» (البقرة١١٦)) بدل : «وقالوا» : وقد علل الزركشي ذلك بقوله: « لأن هذه الآية ملابسها لما قبلها من قوله تعالى : « ومن أظلم ممن منع مساجد الله » (البقرة ١٤٤) ، لأن القائلين : « اتخذ الله ولداً » من

---

(١) البرهان جـ ١ ص ٣٠٩ .
(٢) التيسير ص ١٣٨ . (٣) نفسه ص١٣١ ،
(٤) النشر جـ ١ ص ١١ .

جملة المتقدم ذكرهم ، فيستغني عن ذكر الواو لالتباس الجملة بما قبلها ، كما استغنى عنها في نحو قوله تعالى: «والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . ولو كان « وهم » كان حسناً ، إلا أن التباس إحدى الجملتين بالأخرى وارتباطها بها أغنى عن الواو »(١).

هذه هي أهم مميزات قراءة ابن عامر ، وهي تسمى المصحف الشامي . ومن العلماء من يطعن على ابن عامر في قراءته كابن جرير الطبري - ولم يذكر سبب الطعن - وقد عدّ ابن الجزري ذلك من سقطات الطبري فقال: « وطعن الطبري لم يقبله العلماء لاعتبار أن إجماع أهل الشام على قراءته لدليل على صحة هذه القراءة ، وإن الناس في الشام بقوا على قراءة ابن عامر تلاوة وصلاة وتلقيناً إلى قريب الخمسمائة » .(٢)

وقد عاصر عطية بن قيس ابن عامر وتوفي بعده بثلاث سنوات ، أي سنة ١٢١ هـ وولد سنة ٧ هـ ، أي قبل مولد ابن عامر بسنة ، وقد «أخذ القراءة عرضاً عن أم الدرداء عن قراءتها عن أبي الدرداء»(٣) ، وقد روى عنه القراءة عرضاً علي ابن أبي حملة وسعيد بن عبد العزيز والحسن بن عمران . وقد عدّ ابن الجزري عبد الله بن عامر وعطية بن قيس واسماعيل بن عبد الله بن المهاجر من طبقة واحدة ووصفهم بأنهم : « تجردوا للقراءة واعتنوا بضبطها أتمّ عناية حتى صاروا في ذلك أئمة يقتدى بهم »(٤). وعدّ عطية بن قيس قارىء دمشق بعد ابن عامر ، ولأنه لم يعمر طويلاً بعد ابن عامر لذا كانت شهرته قليلة ، حتى أن علماء القراءات يعدون يحيى بن الحارث الذماري وهو تلميذ ابن عامر : «شيخ القراءة بدمشق بعد ابن عامر »(٥). وقد عاش يحيى حتى سنة ١٤٥ هـ. وهـذا الذي جعل

---

(١) البرهان جـ ٣ ص ١٦١ ،
(٢) طبقات القراء جـ ١ ص ٤٢٤ .
(٣) تاريخ الاسلام جـ ٥ ص ١١٠ .
(٤) النشر جـ ١ ص ٩ ،
(٥) طبقات القراء جـ ٢ ص ٣٦٧ - ٣٦٨

شهرته أكثر من عطية ،أو ربما أن تفرغ عطية للجند جعله ينشغل عن تعليم الناس، إلا أن ابن الجزري يقول عنه : « كان الناس يصلحون مصاحفهم على قراءته وهم جلوس على درج مسجد دمشق قبل أن يبنيه الوليد»[1] وقد كان يحيى أيضاً كإبن عامر أستاذه متخصصاً بالقراءة .« وكان قليل الحديث »[2] ولم يكن متفقاً تماماً في قراءته مع قراءة ابن عامر فيورد ابن الجزري : « أن ليحيى اختياراً في القراءة خالف فيه ابن عامر »[3]

وكما خالف أستاذه نرى تلميذه أيوب بن تميم يخالفه في قراءته أيضاً ،وقد كان أيوب قارئاً للجند كذلك ، يورد عنه ابن الجزري قوله في مخالفة ابن الحارث في قوله تعالى (جِبِلاً ، يس ٦٢) : فإنه رفع الجيم وأنا أكسرها »[4].وتوفي أيوب سنة ١٩٨ هـ. كما قرأ على يحيى بن الحارث جلة من علماء الشام منهم الوليد بن مسلم عرضاً ، كما أخذ الوليد عن نافع بن أبي نعيم ، قال ابن الجزري :« يقال أن الوليد ابن مسلم روى عن نافع بن أبي نعيم حرفاً واحداً هو (وأرجلكم) بالرفع»[5]. وقرأ على يحيى سويد بن عبد العزيز قاضي بعلبك المتوفي سنة ١٩٤ هـ. وهشام بن الغاز بن ربيعة المتوفى سنة ١٥٦هـ،وصدقة بن خالد الدمشقي المتوفى سنة ١٨٠ هـ. وهو مولى كما قال ابن حجر،وروى عن أبيه وزيد بن واقد والأوزاعي وعبد الرحمن ابن يزيد بن جابر وعتبة بن أبي حكيم وعثمان بن أبي العاتكة وهشام بن الغاز وجماعة. وروى عنه يحيى بن حمزة الحضرمي والوليد بن مسلم وهو من أقرانه وأبو مسهر الذي قرأ عليه القرآن. وقيل أن سويد بن عبد العزيز مولى كما قال ابن حجر في التهذيب ، وقد ضعّفه جماعة من الفقهاء منهم احمد بن حنبل »[6]

---

(١) طبقات القراء جـ ١ ص ٥١٣ – ٥١٤ .

(٢) تهذيب التهذيب جـ ١١ ص ١٦٤ .

(٣) طبقات القراء جـ ٢ ص ٣٦٨ .

(٤) نفسه جـ ١ ص ١٧٢ .

(٥) نفسه جـ ٢ ص ٣٦٠ .

(٦) تهذيب التهذيب جـ ٤ ص ٢٧٦ .

عمر بن عبد العزيز والقراءة :

وقد كان للخليفة عمر بن عبد العزيز آراء في القراءات منها : «أن القراءة سنّة يأخذها الآخر عن الأول فقرؤوا كما علمتموه »[١] . ومن قراءته : « إنما يَخشى اللهُ من عِباده العلماءَ »[٢] . برفع اسم الجلالة ونصب العلماء وتأويله كما يقول الزركشي:« أن الخشية هنا بمعنى الإجلال والتعظيم »[٣] . وهنـــا نلمح التداخل بين القراءة والتفسير ، إذ أن اختلاف القراءة سيؤدي حتماً إلى اختلاف تفسيرها ومن ثم اختلاف الأحكام التي تستنبط منها .

ولعمر رأيٌ في الوقف والوصل في آية : «وما يعلمُ تأويله إلا اللهُ والراسخونَ في العلم » ، فقد اختلف العلماء في الوقف أي : « أن الكلام تم عند قوله تعالى : (إلا الله)» [٤]. وكان يتدخل في توجيه القراء بما يراه من آراء باعتباره خليفة ، من ذلك أنه «أمر محمد بن مسلم أن يأمر القراء أن يسجدوا في : « إذا السماءُ انشَقّت »[٥]. ولم يكن عمر إلا متبعاً، إنما الإتباع يكون في الاختيار ، فبعض القراء لم يسجدوا في هذه الآية بدليل أمرهم بذلك ، وبعضهم كان يسجد .

الزهري وأثره في القراءة :

أما الزهري ، وهو محمد بن مسلم فإنه ساهم في الحركة الدينية الشامية عموماً ومنها القراءة، وكان يرى أن التقديم والتأخير في القرآن جائز ، قال أبوإدريس: « سألت الزهري عن التقديم والتأخير في الحديث فقال : هذا يجوز في القرآن فكيف به في الحديث »[٦] . وكان يروي قراءته عن أنس بن مالك عن النبي :

---

(١) النشر جـ ١ ص ١٧ .
(٢) تفسير القرطبي جـ ١٤ ص ٣٤٤ .
(٣) البرهان جـ ١ ص ٣٤١ .
(٤) تفسير القرطبي جـ ٤ ص١٦ .
(٥) الشافعي ، الأم جـ ٧ ص٢٠٣،(شركة الطباعة الفنية المتحدة – القاهرة)ط الاولى١٩٦١م.
(٦) تاريخ الاسلام جـ ٥ ص ١٤٦.

فقد روى عنه : «أن النبي ﷺ وأبي بكر وعثمان كانوا يقرءون (مالك يوم الدين) »[١] . وقد روى هذا الحديث عنه الداني ،كما ذكره ابن الجزري الذي زاد عليه : « إن أول من أحدث ملك مروان بن الحكم »[٢].

ومن قراءة الزهري قراءته لآية:«وما يُعمَّر من معمّرٍ ولا يُنقَصُ من عُمرِه إلا في كتاب » (سورة فاطر١١) قرأها الزهري: «من عمْره بدلاً من عمُره »[٣]. وقرأ كذلك الآية : « ألا لنعلم من يتبع الرسول »(البقرة ١٤٣)، الا ليعلم »[٤]. وهي قراءة أوحاها الرسم كما نرى .

ومن الواضح أن الزهري قد عاش في الشام وفي بلاط الأمويين معلماً لصبيانهم وتوفي سنة ١٢٤ هـ ، ومع ذلك فإننا لا نرى أي اتصال بينه وبين ابن عامر المقرىء أو عطية بن قيس قارىء الجند أو يحيى بن الحارث الذماري تلميذ ابن عامر ، ربما لأنه كان راوية للعلم عامة ولم يعتبروه متخصصاً في القراءة،ومع ذلك فإننا نرى ابن الجزري يذكر : «أن عثمان بن عبد الرحمن الوقاصي قد روى عنه الحروف وان نافع بن أبي نعيم قد عرض عليه » [٥] ، ونافع هو قارىء المدينة كما نعلم .

وأخيراً أشير إلى أن الخطاطين في زمن بني أمية قد أسهموا في تجويد المصاحف وتحسين كتابتها ، وقد اشتهر عدد منهم مثل خالد بن أبي الهياج ، وكان للخلفاء الأمويين فضل في ذلك. يذكر ابن النديم:«أن الخليفة الوليد(٨٦–٩٦هـ) اختار لكتابة المصاحف خالد بن أبي الهيّاج الذي كان مشهوراً بجمال خطه،وهو الذي خط المحراب في المسجد النبوي بالمدينة . ويقال أن عمر بن عبدالعزيز قال:

---

(١) سنن الترمذي جـ ١١ ص ٥١ .
(٢) طبقات القراء جـ ٩ ص ٢٦٣ .
(٣) تفسير القرطبي جـ ١٤ ص ٣٣٤ .
(٤) نفسه جـ ٢ ص ١٥٧ .
(٥) طبقات القراء جـ ٢ ص ٢٦٢ – ٢٦٣ ،

«أريد أن تكتب لي مصحفاً على هذا المثال فكتب له مصحفاً تَنَوّق فيه فأقبل عمر يقلبه ويستحسنه واستكثر ثمنه فرده عليه»[1] . وروى معاوية بن أبي سفيان أن النبي قال له عند كتابته للوحي: « ألق الدواة ، وحرّف القلم وانصب الباء ، وفرّق السين ، ولا تعوّر الميم ، وحسّن الله ، ومدّ الرحمن وجوّد الرحيم ،وضع قلمك على أذنك اليسرى فإنه أذكر لك»[2]. واعتقد أن هذا القول هو من كلام معاوية لأن الرسول كان أمّيّاً وكلامه (فرق السين وانصب الباء) يخالف ذلك .

المؤلفات :

وقد ألّف في الشام عدد من الكتب تتعلق بالقراءات منها الكتب المؤلفة في عدد آي القرآن ذكر ابن النديم منها : « كتاب يحيى بن الحارث الذماري ، وكتاب خالد بن معدان »[3]. وقد حدّث سويد بن عبد العزيز قال : « سألت يحيى بن الحارث عن عدد آي القرآن فأشار إليّ بيده ستة آلاف ومائتان ، وستة وعشرون بيده اليسار »[4].

ولابن عامر كتابان في القراءات ذكرهما ابن النديم : الأول هو « كتاب اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق » ، والثاني هو « في مقطوع القرآن وموصوله »[5] . والمعروف أن هذين الكتابين لم يصلا إلينا ،وانني أعتقد أن هناك كتباً كثيرة في القرآن أُلّفت في هذه الفترة في الشام ولم تصلنا ! فإذا عرفنا أن الوليد بن مسلم كان له سبعون مؤلفاً ، لجزمنا أن واحداً منها على الأقل لا بد أن يكون في القراءات .

---

(١) ابن النديم ، الفهرست ص ٩ (الطبعة الرحمانية بمصر) ١٣٤٨ هـ .

(٢) الزرقاني ، مناهل العرفان جـ ١ ص ٣٧٠ . ط الثالثة (عيسى البابي الحلبي بمصر) ١٣٧٢ هـ .

(٣) الفهرست ص ٥٦ .

(٤) طبقات القراء جـ ٢ ص ٣٦٨ .

(٥) الفهرست ص ٥٤ – ٥٥.

٢ – التفسير :

التفسير زمن النبي والصحابة :

اقترن التفسير في عصر النبي ﷺ بالوحي ، فقد كان جبريل ينزل بالآيات على النبي ومعها تفسيرها ، وهذا يدلنا على أن الرسول لم يكن يفسر القرآن برأيه ، فقد روى الأوزاعي عن حسان بن عطية قال : « كان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ ويحضره جبريل بالسُّنة التي تفسر ذلك »[١]. وقد نهى الرسول عن التفسير بالهوى او بغير علم حيث قال : « من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار »[٢] . وروت عائشة أن الرسول لم يفسر إلا القليل من القرآن فقالت : « ما كان النبي ﷺ يفسر شيئاً من القرآن ، إلا آيات تُعدّ علمهن إياه جبريل »[٣] . ويتبيَّن لنا من ذلك أن الرسول لم يكن يفسر القرآن برأيه بل أخذه عن الوحي ، كما أن ما فسره للصحابة لم يكن كل ما أخذه بل آيات قليلة، لسبب أن الصحابة كانوا على علم بمعاني أكثر الآيات ومناسباتها فلم يشعروا بالحاجة لسؤال الرسول عن كل آية . إلا أنه بعد وفاة النبي كان بعض الصحابة ومنهم الخلفاء الراشدون يقفون عاجزين عن تفسير بعض الآيات ، « فأبو بكر وعمر

---

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٩ .

(٢) الترمذي ، سنن الترمذي ج ١١ ص ٦٧ .(مطبعة الصاوي،القاهرة)١٩٣٤م .

(٣) تفسير الطبري، ج١ص ٣٧

يعجزان مثلاً عن تفسير كلمة (أبّا) في قوله تعالى : « وفاكهة وابّا »[1] . هذا من الناحية اللغوية ، وهناك نواح أخرى لم يكن الرسول او الخلفاء الراشدون يخوضون فيها كالأمور التي تأويلها عند الله كقيام الساعة ، والمتشابه من القرآن[2].

وأما الأمور التي تناولها التفسير في البداية فهي ما كان يحتاجه المسلمون في شؤونهم الدنيوية ، ولما كان القرآن هو المصدر الأول للأحكام كان لا بدّ من فهم آياته ليكون فهمها معيناً على ذلك ، وهذا الفهم هو الخطوة الأولى في التفسير ، أما السنة فقد استخدمت في توضيح تلك الأحكام ، وهذا يعني أن الحديث كان تابعاً للتفسير أو أداة من أدواته وليس العكس كما يقول « كرادي فو » من أن التفسير كان فرعاً هاماً من علم الحديث »[3]. وإن إفراد الترمذي باباً للتفسير في في صحيحه ، وكذلك البخاري في صحيحه لا يؤيد وجهة نظره في ذلك . فإذا التفت الدارس إلى ديار الشام في عصر الصحابة ، وجد فيها أبا الدرداء الذي كان يفسر الآية بأكثر من تفسير واحد أحياناً وخصوصاً الآيات التي تحتمل التأويل ، فقد روي عنه في تفسير آية : «كان تحته كنز لهما » (الكهف ٨٢) قال : «صحف علم خبأها لهما أبوهما »[4] . وقد رواه مرفوعاً إلى النبي ،بينما روى عنه ابن كثير في تفسير نفس الآية أنه قال : «كان ذهباً وفضة »[5]. وهذا يدلنا على أن التفسير بالرأي كان موجوداً بالشام منذ عصر الصحابة وخصوصاً في الآيات التي تحتمل التأويل ، غير أن ابا الدرداء كان يقدم تفسيراً واحداً للنص إذا كان قد سمعه من الرسول ﷺ ، إذ انه يحكم رأيه في الآيات التي لم يسمع بها ما سمعه فلا مجال هناك للرأي ، فعن رجل من أهل مصر قال: : سألت أبا الدرداء عن هذه الآية :

---

(١) السيوطي : الاتقان في علوم القرآن جـ١ ص ١٤١ ،جمعه أبو الوفا الهوريني (المطبعة الكستلية بمصر) ١٢٧٩ هـ. وسيشار إليه بـ الاتقان ،

(٢) نفسه جـ ٢ ص ٤ .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية مادة تفسير .

(٤) تقييد العلم ص ١١٧ .

(٥) ابن كثير . تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣١٩ (مطبعة المنار بمصر) ١٣٤٤هـ،

(لهم البشرى في الحياة الدنيا) فقال ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ عنها فهي (الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له) [١] ، وفي رواية له عن الرسول قوله : « إن رسول الله ﷺ سئل عن الراسخين في العلم فقال : من برّت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه وعف بطنه وفرجه فذلك من الراسخين في العلم ». [٢] وكان أبو الدرداء يرى أنه ليس هناك من آية يعجز عن تفسيرها، ولو وجدت فإنه سيرحل إلى مفسر لها مهما بعد المكان فقال : « لو أعيتني آية من كتاب الله فلم أجد أحداً يفتحها عليّ إلا رجل ببرك الغماد لرحلت إليه » [٣].

لم يكن هدف الصحابة بالشام من التفسير الشرح اللغوي وحده بل جمعوا إلى ذلك بيان الأحكام الواردة في الآيات، ومن هؤلاء معاذ بن جبل وكان بفلسطين؛ فقد سئل عن قوله تعالى (إلا أن تتقوا منهم تُقاة) قال : كانت التقية في جدة الاسلام قبل قوة المسلمين، أما اليوم فقد أعز الله الاسلام أن يتقوا من عدوهم» [٤]، وفي قوله تعالى (كما كُتب على الذين من قبلكم) قال : التشبيه واقع على الصوم لا على الصفة ولا على العدة وإن اختلف الصيامان بالزيادة والنقصان » . [٥].

ونجد بعض الصحابة الآخرين في الشام لا يذكرون أي قول إلا رواية عن الرسول وهم متشددون في النقل عنه ومن هؤلاء أبو إمامة الباهلي واسمه صديّ ابن عجلان، وقد قال في قوله تعالى : « وأما الذين في قلوبهم زيغٌ فيتّبعون ما تشابه منه) قال هم الخوارج » . [٦]

تأثر التفسير بأهل الكتاب :

كما نجد تأثراً إلى حد ما برواية أهل الكتاب من الذين أسلموا ككعب الأحبار

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣١٩ .
(٢) الاتقان جـ ٢ ص ٢٢٨ .
(٣) معجم البلدان مادة برك الغماد .
(٤) تفسير القرطبي جـ ٤ ص ٥٧ .
(٥) نفسه جـ ٢ ص ٢٧٥ .
(٦) الاتقان جـ ٢ ص ٢٢٨

وأصله يهودي ومن الذين تأثروا به عبد الرحمن بن غنم الأشعري ، إذ يروى عنه وعن كعب في تفسير قوله تعالى (والتين والزيتون)قالا « : التين مسجد دمشق، والزيتون :بيت المقدس »[1].وهذا يدعونا إلى الكلام عن الإسرائيليات وتمثلت بالشام بإثنين هما كعب الأحبار وتميم الداري الذي سكن فلسطين .أما المستند الذي يروي عنه كعب فهو التوراة وكتب أخرى كانت لديه . وهي لا تخلو من الخرافة والاوهام حتى أن المؤرخ ابن خلدون عدّتفسيراته بأنهـا أوهام وضرب مثلاً بذلك حين سأله معاوية عن تفسير آية (إرم ذات العماد) فقد فسرها كعب بشيء لا يخلو من الطرافة والغرابة في آن معاً ، قال ابن خلدون : «ينقلون عن عبد الله بن قلابة من الصحابه أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها — أي ارم وما فيها من الجواهر — وحمل منها ما قدر عليه ، وبلـغ خبره إلى معاوية فأحضره وقص عليه فبحث عن كعب الأحبار وسأله عن ذلك فقال : هي ارم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال يخرج في طلب إبل له ، ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال : هذا والله ذلك الرجل »[2]. وقد امتلأت كتب التفاسير بأمثال هـذه الروايات وخصوصاً في الامور التي تتعلق ببـدء الخليقة والكون ونهايته وفضل المدن والأنهار والجبال ، وهي امور لم يتحدث عنها القرآن وللعامة شغف بمعرفـة أسرارها ومن ذلك قول كعب : « اربعة جبال : جبل الخليل ولبنان والطور والجودي ، يكون كل واحد منهم يوم القيامة لؤلؤة بيضاء تضيء ما بين السماء والأرض»[3]. وقد اهتم المسلمون بمعرفة تلك المعلومات التي لا تؤثر في مجـال

---

(١) النويري ، نهاية الارب في فنون الادب جـ ١ ص ٣٢٦ (المؤسسة المصريـة للتأليف ١٩٦٣ م . وسيشار اليه بـ نهاية الارب .

(٢) ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ١ ص ٢٠ - ٢١ ، المجلد الأول ، القسم الأول . (منشورات دار الكتـاب اللبناني — دار الطباعة العربيـة بيروت) ١٩٥٦ م وسيشار اليه بـ تاريخ ابن خلدون .

(٣) تاريخ دمشق جـ ٢ ص ١٢٢ .

العقيدة الإسلامية ، وهناك حوادث رويت في القرآن بصورة عامة بجملة كقصة أصحاب الكهف ، فأخذ المسلمون يسألون أهل الكتاب عن بعض تفصيلات القصة : كأسمائهم ولون كلبهم إلى غير ذلك من الاسئلة كعصا موسى من أي الشجر كانت. لكن ماذا كان موقف الصحابة من هذه الإسرائيليات؟ لقد روي حديثان من رسول الله أحدهما يدعو إلىعدم تصديق أهل الكتاب أو تكذيبهم والآخر يبيح التحدث عنهم . فقد روى السيوطي في الاتقان قوله ﷺ : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم »[1] ، وروى ابن كثير قوله ﷺ « بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .[2] ولعل الحديث الثاني منسوخ والأول ناسخ وذلك أن العلاقات بين المسلمين وأهل الكتاب في بدء الدعوة لم تكن سيئة للغاية ، لذا فعدم تصديق أهل الكتاب أو تكذيبهم هو الأصح والأرجح ، والمشكلة هنا أن كعب الأحبار يعتبر مسلماً فهو ليس من أهل الكتاب، لذا لا ينطبق عليه الحديث الشريف ،ولكنه يروي من نفس المصادر التي يروي منها أحبار اليهود ، لذا نرى الصحابة قد انقسموا في الحكم عليه : فبعضهم ضربه وأغلظ له في القول كأبي ذر الغفاري وبعضهم كان متحفظاً في الأخذ عنه ، يأخذ ما لا يخالف الكتاب والسنة ويدع ما سوى ذلك كابن عباس وابن مسعود وأبي هريرة . أما الخليفة عمر بن الخطاب فكان يستمع إليه إلا انه كان يعلوه بالدرة كلما وجد في كلامه انحرافاً ، ولكنه احياناً كان يصدق أقواله إذا كانت لا تتعارض مع نص أو مبدأ إسلامي فقد روى ابن عباس قال : « كنا مع عمر بن الخطاب في سفرة بين المدينة والشام ومعنا كعب الأحبار ، فأصابنا ريح ورعد ومطر شديد وبرد وفرق الناس ، فقال لي كعب : انه من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته

---

(١) الاتقان جـ ٢ ص ٢١٠ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٨ .

عوفي مما يكون في ذلك السحاب والبرد والصواعق ، فقلتها أنا وكعب ، فلما أصبحنا واجتمع الناس قلت لعمر : يا أمير المؤمنين ، كأنا كنا في غير ما كان فيه الناس : قال وما ذاك ؟ فحدثته حديث كعب ، فقال : سبحان الله : أفلا قلتم لنا فنقول كما قلتم » . [1] وتفسيراته لا تخلو أحياناً من الكيد للإسلام مما يدل على أنه اتخذ من الإسلام ستاراً لنشر خرافاته وأوهامه ، إلا أن علماء الأمة المسلمين مثل ابن عباس :كانوا له بالمرصاد : فقد ذكر الظلم مرة في مجلس ابن عباس فقال كعب : « اني لا أجد في كتاب الله المنزّل أن الظلم يخرب الديار ، فقال ابن عباس : انا اوجده في القرآن قال الله عزّ وجلّ (فتلك بيوتُهم خاويةً بما ظَلموا) » . [2] ويروي الطبري :« أكثر ما انتاب ابن عباس من الغضب على كعب ، حين زعم انه يجاء بالشمس والقمر يوم القيامة كأنها ثوران فيقذفان في جهنم » فقال ابن عباس حين بلغه ذلك : « كذب كعب — ثلاث مرات — بل هذه يهودية يريد ادخالها في الإسلام ، الله أجلّ وأكرم من أن يعذب على طاعته ، أما المصدر الذي أخذ عنه كعب هذا الخبر فهو « كتاب دارس قد تداولته الأيدي ولا يدري ما كان فيه من تبديل اليهود » [3] .

ولكعب تفسيرات مبثوثة في كتب التفسير كالطبري والقرطبي وابن كثير ، فمن تفسيراته : تفسيره لكلمة السحاب قال : السحاب غربال المطر لولا السحاب حين ينزل الماء من السماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض » . [4] ومن تفسيرات كعب تلك التي تتعلق بالكون وهي كلها خرافات وأوهام ، فقد قال في قوله تعالى : (والأرضُ بعد ذلك دَحَاها) ان إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرض كلها فألقى في قلبه فقال : هل تدري ما على ظهرك يا

---

(١) تفسير القرطبي جـ ١ ص ٢١٨.
(٢) عيون الأخبار جـ ١ ص ٧٦ .
(٣) تاريخ الطبري جـ ١ ص ٤٤ .
(٤) تفسير القرطبي جـ ٢ ص ٢٠١ .

لونيا من الامم والشجر والدواب والناس والجبال لو نفضتهم القيتهم عن ظهرك اجمع ، فهمّ لونيا بفعل ذلك ، فبعث الله دابة فدخلت في منخره ، فعج إلى الله منها فخرجت ، قال كعب : والذي نفسي بيده انه لينظر اليها بين يديه وتنظر اليه ان هم بشيء من ذلك عادت حيث كانت » . [1] وقد سمى ابن كثير في تفسيره أخبار كعب خرافات فقال في تفسير سورة النحل « خرافات كعب ووهب في صرح بابل » . [2] وعقد فصلاً «عن اسرائليات كعب الأحبار وغيره في أصحاب الكهف » [3] مبيناً أن الحق هو ما قصه الله في أصحاب الكهف وغير ذلك فإنه باطل . ومن أباطيل كعب ما يرويه عن المدن وفضلها وقد تأثر بذلك عدد من الصحابة . وربما شجع ذلك الأمويين ليبينوا فضل الشام على غيرها تعزيزاً لملكهم ويؤيد ذلك قول المدائني : « قدم وفد على معاوية بن أبي سفيان ومما قاله لهم: قدمتم الأرض المقدسة وقدمتم أرض المحشر والمنشر وقدمتم أرضاً بها قبور الأنبياء فقال صعصعة : أما قولك قدمتم الأرض المقدسة فإن الأرض لا تقدس أهلها لكن أهلها يقدسونها ، وأما قولك قدمتم أرض المحشر والمنشر فإن بعد الأرض لا ينفع كافراً ولا يضر مؤمناً ، وأما قولك : قدمتم ارضاً بها قبور الأنبياء فإن من مات بها من الفراعنة أكثر ممن مات فيها من الأنبياء [4] كذلك عارض بعض الصحابة كسلمان الفارسي هذه النظرة وقد نزل الشام وتوفي بها ، ويقال أن أبا الدرداء بعث اليه : « هلمّ إليّ بأرض الجهاد وأرض المقدسة. فاجابه سلمان : كتبت تدعوني إلى أرض الجهاد وارض المقدسة ولعمري ما الأرض تقدس المرء ولكن المرء يقدسه عمله . » [5] وقد تأثر علماء الشام من الذين شاهدوا الصحابة بهذه الأقوال كخالد بن معدان الذي فسر قوله تعالى : (ربوة ذات قرار ومعين) وقوله : (والتين والزيتون) وقوله : لم يخلق مثلها في البلاد) ، جميع هذه الآيات فسرها بأنها دمشق » [5]

(١) تفسير القرطبي جـ ١ ص ٢٥٧ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٥٠ .
(٣) نفسه جـ ٥ ص ٢٥٣ — ٢٦٧ .
(٤) الهمذاني، البلدان ، ص ١١٥ ، تحقيق ميخائيل جان دوفويه ، (مطبعة ليدن) ١٣٠٢هـ .
(٥) تاريخ دمشق جـ ١ ص ١٣٩ .
(٦) نفسه ج ١ ص ٢٠٥

ولعله قد أخذها عن كعب فقد قال سمعت كعباً يقول : « مقبور بيت المقدس لا يعذب »[1] ولكعب تفاسير أخرى كثيرة من أمثال ما تقدم .

مناسبات التنزيل :

ويمتاز الصحابة في تفسيرهم بأنهم عرفوا مناسبات التنزيل ، إذ أن بعض الآيات قد نزلت فيهم وبحوادث معينة حصلت معهم ، ومن الذين نزلوا بالشام منهم ونزل بهم القرآن كثيرون ،منهم تميم الداري أصله نصراني ثم أسلم وسكن فلسطين ، فقيل نزلت فيه الآية : (يا أيُّها الذين آمَنوا شهادةُ بينكم إذا حضر أحدَكم الموت .. » إلى آخر الآية) قال تميم : إنها نزلت فيه وفي عدي بن بداء وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام للتجارة فوضع عندهما مولى لبني هاشم أمانة قبل مماته »[2] وكذلك الآية « (يسألونك عن الأهِلة) نزلت في معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم فقد سألا رسول الله : ما بال الهلال يبدو ويطلع دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان؟ فنزلت (يَسألونَكَ عن الأَهِلة قُل هي مَواقيتُ للناس)في حل دينهم ولصومهم ولفطرهم ، وعدة نسائهم ، والشروط التي تنتهي الى اجل معلوم »[3] وقد سئل عبادة بن الصامت عن الانفال فيقوله تعالى : (يسألونك عن الأنفال) فقال : فينا اصحاب محمد أنزلت ، انتزعه الله منا حين اختلفنا وساءت اخلاقنا فجعله الله عز وجل إلى رسوله ﷺ يجعله حيث شاء »[4] .

التفسير زمن التابعين :

هذا ما كان من أمر التفسير في الشام علىعهد الصحابة،ثم اتى بعدهم التابعون

---

(١) نهاية الارب ج ١ ص ٣٣٣ .
(٢) تاريخ دمشق مخطوط ج ٣ ص ٢٧٠ – وصحيح الترمذي ج ١١ ص ١٨٢ .
(٣) تاريخ دمشق ج ١ ص ٢٢ .
(٤) الشافعي ، الأم ج ٧ ص ٣٣٤ .

وهم الذين رأوا الصحابة وسمعوا منهم ، وتفسير التابعي عادة يعتد به بعد تفسير الصحابي ، إذ ان التابعين بحكم صلتهم بالصحابة عدوا مرجعاً للتفسير : فإبن تيمية في مقدمته يبين طرق التفسير بأنها «تفسير القرآن بالقرآن وإلا فبالسنة فإذا لم نجد فنرجع إلى قول الصحابي وإلا فآراء التابعين » . (١)

ومن أشهر من اضطلعوا بتفسير بعض الآيات القرآنية محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ، فقد أمره عمر بن عبد العزيز أن يفصل له مواضع الصدقات في الأصناف الثمانية التي ذكرها الله تعالى وهي الآية : (إنما الصَّدقاتُ للفقراءِ والمساكين ... إلى آخر الآية) فأخذ يبيِّن كل صنف منها وأحواله ومما قاله : « فسهم الفقراء نصفه لمن غزا منهم في سبيل الله وأول غزو ، حين يفرض لهم من الإمداد وأول عطاء يأخذونه ، ثم تقطع عنهم بعد ذلك الصدقة ، ويكون سهمهم في عظم الفيء . والنصف الباقي للفقراء ممن لا يغزوه : من الزمنى والمكث الذين يأخذون العطاء إن شاء الله ... ثم يفصل الأنواع الثمانية » . (٢)

وفي القرنين الأول والثاني للهجرة قويت بعض الفرق الاسلامية وخاصة في العراق فأصبح التفسير بالرأي سائداً هنالك خصوصاً المعتزلة وحيث أخذ الشيعة والخوارج يفسرون القرآن بما يتفق ومعتقداتهم وتطرف بعض الناقمين من أمثال عبد الله بن سبأ مثلاً فقالوا بالرجعة وقد رد عليهم الزهري في تفسير قوله تعالى : (إن الذي فرضَ عليكَ القُرآن لرادُّك إلى مَعاد) قال معاده يوم القيامة ». (٣) كما ثارت مشكلة الصفات الالهية وتعطيلها لدى المعتزلة والقدرية ، فوقف منها علماء الشاميين من التابعين موقفاً حازماً مما جعل الشام بمنأى عن تفسير الآيات

---

(١) ابن تيمية ، مقدمة في اصول التفسير ص ٢٩ ، تحقيق جميل الشطي ، « مطبعة الترقي بدمشق » ط الاولى ١٩٣٦ م .

(٢) ابن سلام ، الاموال ص ٥٧٨ ، تحقيق محمد حامد الفقي — بلا طبعة ، ١٣٥٣ هـ .

(٣) ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ص ٣٢٩ ، شرح وتحقيق أحمد صقر ، ط الاولى « دار إحياء الكتب العربية). ١٩٥٤ م

المتعلقة بالصفات ، وكان أكثر الأئمة الشاميين تصلباً الأوزاعي المتوفى سنة ١٥٧هـ فقد سئل مرة عن تفسير قوله تعالى (الرحمَنُ على العرش استوى) فقال : الإستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وإني لأراك ضالاً » . [١] فهو هنا يتهم كل من يسأل عن آيات الصفات بأنه من أصحاب الضلال والبدع ، ثم يفسر الآية تفسيراً غامضاً لا يستشف منه المرء أي شيء .

وثمة مشكلة ظهرت في عصر التابعين وتابعيهم في الشام لم تكن موجودة في عصر الصحابة ألا وهي إسناد التفسير ، إذ لا يعرف عن التفسير هل هو من اجتهاد التابعي أو هو من قول الصحابي أم من قول النبي ﷺ وقد قال الإمام أحمد ابن حنبل : « ثلاثة أمور ليس لها إسناد : التفسير والملاحم والمغازي » . [٢]

ومن التابعين قبيصـة بن ذؤيب كاتب ديوان عبد الملك ، وقد قال في قوله تعالى : « (وعلى الوارث مثل ذلك) سورة البقرة ، قال الوارث هو المولود » [٣] ووافقه على ذلك الضحاك بن مزاحم وهو خراساني .

ويلاحظ في هذه الفترة اهتمام العلماء من الموالي بالتفسير ليس في الشام فحسب بل في سائر الأقطار الإسلامية ومن هؤلاء في الشام شهر بن حوشب ومكحول الدمشقي . وحتى « الأوزاعي قيل أنه من سبي السند في بعض الروايات » [٤] ، وتفسير بعض الموالي قريب من تفاسير أهل الكتاب ، فهـذا شهر بن حوشب يفسر قوله تعالى : (كان من الجن) قال : كان إبليس من الجن الذين طردتهم الملائكة ، فأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء » . [٥]

---

(١) البرهان جـ ٢ ص ٧٨ .
(٢) مقدمة في اصول التفسير ص ١٥ والاتقان جـ ٢ ص٢٠٦ .
(٣) تاريخ الطبري جـ ٢ / ٥٠٥
(٤) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٦٠
(٥) تاريخ الطبري ج ١ ص ٥٩ .

وأما مكحول الدمشقي وهو مولى توفي سنة ١١٣ هـ فقد نقل عنه الطبري تفسيره لقوله تعالى: « (للذين يُؤْلونَ من نسائهم.. إلى قوله: فإن اللهَ سميعٌ عَليم» سورة البقرة — قال: الذين يؤلون على الاعتزال من نسائهم تنظر أربعة أشهر بأمره وأمرها، فإن فاءوا بعد انقضاء الأشهر الأربعة إليهن، فرجعوا إلى عشرتهن بالمعروف وترك هجرانهن ... فإن الله غفور رحيم، وإن عزموا على الطلاق فأحدثوا لهن طلاقاً بعد الأشهر الأربعة، فإن الله سميع لطلاقهم إياهن، عليم بما فعلوا بهن من إحسان وإساءة » . (١) كما نقل عنه القرطبي تفسيره لقوله تعالى: « (ومن النـاس من يَشتري لهوَ الحديث) سورة لقمان، قال: مكحول: الغناء » (٢)، كما نقل عنه في قوله تعالى: « (واجعلنا للمُتقين إماماً) قال: أئمة في التقوى يقتدي بنا المتقون » . (٣)

ويذكر عن تفسير القرآن زمن بني أمية في الشام إن عبد الملك بن مروان أمر سعيد بن جبير الكوفي أن يكتب له تفسير القرآن « فكتب سعيد بن جبير إليه بتفسيره فحفظه عبد الملك عنده في الديوان » . (٤)

ونخلص إلى القول ان التفسير بالشام قد طبع بطابع معين منذ عصر الصحابة حتى نهاية القرن الثاني الهجري. ففي عصر الصحابة كانت الميزة الواضحة للتفسير بالشام هي عدم التشدد في تفسير القرآن كما كان يتشدد أهل المدينة مثلاً كسعيد بن المسيب وغيره: قال عمرو بن مرة: « كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام، وكان أعلم الناس، وإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن، سكت كأن لم يسمع » (٥) نقارن هذا القول بقول أبي الدرداء: « لا يفقه العبد

---

(١) تفسير الطبري جـ ٢ ص ٤٣٢ — ٤٣٣ .

(٢) تفسير القرطبي جـ ١٤ ص ٥٢ .

(٣) جامع بيان جـ ٢ ص ٨ .

(٤) الرازي، كتاب الجرح والتعديل جـ ٣ قسم ١ ص ٣٣٢، ط الاولى (مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية — حيدر أباد) ١٣٦٠ هـ

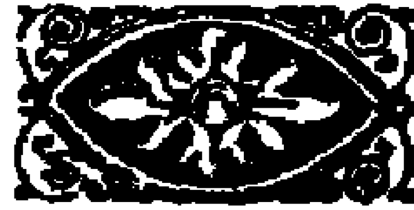
(٥) تفسير الطبري جـ ١ ص ٣٨ .

كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة » . [1]

والميزة الثانية للتفسير عند الصحابة بالشام هي عدم الخوض في مسائل الكلام أو التفسير القائم على الجدل إذ ان العمل كان أهم لديهم من الجدل ، وقد روى أبو إمامة حديثاً في ذم الخوارج ، مع أننا لا نجد من أقوال الصحابة في الشام ما يشير إلى الفرق الإسلامية إلا هذا الحديث .

وهناك ميزة ظهرت في عصري الصحابة والتابعين على حد سواء وهي التأثر بالإسرائيليات ، فقد روى عن كعب الأحبار عدد من الصحابة كما روى عنه عدد من التابعين ، لذا فقد كانت هذه ميزة مشتركة بينهما .

وبعد انتقال الخلافة إلى بغداد لم يظهر عالم بالتفسير ذو شأن من أتباع التابعين إذا استثنينا الأوزاعي ، وقد كان التفسير في هذه الفترة إجمالياً لا يتطرق إلى دقائق المعنى وتفصيلاته . كما نلمح أن العالِم منهم كان يوزع جهده على كافة مجالات العلم من تفسير وحديث وقراءة ولغة مما جعل العالم يوزع جهوده عليها ، فلم نرَ من يتخصص مثلاً لتفسير القرآن الكريم آية آية كما حدث بعد القرن الثالث الهجري في العالم الإسلامي .



(١) جامع بيان جـ ٢ ص ٤٥ .

٣ ـ الحديث : روايته وتدوينه

مقدمة في السنة والحديث :

لم تكن السنة مرادفة للحديث في القرنين الأولين للهجرة ، وانما كانت أعم في مدلولها عند الفقهاء بحيث شملت أقوال الرسول وأفعاله واقراره والتشريعات المستنبطة من كل ذلك : قال ابن عيينة « لا تسمعوا من بقية في سنة واسمعوا منه ما كان في ثواب وغيره ، يعني لجواز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال »[١] ، وعلى هذا كان الفقهاء يفرقون بين علماء السنة وعلماء الحديث حتى أن عبد الرحمن بن مهدي قال : « سفيان الثوري امام في الحديث وليس بإمام في السنة والاوزاعي امام في السنة وليس بإمام في الحديث ومالك ابن انس إمام فيهما جميعاً »[٢] . وقال في موضع آخر : « كان الاوزاعي والفزاري إمامين في السنة ، وإذا رأيت شامياً يحب الاوزاعي وأبا اسحق الفزاري فهو صاحب سنة »[٣] . وقد كان الأئمة يجعلون للسنة مكانة هامة بعد القرآن الكريم لأنها مفسرة له ، حتى جعلها بعضهم قاضية على القرآن ، قال يحيى بن أبي كثير : « السنة قاضية على الكتاب وليس الكتاب قاضياً على

(١) تهذيب ابن عساكر جـ ٣ ص ٢٧٦ .
(٢) تاريخ دمشق مخطوط جـ ١٠ ص ٤٢ — ٤٣ .
(٣) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٨٤ ،

السنة »[1] . وإيراد حديث ابن أبي كثير – وهو إمام اليمامة – هام الدلالة هنا لصلته القوية بالشاميين فقد تتلمذ على يديه إمام الشام الاوزاعي، كما روى هو عن تلميذه بعض الأحاديث ، وقد أثر قوله في بعض الشاميين كمكحول مثلا فانه قال : « القرآن أحوج الى السنة من السنة إلى القرآن »[2] .

احاديث الصحابة :

وقد اعتبرت أقوال الصحابة وأفعالهم من ضمن علم الحديث ، وفي دائرة المعارف الإسلامية : « إن علم الحديث هو ما ورد عن النبي وصحابته من قول أو فعل »[3] ومعظم الصحابة رووا عن رسول الله ولكن بصور متفاوتة من الكثرة أو القلة . وإنما اعتبر قول الصحابي ضمن الحديث النبوي لأنه قد يروي فعلا أو حادثة وقعت للنبي ﷺ ، فالفعل للرسول أما القول فللصحابي . وقد يكون كلام النبي موجهاً إلى أحد الصحابة بالذات كقوله ﷺ لأبي ذر « يا ابا ذر أن للمسجد تحية وإن تحيته ركعتان »[4] .

أما فعل الصحابي فإنما اهتم به التابعون لأنهم رأوا فيه تفسيراً لسنة شاهدها الصحابي من الرسول ،روى حميد بن مسلم قال : « رأيت واثلة بن الأسقع صلى على رجال ونساء في طاعون أصاب الناس بالشام فجعل الرجال مما يلي الإمام والنساء مما يلي القبلة »[5] . كما روى قبيصة بن ذؤيب وأبو عبد الله الصنابحي – وكلاهما شاميان – عن أبي بكر الصديق ، فقد روى الصنابحي : « أنه سمع أبا بكر الصديق يقرأ في صلاة المغرب في الركعة الثالثة :(ربّنا لا تُزغ قلوبنا

---

(١) جامع بيان جـ ٢ ص ١٩١ .
(٢) تفسير القرطبي جـ ١ ص ٣٩ .
(٣) دائرة المعارف الاسلامية مادة حديث .
(٤) تاريخ الطبري جـ ١ ص ١٠٢ .
(٥) تهذيب ابن عساكر جـ ٥ ص ٦.

بعد إذ هديتنا.. الآية.. فقال العلماء أن القنوت جائز في صلاة المغرب »[1] .

وقد كان الصحابة يحدثون بما سمعوه عن رسول الله إلا بعض الأحاديث سراً من الأسرار لا يجوز التحدث بها . قال أيوب بن بشير : « لما سير أبو ذر إلى الشام قلت له أني أريد أن اسألك عن حديث من حديث النبي ﷺ فقال : إذن أحدثك به إلا أن يكون سراً ، فقلت ليس بسر . أكان رسول الله ﷺ يصافحكم إذا لقيتموه فقال : ما لقيته قط إلا صافحني »[2] . وربما أطلقت كلمة سر على ما يتعلق بالامور الغيبة التي يدعو الحديث عنها إلى إثارة الجدل .

الصحابة ومدى التشدد في الرواية :

وقد كان بعض الصحابة يتشددون في الرواية عن الرسول حتى أنهم لا يروون حديثاً سمعوه مرة أو مرتين فقط بل أكثر من ذلك ومن هؤلاء أبو إمامة الباهلي — فقد حدّث حديثاً ثم سئل إن كان سمعه من الرسول فقال : لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً — حتى عد سبعاً — ما حدثتكموه »[3] . كما كان بعضهم الآخر يكثر من الحديث ، روى سعد بن ابراهيم عن أبيه : « أن عمر حبس ثلاثة : إبن مسعود وأبا الدرداء ، وابا مسعود الأنصاري ، فقال : قد أكثرتم الحديث عن رسول الله »[4] ، ومما يفسر هذا الخبر ما جاء عند إبن عساكر إذ قال : « أن عمر قال لعبد الله بن مسعود وأبي الدرداء وأبي ذر ما هذا الحديث عن رسول الله ﷺ وأحسبه حبسهم بالمدينة حتى أصيب »[5] ، ففي هذه الرواية يذكر أبو ذر بدل أبي مسعود ، ثم قوله « أحسبه حبسهم » دلالة على عدم

---

(١) تفسير القرطبي جـ ٤ ص ٢٠ .
(٢) تهذيب ابن عساكر جـ ٣ ص ٢٠١ .
(٣) صحيح الترمذي جـ ١١ ص ١٢٧ .
(٤) تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٧ .
(٥) تاريخ دمشق م جـ ١٣ ص ٣٧٦ .

تأكده ، فالحبس هنا هو منعهم أن يخرجوا من المدينة كما كان يفعل عمر ، إلا أن الأخبار تشير أن عمر قد أرسل أبا الدرداء إلى الشام كما بيّنّا.

الرواية بالحرف أو المعنى :

أما رواية الحديث من ناحية متنه فقد كان بعض الصحابة يتشدد في إيراد الحديث بحروفه وبعضهم كان يرويه بالمعنى ، ومن الذين رووه بالمعنى من الصحابة الشاميين أبو الدرداء إذ : « أنه كان إذا حدّث بالحديث عن رسول الله ﷺ قال : اللهم ان لا هكذا فكشكله »[1] . إلا أن بعض التابعين الشاميين « كانوا يتشددون في رواية الحديث بحرفه ومنهم رجاء بن حيوة »[2] . وكان الزهري ومكحول يقولان « أمرّوا الأحاديث كما جاءت »[3] . وكان الصحابي الشامي أبو إمامة الباهلي يطالب محدثيه أن ينقلوا ما سمعوه على أحسن وجه ويقول لهم « إن رسول الله قد بلّغ ما أُرسل به إلينا فبلّغوا عنا أحسن ما تسمعون »[4] .

الأحاديث المروية عن الصحابة الشاميين وعددها :

وقد أحصى بعض العلماء الأحاديث التي رواها بعض الصحابة عامة ، فكان من الصحابة الشاميين الذين ورد ذكرهم حسب عدد الأحاديث المروية عنهم « أبو ذر الغفاري : مائتان وواحد وثمانون – أبو إمامة الباهلي : مائتان وخمسون – عبادة ابن الصامت : مائة وسبعة وخمسون ، النعمان بن بشير : مائة

---

(١) نفس المصدر السابق والصفحة.
(٢) تاريخ الاسلام جـ ٤ ص ٢٤٩ .
(٣) تاريخ دمشق م جـ ١٧ ص ٨٨ .
(٤) ابن سعد ، الطبقات الكبرى جـ ٧ ص ٤١٢ (دار صادر – بيروت) ١٩٥٨ م وسيشار اليه بـ : طبقات ابن سعد .

واثنان وأربعون »[1] ، ويلاحظ هنا قلة عدد الأحاديث المروية عن الصحابة الشاميين بالمقارنة مع الصحابة الذين كانوا بمكة كإبن عباس أو بالكوفة كإبن مسعود أو بالمدينة كأبي هريرة ، وهذا يعود إلى أن الشاميين كانوا يهتمون بالقرآن وتعليمه في الدرجة الأولى أو انهم كانوا يُقلون الرواية عن الرسول تعمداً ثم أن قرب الشام من حدود الروم جعلهم في رباط دائم للجهاد مما شغلهم عن الاكثار من رواية الحديث .

وكانت الأحاديث التي رواها الصحابة الشاميون أكثرها مرفوع وبعضها موقوف ، إلا أن هناك حديثاً واحداً شاذاً روي عن معاذ بن جبل فقد روى « أن النبي ﷺ كان في غزوة تبوك إذا إرتحل قبل زيغ الشمس أخّر الظهر حتى يجمعها إلى العصر فيصليها جميعاً ، وإذا ارتحل بعد زيغ الشمس صلى الظهر والعصر جميعاً ثم سار وكان إذا ارتحل قبل المغرب أخّر المغرب حتى يصليها مع العشاء ، وإذا ارتحل بعد المغرب عجّل العشاء فصلاها مع المغرب »[2] .

التابعون ورواية الحديث :

ثم تلت طبقت التابعين، ومن محدثيهم في الشام ممن ذكرهم الحاكم النيسابوري « ابراهيم بن أبي عبلة العقيلي ، وعبد الرحمن بن عمرو الاوزاعي ، وشعيب بن أبي حمزة الحمصي ، ومحمد بن الوليد الزبيدي ، وضمضم بن زرعة ، ورجاء بن حيوة الكندي ، وعبد الله بن محيرز الجمحي ، ويونس بن ميسرة بن حليس الكناني وبحير بن سعد الكلاعي ، وزيد بن واقد الدمشقي ، وعاصم بن رجاء ابن حيوة الكندي ، والوضين بن عطاء ، والنعمان بن المنذر الدمشقي ، وعبد الله بن شوذب ، وميسرة بن معبد اللخمي ، وعبد العزيز بن عبيد الله بن حمزة

---

(١) ابن العماد ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب ج ١ ص ٦٣ (نشرته مكتبة القدسي بالقاهرة) ١٣٥٠ هـ . وسيشار اليه بـ الشذرات .

(٢) الحاكم النيسابوري ، معرفة علوم الحديث ص ١١٩ ، اعتنى بنشره وتصحيحه والتعليق عليه معظم الحسين . المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر – بيروت . لا . ت.

وأبو عبد الله بن عبيد الله الكلاعي، ويزيد بن أبي مريم وأبو بكر بن أبي مريم الغساني، والعلاء بن الحارث، ومكحول الفقيه، وعبد الله بن العلاء، وشرحبيل ابن مسلم». [1]

الرحلة في طلب الحديث :

وقد امتاز عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم في الشام وغيره بالرحلة في طلب الحديث «فيروى ان مسروقاً رحل في حرف»[2]، وإن «رجلاً رحل من المدينة إلى أبي الدرداء وهو بدمشق فسأله عن حديث [3]. وقد اشتهر بعض العلماء بأحاديث معينة، رويت عنهم ولم تروَ عن غيرهم، يقول ابن حزم : « فهذا الزهري له نحو تسعين حديثاً انفرد بها عن النبي ﷺ لم يروها أحد من الناس سواه، وليس أحد من الأئمة إلا وله أخبار انفرد بها »[4] لذا كان من الضروري لصاحب الحديث أن يشد الرحال إلى مثل هؤلاء، وقد حدّث عبد الرحمن ابن يزيد بن جابر قال: « مرّ بنا خالد بن اللجلاج فقال له مكحول: يا أبا إبراهيم حدثنا حديث عبد الرحمن بن عائش، فقال خالد سمعته يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : رأيت ربي الليلة في أحسن صورة » . [5]

الاسناد وأسبابه :

ولم تكن الحاجة في بداية الأمر – وخاصة في عصر الصحابة وكبار التابعين – داعية إلى الإسناد لذا فقد كان حديث الشاميين أكثره مراسيل ومقاطيع وهذا مما حدا بإبن تيمية من بعد أن يفضل عليهم حديث أهل المدينة

---

(١) معرفة علوم الحديث ص ٢٤٢ .

(٢) جامع بيان جـ ١ ص ٩٤ .

(٣) نفسه جـ ١ ص ٣٣ .

(٤) ابن حزم ، الإحكام في أصول الأحكام ، ج ١ ص ١٢٥ ، عن نسخة أشرف عليها أحمد شاكر سنة ١٣٤٥ هـ « مطبعة الامام بمصر » وسيشار اليه بـ الاحكام .

(٥) تهذيب ابن عساكر ج ٥ ص ٨٥ .

وأهل البصرة فقال : « اتفق أهل العلم بالحديث على أن أصح الأحاديث ما رواه أهل المدينة ، ثم أهل البصرة ، ثم أهل الشام »[1] ، وكان من أصح الأسانيدَ التي ذكروها علماء الحديث « إسناد الزهري عن سالم بن عبد الله عن أبيه عبد الله ابن عمر بن الخطاب ، وقيل الزهري عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي ».[2]

أما سبب كثرة المرسل والمقطوع في الشام فتعود إلى الثقة المتبادلة التي كانت موجودة بين التابعين هناك،وإن الوضع للحديث كان ضعيفاً فيها بعكس العراق، لذا لم يرَ أهل الشام ما يدعوهم الى الاسناد ، فكان أكثر حديثهم مراسيل ومقاطيع غير ان الحاجة إلى الاسناد ظهرت حين كثر الوضع في الحديث.ويقال ان أول من نبه إلى ضرورة الاسناد ،الزهري الذي وجد التابعين في الشام حين انتقل إليها يروون الأحاديث دون سند ومنهم إسحق بن أبي فروة ، ولهذا قال له الزهري : « قاتلك الله يا ابن أبي فروة ، ما أجرأك على الله لا تسند حديثك، تحدثنا بأحاديث ليس لها خطم ولا أزمة »[3] . وبنفس المعنى قال الزهري لأهل الشام عامة معبراً عن ضيقه من عدم إسنادهم : « يا أهل الشام ، ما لي أرى أحاديثكم ليس لها أزمة ولا خطم ، قال الوليد بن مسلم فتمسك أصحابنا بالأسانيد من يومئذ »[4] . ويروى هذا الحديث نفسه عن الأوزاعي الذي كان تلميذاً للزهري . ويتحدث ابن سيرين عن بدء التنبه للاسناد ويقرنه ببدء الفتن، ولعله يعني الحرب بين عليّ ومعاوية فيقول : « كانوا لا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة سألوا عنه ، فكانوا ينظرون إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وإلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم »[5] ،إلا إن الشاميين كما أسلفنا قضوا فترة أطول

---

(١) السيوطي ، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي جـ ١ ص ٨٦ ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ط ٢ . مطبعة السعادة بمصر ١٩٦٦ م . وسيشار اليه بتدريب الراوي .

(٢) نفسه جـ ١ ص ٧٧ – ٧٨ ، والجرح والتعديل جـ ١ قسم ١ ص ٢٦ .

(٣) معرفة علوم الحديث ص ٦ .

(٤) تاريخ الاسلام جـ ٥ ص ١٤٨ .

(٥) الجرح والتعديل جـ ١ قسم ١، ص٢٨ .

من غيرهم بلا إسناد .

ومع ان الزهري هو الذي نبه إلى الإسناد فإنه كان يورد بعض الأحاديث مرسلة فإذا أسند اعتبر إسناده من أصح الأسانيد حتى اعتبره السيوطي من « سلسلة الذهب » [1] ، وقد قال الذهبي في إرسال الزهري « مرسله شر من مرسل غيره وذلك لأنه حافظ وكلما قدر أن يسمي سمّى وإنما يترك من لا يحب أن يسميه » [2]. وهذا يوضح ان الزهري قد أرسل متعمداً بينما أرسل غيره من الشاميين دونما تعمد ، وأعتقد أن سبب ذلك ان الزهري قد روى عن علماء مرموقين في المدينة فهؤلاء يذكرهم ، فإذا روى عن ضعاف فإنه لا يذكرهم حتى يبقى سنده سنداً متيناً وحتى يشتهر عنه انه يروي عن أمثال عروة بن الزبير وسالم بن عبد الله أو علي بن الحسين ، فمن يروي عن هؤلاء لا يريد أن يشرك معهم سواهم من غير المعروفين .

ومن التابعين الشاميين الذين عُرفوا بالإرسال : عطية بن قيس ، وعمر بن عبد العزيز الخليفة ، وحرام بن حكيم بن خالد الأنصاري ، ومكحول الشامي « وكان أكثرهم إرسالاً » [3] ، ورزيق أبو عبدالله الإلهاني ، وعبد الرحمن بن غنم الأشعري ، وشهر بن حوشب .

ومع بداية القرن الثاني الهجري أخذ الوضع يظهر في الحديث وكثر عدد المنتسبين إلى رواية الحديث دون أن تكون لديهم المؤهلات اللازمة لذلك ، ومما يدل على أنه دخل في غمار المحدثين أناس لا يُطمأن كثيراً إليهم قول أبي الزاهرية حدير بن كريب الحمصي — وهو في الطبقة التي تلي الصحابة من أهل الشام وتوفي في خلافة عمر عبد العزيز — « ما رأيت مثل أصحاب الحديث يأتون من غير أن يدعوا ويزورون من غير شوق ، ويرمون بالمسألة ، ويملون بطول الجلوس » . [4]

---

(١) تدريب الراوي جـ ١ ص ٨٣ .

(٢) تاريخ الاسلام جـ ٥ ص ١٤٩ .

(٣) تهذيب التهذيب جـ ١٠ ص ٢٩٠ .

(٤) تهذيب ابن عساكر جـ ٤ ص ٩٠ - ٩١ .

وقد عبّر المغيرة الضبي عن تخوفه منهم بقوله : « والله لأنا أشد خوفاً منهم من الفاق » . [1] وحذر مكحول من طلب الحديث للمماراة والمباهاة فقال : « من طلب الحديث ليماري به السفهاء أو ليباهي به العلماء أو ليصرف به وجوه الناس فهو في النار » [2] ، ولم يكن الحال كذلك في الشام وحده ، كما أن هذه النظرة لا تنطبق على معظم المشهورين بالحديث ، فقد نقل عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قوله : « لا تكتبوا العلم إلا عمن يعرف بطلب الحديث » . [3] فما قاله أبو الزاهرية لم يكن يقصد به جميع المحدثين إذ أنه هو نفسه كان محدثاً ويقول عنه ابن سعد : « وكان ثقة كثير الحديث » [4] ، إلا أنه عنى به أولئـــك الذين لم يكونوا أهلاً لهذا العلم ، ذلك ان عالم الحديث كان عليه أن يتميز بخصائص دقيقة أهمها الحفظ حيث ان الكتابة لم تكن قد اتسعت بعد في القرن الثاني الهجري ، ثم عدم الغفلة أو النسيان بالإضافة إلى حسن السيرة والدين وإلى الإلمام باللغـــة والإعراب وكل ما يهم في ضبط الحديث وفهمه . وقد امتنع بعضهم عن الرواية بسبب النسيان ومن هؤلاء كلثوم بن هانىء الكندي فكان إذا سألوه أن يحدثهم قال : « إن قلبي لا خير فيه ما أكثر ما سمع ونسي ، قال الشيباني ولو شاء أن يحدثهم لفعل » [5] . وأما الأمانة فإنها لا تكفي وحدهـا ، « فقد فضل مالك الزهري على سبعين ممن يؤتمنون على بيت المال ، لم يأخذ منهم شيئاً » [6] .

نقد الحديث والمحدثين :

وكل ذلك أدى إلى نشوء نقد الحديث وهدفه تمييز الموضوع من الصحيح ، فنشأ علماء متخصصون بالحديث ، ومن هؤلاء في الشام محمد بن الوليد الزبيدي فكان« أعلم أهل الشام بالحديث » . [7] ومن النقاد الشاميين أيضاً الأوزاعي

---

(١) جامع بيان جـ ٢ ص ١٣٢ .
(٢) نفسه جـ ١ ص ١٨٨ .
(٣) تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ١٦٥ .
(٤) طبقات ابن سعد جـ٧ص ٤٥٠ .
(٥) نفسه جـ ٧ ص ٤٥١ .
(٦) تاريخ الاسلام جـ ٥ ص ١٤٢
(٧) تذكرة الحفاظ جـ ٥ ص ١٤٦ .

وأبو إسحق الفزاري : فقد قال الأوزاعي : « كنا نسمع الحديث فنعرضه على أصحابنا كما يُعرض الدرهم الزيف على الصيارفة فما عرفوا أخذنا وما تركوا تركنا [1] ، ويصور الحافظ الذهبي قيمة أبي إسحق الفزاري في النقد فيقول : « إن الرشيد أخذ زنديقاً ليقتله فقال : أين أنت من ألف حديث وضعتها، قال: فأين أنت يا عدو الله عن أبي إسحق الفزاري وإبن المبارك يتخللانها فيخرجانها حرفاً حرفاً » [2] .

وقد نشأ من ناحية النقد المفاضلة بين العلماء وخصوصاً علماء القطر الواحد مثل الاوزاعي ومكحول « فقد سأل محمد بن شعيب أمية بن يزيد أين هو — الاوزاعي — من مكحول قال بل هو عندنا أرفع من مكحول ، فقال له : إن مكحولاً قد رأى أصحاب رسول الله ﷺ قال وإن كان قد رآهم فأين فضل الاوزاعي في نفسه وقد جمع العبادة والورع والعلم والقول بالحق » [3]، وكقول إبن المبارك : « إذا اختلف اسماعيل بن عياش وبقية فبقية أحب إليّ » [4] . وقد تعدى النقد الفردي أحياناً إلى نقد البلد بكامله كما أسلفنا كأن ينقد عالم شامي أهل الحجاز أو أهل العراق ، فهذا ابن شهاب الزهري « أطلق على أهل مكة في زمانه أنهم ينقضون عرى الإسلام ، ما استثنى منهم أحداً وفيهم من جملة العلماء من لا خفاء بجلالته في الدين ، وأظن ذلك والله أعلم لما روي عنهم في الصرف ومتعة النساء » [5] .

وهذا النقد هو الذي تطوّر إلى التجريح والتعديل وبه تم التمييز بين الرواة وعرف المدلس والوضاع والكذاب . ومن رواة الشاميين المتهمين بالتدليس بقية

---

(١) الجرح والتعديل ١/ ١/ ٢١ .
(٢) تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٢٤٩ .
(٣) تاريخ دمشق م جـ ١٠ ص ٣٨ .
(٤) تهذيب ابن عساكر جـ ٣ ص ٢٧٥ .
(٥) جامع بيان جـ ٢ ص ١٥٤ .

ابن الوليد والوليد بن مسلم ، وكان سبب إتهام بقية بالتدليس أنه : « يحدث عن قوم متروكي الحديث وعن الضعفاء ويحيد عن اسمائهم الى كناهم ومن كناهم الى اسمائهم ويحدث عمن هو أصغر منه »[1] . وقد روي عنه مناكير منها قوله ﷺ : « إذا كتبت كتاباً فتربه فإنه أنجح للحاجة والتراب مبارك »قال الإمام أحمد بن حنبل كتبه بقية »[2] ، ومع ذلك فالمدلس يؤخذ عنه الاحاديث الصحيحة ويترك ما دونها ، إذ أن العلماء لم يتركوا الحديث عن بقية وغيره من المدلسين ، فأبو إسحق الفزاري يقول : « خذوا عن بقية ما حدث عن الثقات ولا تأخذوا عن إسماعيل بن عياش ما حدث عن الثقات وغير الثقات »[3] . ولكون بقية شامياً فإن تدليسه أقرب عن غير الشاميين من عراقيين وحجازيين ولكنه يستطيع السماع من الشاميين لقربهم منه ، وهـذا هو شأن المدلسين يوثقون إذا رووا عن الثقات من بلدهم ويجرحون بالتدليس إذا رووا عن غير هؤلاء سواء كانوا ضعافاً من بلدهم أو ثقاتاً من بلد آخر ، وبذلك يقول ابن عساكر في بقية : « إذا روى عن الشامين فهو ثبت ، وإذا روى عـن أهل العراق والحجاز خالف الثقات في روايته عنهم »[4] .

ومن المدلسين الوليد بن مسلم ومع ذلك « فإذا قال حدثنا أو أخبرنا فهـو مقبول »[5] ، وقد روى عن كثير من العلماء منهم حريز بن عثمان وصفوان بن عمرو والاوزاعي وإبن جريح والثوري وثور بن يزيد ، وهـؤلاء منهم الشامي كالأوزاعي والمكي كإبن جريح والكوفي كثور بن يزيد والثوري . والإختلاف بين العلماء حول الوليد واضح فبعضهم مدحه مثل عبد الرحمن بن مهدي الذي

---

(١) تهذيب ابن عساكر جـ ٣ ص ٢٧٥ .
(٢) نفسه جـ ٣ ص ٢٧٦ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) نفس المصدر والصفحة .
(٥) الشذرات جـ ١ ص ٣٤٩ .

قال : « ثم سمعت من الوليد وما رأيت من الشاميين مثله وقد أغرب بأحاديث صحيحة لم يشركه فيها أحد ، وقال مروان بن محمد : إذا كتبت حديث الاوزاعي عن الوليد فما تبالي من فاتك » [1] ، هذا في مدحه أما في ذمه فقال أبو مسهر : « كان الوليد مدلساً ربما دلس عن الكذابين » [2] . وكما قيل عن بقية بشأن توثيق روايته عن الشاميين وعدم توثيقه في روايته عن غيرهم كذلك قيل عن اسماعيل بن عياش : « فعن يحيى بن معين والفلاس قالا : « هو ثقة في ما روى عن الشاميين » [3] .

وقد اعتبر جبير بن نفير وهو شامي مدلساً « ولذا لم ينقل عنه البخاري الذي لا يقنع إلا بأن يصرح الشيخ بلقاء من روى عنه » [4] ، إلا أن النسائي قد قد وقف موقفاً مخالفاً من البخاري من جهة جبير فقال فيه : « ليس أحد من كبار التابعين أحسن رواية عن الصحابي من ثلاثة : قيس بن أبي حازم وأبي عثمان النهدي وجبير بن نفير » [5] .

ويتبين لنا هنا إختلاف العلماء في المدلسين ، اذ كان التهاون في الاسناد مدعاة للوقوع في التدليس .

وقد روي في الشام أحاديث مناكير ومن الذين رووا ذلك بقية كما أشرنا سابقاً ، وكذلك تميم بن عطية العنسي الداراني : « له حديث منكر يدل على ضعف ، وثقه ابو حاتم فقال : محله الصدق » [6] .

---

(١) تهذيب التهذيب جـ ١١ ص ١٥٣ .
(٢) تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٢٧٦ .
(٣) نفسه جـ ١ ص ٢٣٠ .
(٤) نفسه جـ ١ ص ٤٥ .
(٥) تهذيب التهذيب جـ ٢ ص ٦٤ .
(٦) تاريخ الاسلام جـ ٦ ص ٤٣ .

تأثر رواية الحديث بالسياسة :

وقدتميز اقليم الشام بصفة خاصة زمن الدولةالاموية بالتأثر بالسياسة السائدة؛ لذا فإن الأحاديث النبوية التي كانت تنقص من بني أمية أو تروي ان رايات سوداً ستأتي من خراسان فتقضي عليهم وأمثال ذلك ، كانت تروى خارج الشام إما لأن أهل الشام كانوا موالين للخليفة الأموي ، وإما خوفاً منه ، وبالاضافة إلى ذلك فقد رويت أحاديث عن معاوية ومدحه وفي كثير منها : ما رواه عبد الله بن جابر الطرسوسي وأسنده إلى واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ قوله « الأمناء عند الله ثلاثة :جبريل وأنا ومعاوية ، وقد سئل أحمد بن عمير الدمشقي وكان عالماً بحديث أهل الشام عن هذا الحديث فأنكره » [1] ، وقد رووا في ذم بني أمية : « أول من يبدل سنتي رجل من بني أمية يقال له يزيد » [2] .

الحديث وأصحاب الفرق :

وقد وضعت بعض الأحاديث ضد بعض أصحاب الكلام من القدرية أمثال غيلان الدمشقي ، من ذلك ما رواه الوليد بن مسلم مسنداً إلى عبادة بن الصامت عن الرسول قوله : « يكون في أمتي رجل يقال له غيلان أضر على أمتي من إبليس » [3] ، وقد ذكرت عند الحديث عن التفسير الأحاديث التي وضعت في تفضيل ديار الشام وما كان للاسرائيليات من يد فيها .

قلة الرواية والتوثيق :

ويبدو أن قلة الحديث للتابعي كانت شهادة بتوثيقه ، وأن كثرة الحديث تجعل المحدث عرضة للنقد ، فغالبية الذين رووا الحديث بقلة قد وثقوا دون أن يغمزهم أحد ، فهذا عامر بن لدين تابعي شامي لم يخرجوا له شيئاً ومع ذلك فقد

---

(١) تهذيب ابن عساكر ج ٧ ص ٣٢٢ .
(٢) تاريخ الاسلام ج ٣ ص ٩٢ .
(٣) نفسه ج ٤ ص ٢٩٠ .

وثق : قال العجلي عنه : « تابعي ثقة لم يخرجوا له شيئاً »[1] ، وقال ابن سعد عن عبد الرحمن بن عسيلة الصنابحي نزيل الشام «كان ثقة قليل الحديث »[2] والاوزاعي مع شهرته وكثرة علمه كان يقل من رواية الحديث .

توثيق عدد كبير من الشاميين :

ونجد ابن سعد في طبقاته يوثق عدداً كبيراً من التابعين الشاميين منهم : يزيد ابن جابر ، ويونس بن ميسرة ، وثور بن يزيد الكلاعي ، وهشام بن الغـــازي وعبد الله بن العلاء ، وصدقة بن خالد ، وسعيد بن عبـد العزيز . إلا أن هناك أحياناً تعارضاً في الأحكام على عالم معين ، فبعضهم يوثقـــه وبعضهم يستنكر حديثه ، ومن هؤلاء عبد الرحمن بن جبير بن نفير قال عنه ابن سعد : « كان ثقة وبعضهم يستنكر حديثه »[3] .

مميزات الحديث عند الشاميين :

ومن هنا نتبين أهم المميزات التي امتاز بها الحديث بالشام وبينّا أهمهـا وهو قلة الاسناد ثم قلة الاحاديث المتعلقة بالسياسة وبالبلاد ، ويلاحظ في هذه الفترة أن هناك بعض الاحاديث التي كان الصحابة والتـــابعون وتابعيهم يقللون من روايتها ، كتلك الأحاديث التي تبين عفو الله عن بعض الذنوب الكبيرة كالزنى مثلاً ، فإن الإكثار من ترديد مثل هذه الأحاديث يوحي بأن المحدث يحث على ارتكاب المعاصي ، وهذا لا يتميز به أهل الشام فحسب بل هو عام في كافـــة الأقطار فمن هذه الأحاديث ما قاله أبو الدرداء : « قرأ رسول الله ﷺ : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فقلت : وإن سرق وزنى – ثلاث مرات – حتى

---

(١) تاريخ الاسلام جـ ٤ ص ١٦ .

(٢) نفسه جـ ٣ ص ١٨٨ .

(٣) طبقات ابن سعد جـ ٧ ص ٤٥٥ ،

قال الرسول : وان رغم أنف أبي الدرداء »[1] ، وعن الصنابحي قال : دخلت على عبادة بن الصامت وهو في مرض الموت ، فبكيت ،فقال : « مهلاً ، لم تبكي ؟ فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلا حدثتكموه إلا حديثاً واحداً وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحيط بنفسي ، سمعت رسول الله ﷺ يقول :من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرّم الله عليه النار »[2].

ومن الملامح العامة في رواية الحديث الطريقة التي كان يسلكها الشاميون حين روايتهم للحديث القدسي فيذكر أن بعضهم كان يجثو على ركبتيه ،وقد ذكر ابن عساكر حديثاً قدسياً ثم قال : « وكان أبو ادريس الخولاني إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه »[3] .

طرق الرواية ونقل الحديث :

كان لرواية الحديث في عصر التابعين وتابعيهم طرق من ناحية الأخذ وكيفيته ، فكان لهذا ألفاظ مثل : حدثنا وأنبأنا وأخبرنا ، أو عن فلان ، أو قال فلان ! تبعاً لطريقة التلقي سواء كانت بالمناولة أو الإجازة أو العرض أو غير ذلك من الطرق . وكان الأوزاعي عالم الشام يجيز في المناولة كلمة حدثنا إذا حدّث الراوي وإلا فليقل قال أبو عمرو : فقد حدّث عمر بن أبي سلمة قال : قلت للاوزاعي أقول فيها : حدثنا قال : « إن كنت حدّثتك فقل : حدثنا ، فقلت : أقول أخبرنا قال : لا ، قلت فكيف أقول ؟ قال : قل عن أبي عمرو أو قال أبو عمرو ، فكان عمر يقول فيما سمع منه حدثنا الأوزاعي ويقول فيما أجازه له،قال الأوزاعي: »[4] ، وقد « كان الزهري ومالك يجيزان

---

(١) الغزالي ، احياء علوم الدين جـ ٤ ص ٥٣٢ ، صححه احمد سعيد علي (مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر) ١٩٣٩ م .
(٢) نفسه جـ ٢ ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .
(٣) تهذيب ابن عساكر جـ ٧ ص ٢٠٤ .
(٤) جامع بيان ، جـ ٢ ص ١٧٨ — ١٧٩ .

إطلاق حدثنا وأخبرنا في الروايةبالمناولة وهو مقتضى قول من جعلها سماعاً»[1].

ويذكر السيوطي أن الأوزاعي يجيز « بالمناولة خبّرنا والقراءة بأخبرنا »[2] فهذا يدل أنهم إبتغوا الدقة في الشام في نقل الرواية والطريقة التي تنقل بها وإلا أعتبر ذلك الراوي مدلساً إذا حدّث عن عالم ولم يسمع منه ، فكان لا بدّ في هذه الفترة من الإجازة للراوي حتى يحدّث عنه ، فقد يجيز عالم شامي عالماً من اليمامة،فقد ذكر أن « ممطور أبو سلام الدمشقي وهو من ثقات الشاميين يروي عنه بالإجازة يحيى بن أبي كثير »[3] .

أما رواية العرض فهي تشبه قراءة القرآن الكريم على الشيخ ، وقد بينت ذلك في باب القراءات ، وتكون أيضاً في الحديث ، وكلمة العرض تعني القراءة عند علماء الحديث .

وكان بعض العلماء لا يكتفي من الحديث أن يقول حدّثنا حتى ولو كان يأخذ عن أبيه ، بل يحلف الراوي بالله ثلاثاً على صدقه ، ومن هؤلاء عمر بن عبد العزيز ، فقد روى إبن بردة :« أنه حدّث عمر بن عبد العزيز عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله تعالى مكانه النار يهودياً أو نصرانياً فاستحلفه عمر بن عبد العزيز بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات أن أباه حدّثه عن رسول الله فحلف له »[4] .

تدوين الحديث :

كان المسلمون في أول عهد النبي يمتنعون عن كتابة أحاديث النبي خوفاً من اختلاطها بالقرآن وقد نهى الرسول في البدء عن كتابة الحديث لهذا السبب ،

---

(1) تدريب الراوي ، جـ ٢ ص ٥١ .
(2) نفسه ، جـ ٢ ص ٥٢ .
(3) تاريخ الأسلام جـ ٤ ص ٢٠٥ .
(4) إحياء علوم الدين جـ ٤ ص ٥٣٢ .

« فعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن فمن كتب عني شيئاًسوى القرآن فليمحه »[1] ، كان هذا في أول الرسالة، ثم أجاز الرسول كتابة الحديث بعد ذلك حين اطمأن إلى عدم اختلاط السنة بالقرآن فيروى أن « عبد الله بن عمر كان يسمي صحيفته التي كتبها عن رسول الله ﷺ (الصادقة) وأن أبا هريرة قال : لم يكن أحد من أصحاب النبي ﷺ أكثر حديثاً مني إلا عبد الله بن عمر فإنه كتب ولم أكتب »[2] .

فإذا تتبعنا الصحابة بالشام وجدناأن بعضهم كان يكتب العلم ، وقد كان أهم فروعه التفسير والحديث والقصص ، وكانوا لا يفردون الحديث عن غيره من العلوم كما حصل بعد ذلك : ومن هؤلاء الصحابة أبو إمامة الباهلي « فقد سئل عن كتابة العلمفقال : لا بأس بذلك»[3] ، وقد بينت عند الحديث عن القصص أن إبن مسعود قد شاهد صحفاً فيها قصص لأبي الدرداء فمزقها وذلك لأنه إعتبرها غير ذات قيمة بالنسبة للقرآن الكريم ، وإنها تلهي الناس عن قراءة القرآن وأخذ القصص منه .

وقد ظل هذا الأمر على هذا الحال حتى زمن عمر بن عبد العزيز الذي أمر بتدوين الحديث ، فقد بعث إلى واليه بالمدينة أبي بكر بن عمرو بن حزم : «أن أنظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ وحديث عمرة بنت عبد الرحمن فاكتبه فإني قد خفت دروس العلم وذهاب أهله . قال الواقدي : قال عمر بن عبد العزيز ما بقي أحد أعلم بحديث عائشة من عمرة »[4] . فالخوف من دروس العلم بوفاة الرواةهو السبب الأول فيالتدوين أما السبب الثاني فهو إستبعاد الموضوع ،

---

(١) جامع بيان جـ ١ ص ٦٣ .
(٢) تقييد العلم ص ٧٩ .
(٣) نفسهص ٩٨ .
(٤) البلاذري ، انساب الاشراف جـ ٢ ص ٨٢ – نسخة في الجامعة الاميركية ببيروت عن مخطوط بالمكتبة السليمانية – الاستانة تحت رقم ٥٩٨ .

يدل على ذلك قول الزهري : « لولا أحاديث تأتينا من قبل المشرق ننكرهالا نعرفها ما كتبت حديثاً ولا أذنت في كتابة »[1] .

وقد بدأ عمر بن عبد العزيز يكتب بنفسه الأحاديث التي يرويها الرواة في مجلسه بواسطة كتبة عيّنهم لهذا الغرض « فقد دخل عبيد الله بن عبد الله على عمر ابن عبد العزيز فأجلس قوماً يكتبون ما يقول ،فلما أراد أن يقوم قال له عمر ، صنعنا شيئاً ، قال : وما هو يا ابن عبد العزيز ؟ قال : كتبنا ما قلت ، قال : وأين هو ؟ قال فجيء به فخرق»[2] .

ويدل كتاب عمر أنه لم يأمر الوالي بنفسه أن يجمع الحديث ويكتبه بل أن يعين من يراه كفؤاً لذلك من العلماء ويبدو أنه اختار الزهري لهذه المهمة « فأمره عمر بجمع السنن ، وقد دون الزهري له في ذلك كتاباً فغدا عمر يبعث إلى كل أرض دفتراً من دفاتره »[3] ويبدو أن الزهري كان يكتب العلم من سُنة وغيرها قبل ذلك الوقت فلما أحيتج إليه وجد ذلك سهلاً ، فعن عبد الرحمن بن أبي الزناد قال : « كنا لا نكتب إلا سُنة وكان الزهري يكتب كل شيء ، فلما احتيج اليه عرفت أنه أوعى الناس »[4] ، وقد عنى ابن أبي الزناد بالسنّة الحلال والحرام إذ أنه في رواية أخرى يقول : « كنا نكتب الحلال والحرام وكان إبن شهاب يكتب كل ما سمع فلما احتيج إليه علمت أنه أعلم الناس »[5] . وقد كان الزهري يكتب العلم لنفسه ولكنه لا يجيز أن يكتبه عنه أحد ، حتى أكرهه الخلفاء على ذلك ، وقد أتى الزهري الشام زمن عبد الملك بن مروان وقال في ذلك : « كنا نكره كتاب العلم ، حتى أكرهنا عليه الأمراء ، فرأينا

---

(١) تقييد العلم ص ١٠٨ .
(٢) نفسه ص ٤٥ .
(٣) جامع بيان جـ ١ ص ٧٦ .
(٤) البيان والتبيين جـ ٢ ص ٢٩٠ .
(٥) جامع بيان ، جـ ١ ص ٧٣ .

أن لا نمنعه أحداً من المسلمين »[1] . ومن الذين أمروا الزهري بالكتابة الخليفة هشام بن عبد الملك وقد عين للكتابة عنه شعيب بن أبي حمزة الحمصي وقد قال عنه أحمد بن حنبل : « رأيت كتب شعيب بن أبي حمزة فرأيت كتباً مضبوطة مقيدة ، وكتب للخليفة هشام كثيراً بإملاء الزهري عليه »[2] .

ومن التابعين الشاميين الذين كتبوا العلم خالد بن معدان المتوفي سنة ١٠٤ هـ قيل : « كان علمه في مصحف له أزرار وعرى »[3] ، وكذلك رجاء بن حيوة ، ويبدو أن لروايته بالحرف أثراً في كتابته إذ أن هذه الرواية لا تعتمد على الحفظ بل على الكتابة والتدوين ، وقد اعترف هو بكتابتـــه للحديث حين قال : « كتب هشام بن عبد الملك يسألني عن حديث ، وكنت قد نسيته لولا أنه كان عندي مكتوباً »[4] .

وكان على الراوي الذى يود الكتابة أن يأخذ إذناً من محدثه بذلك فإن شاء أذن له أو منعه . فقد قال شعبة بن الحجاج لبقية بن الوليد يومـاً : « اكتب لي حديث بحير فكتبه فقال له بقية : كيف يحل لك أن تكتب ولا يحل لنا أن نكتب فأذن له بالكتابة »[5] .

إلا أن الكتابة لم ترق بعض التابعين وأتباعهم في الشام كما رأينا من عبيد الله ابن عبد الله ، والأوزاعي الذي كان يقول : « كان هذا الأمر شيئاً شريفاً إذ كان الناس يتلقونه بينهم ، فلما كتب ذهب نوره وصار الى غير أهله »[6] ، مع العلم أن للاوزاعي ثلاثة عشر كتاباً إحترقت زمن الرجفة « فأتاه رجـــل

---

(١) تقييد العلم ، ص ١٠٧ .
(٢) تذكرة الحفاظ ، جـ ١ ص ٢٠٠ .
(٣) نفسه جـ ١ ص ٨١ .
(٤) تقييد العلم ، ص ١٠٨
(٥) تهذيب ابن عساكر ، جـ ٣ ص ٢٧٤ — ٢٧٥ .
(٦) تاريخ دمشق م جـ ١٠ ص ٤٤ .

ينسخها فقال : يا أبا عمرو هذه نسخة كتابك واصلاحك بيدك فما عرض بشيء منها حتى فارق الدنيا »[1] ، إلا أن الأوزاعي كان له كاتب يكتب أقواله وهذه ظاهرة وجدت زمن تابعي التابعين ، فقد كان كاتبه الهقل بن زياد البيروتي المتوفي سنة ١٩٨ هـ ، ولذا قال أحمد بن حنبل : « لا يكتب حديث الاوزاعي عن أوثق من هقل » [2] .

ومن التابعين الشاميين الذين كتبوا : الوليد بن مسلم وقد بينت سابقاً أن مؤلفاته كانت سبعين . ويقال أن عبد الرحمن بن عائذ الأزدي الحمصي : « لما مات خلف كتباً وصحفاً من علمه » [3] ، كما أن عبد الله بن زيد نزيل داريا : « لما مات ترك حمل بغل كتباً » [4] ، وقد توفي سنة ١٠٤ هـ .

وقد كان الحديث في هذه الفترة ممتزجاً مع غيره من العلوم في الشام كما رأينا إلا أنه بالمدينة فصل وألف في الحديث كتاب جامع هو موطأ الامام مالك بن أنس المتوفي سنة ١٧٩ هـ كما ألف عبد الملك بن جريج بمكة كتاباً في الحديث وقد توفي سنة ١٥٠هـ . ويبدو أن للنواحي السياسية وانتقال الخلافة إلى العراق أثراً في عدم وجود كتاب للحديث في الشام لأن العباسيين كانوا ينظرون بعين السخط إلى أهل الشام ، وقد كان الاوزاعي نفسه معرضاً للقتل عند استيلاء العباسيين على دمشق ، ولذا لم نجد في عصر العباسيين حتى أواخر القرن الثاني الهجري من يؤلف في الحديث من الشاميين ، وقد ظهر بعد الاوزاعي علماء مثل اسماعيل بن عياش توفي سنة ١٨٢ هـ ولكنه «كان يعتمد على حفظه ولا يكتب

---

(١) نفس المصدر السابق والصفحة .
(٢) تهذيب التهذيب جـ ١١ ص ٦٤ .
(٣) تاريخ الاسلام جـ ٤ ص ٢٦ .
(٤) نفسه جـ ٧ ص ٤٢٦ .

حتى وقع خلل في حديثه »(1) . وكان سعيد بن عبد العزيز : « لأهل الشام كالك لأهل الحجاز »(2) ، ولكنه كان لا يؤيد الكتابة فقال : « مـــا كتبت حديثاً قط »(3) . وابتعاد هؤلاء عن الكتابة واقبالهم على الزهد ربما كان دليلاً على ما كانوا يعانونه سياسياً في تلك الفترة .

(1) تذكرة الحفاظ جـ 1 ص ٢٣٠ .
(2) نفسه جـ 1 ص ١٩٨ .
(3) نفس المصدر والصفحة .

٤ ـ الفقه

مقدمة في الفقه زمن الرسول والصحابة :

أطلقت كلمة الفقه زمن الرسول والصحابة على العلم عامة ، فكل من يحمل العلم ويعيه فهو فقيه ، فقد جاء في قول الرسول : « نضر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها ثم أداها إلى من لم يسمعها ، فرب حامل فقه لا فقه له »[١]، وقد أوردنا مقالة أبي الدرداء « لا يفقه العبد كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً » ، وقوله : « إن فقه الرجل رفقه في معيشته »[٢] ، فنرى الفقه هنا يعني العلم بالدين وبأساليب المعيشة والحياة ، وقد يعني العلم بالحلال والحرام ، فقد قال الرسول : « أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل » وقال عمر بن الخطاب : « من أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل »[٣] ، فإن وصف الرسول لمعاذ بأنه أعلم الأمة بالحلال والحرام ، ووصف عمر له بالفقه يدلنا على أن العلم بالحلال والحرام هو من الفقه في تلك الآونة . ومن الأحاديث النبوية التي تدل على أن الفقه هو العلم بالدين قول الرسول ﷺ : « إذا أراد الله بعبدٍ خيراً فقهه في

---

(١) جامع بيان جـ ١ ص ٤١ .
(٢) عيون الاخبار جـ ١ ص ٣٣١
(٣) الشيرازي ، طبقات الفقهاء ص ٤٦ (نشر دار الرائد العربي – بيروت) ١٩٧٠م .
(٤) جامع بيان ١ ص ٢٩ .

الدين » [1] ، وقد كانت العلوم الدينية في عصر النبي تستمد من مصدرين رئيسيين هما القرآن والسنة . وقد كان الاجتهاد بالرأي وارداً في زمن الرسول ، ويشهد بذلك استشارة النبي لأصحابه في المعارك فكانوا يجتهدون بآرائهم فيأخذ عنهم، ومن اجتهاد الصحابة زمن النبي أنه قال لهم بعد غزوة الأحزاب : « لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة ، فتخوف ناس فوت الوقت دون بني قريظة . وقال آخرون لا نصلي العصر إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت . فما عنّف واحداً من الفريقين ، وفي هذا من الفقه تصويب المجتهدين [2] ، وقد نتج عن هذا الاجتهاد فرع آخر من مصادر الفقه ألا وهو الإجماع ، إذ أن إجماع الفقهاء أو الأئمة على أمر هو من مصادر الفقه ، وإجماع الصحابة أو العلماء على عمل ما يعتبر المصدر الثالث من أصول التشريع ، وقد ظهرت الحاجة إلى الاجتهاد بالرأي زمن الرسول نتيجة لظهور منصب القضاء ، فقد كان الرسول يبعث الوالي إلى المدن أو الأقطار التي أسلمت ومن مهمته القضاء في الخصومات ، مثل ذلك عندما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن وقال له : كيف تقضي فقال بكتاب الله . فقال له : فإن لم تجد قال : بسنة رسول الله . فقال : فإن لم تجد قال أجتهد برأيي لا آلو ، فقال الرسول: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله » [3] ، ومن هنا نتبين أن الرأي والاجتهاد كانا مقترنين ببعضهما زمن الرسول والصحابة ، وأن الاجتهاد بالرأي لا يكون إلا إذا لم يوجد نص في الكتاب أو السنة لحادثة ما . وكما وجد الاجتهاد زمن الصحابة كذلك وجد القياس وهو المصدر الرابع للفقه . قال ابن القيم : « وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يجتهدون في النوازل ، ويقيسون بعض الأحكام على بعض [4] . وقد أرسل عمر

---

(١) جامع بيان ، جـ ١ ص ٢٠ .

(٢) تفسير القرطبي جـ ١٤ ص ١٣٨ .

(٣) انظر ابن حزم ، ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل ص١٢ (مطبعة جامعة دمشق سنة ١٩٦٠) وسيشار اليه بـ ملخص إبطال القياس .

(٤) ابن قيم الجوزية ، أعلام الموقعين عن رب العالمين ، جـ ١ ص ١٧٦ ، ط الثانية تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (مطبعة السعادة بمصر) ١٩٥٥ م . وسيشار اليه بـ أعلام الموقعين .

ابن الخطاب إلى أحد قضاته يدل على أنه كان يأذن له بالرأي والقياس قوله : « لا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت فيه رأيك ... إلى قوله : قس الأمور بنظائرها »(١) وقد أرسل إلى شريح القاضي : « فإن أتاك ما ليس في كتاب الله ولم يسن فيه رسول الله ، فاقض بما أجمع عليه الناس ، فإن شئت أن تجتهد رأيك فتقدم »(٢).

وقد ظهرت الفتيا زمن الرسول أيضاً وكانت لتعليم المسلمين أمور حياتهم الدينية والدنيوية، فمن فتاوى الرسول أن «ابن ام مكتوم استفتاه : هل يجد له رخصة أن يصلي في بيته، فقال هل تسمع النداء ؟ قال نعم قال : فأجب »(٣) ، وكان الرسول يحث على أن يستفتي المسلمون من هو أهل للفتيا فقال: «من أفتى بغير علم فإنما إثمه على من أفتاه (٤) .

وعلينا أن نلاحظ الفرق بين الاجتهاد والفتيا ، فالاجتهاد دائماً يكون بالرأي أو القياس أما الفتيا فتكون بالرأي أو بالرجوع إلى نص من الكتاب أو السنة ، فإذا أفتى برأيه أو بالقياس فإنه يذكر ذلك فقد قال القرطبي : « وأفتى مجتهداً رأيه قايساً على الأصول فيما لم نجد فيه نصاً من التابعين من أهل الشام : مكحول وسليمان بن موسى والأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز ويزيد بن جابر »(٥)، ولما كان الفقه في الشام في زمن الصحابة لا يزال هو الدراية بالكتاب والسنة والعلم بالحلال والحرام كان أغلب الصحابة الذين ساهموا في الحركة العلمية الدينية فقهاء ، وكان منهم القضاة ومنهم المفتون ومنهم المعلمون .

مميزات الفقه في الشام زمن الصحابة:

ويمتاز الفقه في هذه الفترة بظهور بعض المعارضات السياسية الناتجة عن

---

(١) تاريخ ابن خلدون ، جـ ١ ص ٣٩٦ .
(٢) تاريخ الإسلام جـ ٣ ص ١٦١ .
(٣) أعلام الموقعين جـ ٤ ص ١٨٨ .
(٤) أعلام الموقعين جـ ٤ ص ١٧٣ .
(٥) جامع بيان ، ج ٢ ص ٦١ — ٦٢ .

الأحكام القرآنية والأحاديث النبوية متمثلة بحركة أبي ذر الغفاري واصطدامه بمعاوية ، وقبل ذلك اصطدم معاوية مع صحابي آخر هو عبادة بن الصامت لأمر فقهي يتعلق بالمعاملات ، حاول فيه معاوية أن يرى رأيه فغضب عليه عبادة لأنه فضّل رأيه على سنّة رسول الله ،فقد غزا عبادة مع معاوية أرض الروم فنظر إلى الناس وهم يتبايعون كسر الذهب بالدنانير وكسر الفضة بالدراهم فقال : « أيها الناس : إنكم تأكلون الربا ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تبتاعوا الذهب بالذهب إلا مثلاً بمثل ، لا زيادة بينهما ولا نظرة ،فقال له معاوية : يا أبا الوليد لا أرى الربا في هذا إلا ما كان من نظرة فقال عبادة : أحدثك عن رسول الله ﷺ وتحدثني عن رأيك» [1] ، وقد حدثت هذه الغزوة زمن عمر بن الخطاب،ويذكر ان عبادة رحل إلى المدينة فرده عمر إلى الشام على أن تكون له الكلمة على معاوية ، وقد حدث نفس الأمر زمن عثمان فقد كتب معاوية إليه « ان عبادة قد أفسد علي الشام وأهله فأما أن يكف وأما أن أخلي بينه وبين الشام »[2]،وقد « كان عبادة أول قاض في فلسطين » [3] . إلا ان معارضة أبي ذر اتخذت طابعاً أعمق من الاختلاف بالرأي أو السنة إلى الاختلاف على أمور الحكم والسياسة الاقتصادية للدولة مما أوشك أن يحدث ثورة على معاوية في الشام ، وينسب إلى عبدالله بن سبأ أنه ورد إلى الشام فقال لأبي ذر : « ألا تعجب إلى معاوية يقول المال مال الله ، ألا إن كل شيء لله كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ... وثار جدل حول ذلك مع معاوية .. وأتى إبن سبأ عبادة بن الصامت فتعلق به فأتى به معاوية فقال هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر ، وقام أبو ذر بالشام وجعل يقول : يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء ، بشّر الذين يكنزون الذهبَ والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم » [4] ، أما

---

(١) ابن ماجه . سنن ابن ماجه جـ ١ ص ٩ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (دار إحياء الكتب العربية – القاهرة) ١٩٥٢ م .
(٢) تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ١١٨ .
(٣) تهذيب ابن عساكر جـ ٧ ص ٢٠٨ .
(٤) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٣٦ .

رأي أبي ذر فإن الزكاة وحدها لا تكفي بل يجب مؤاساة الفقراء والمحتاجين من الأموال ، وقد اختلف مع كعب الأحبار في ذلك فشجه في حضرة عثمان ، قال أبو ذر : « ينبغي للمؤدي الزكاة أن لا يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجيران والإخوان ويصل القرابات ، فقال كعب : « من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه »،فرفع أبو ذر محجنه فضربه فشجّه ، فاستوهبه عثمان فوهبه له »[1] ، وكان من رأي عثمان قوله له : عليَّ أن أقضي ما عليَّ وآخذ ما على الرعية ولا أجبرهم على الزهد »[2] ، ثم سكن أبو ذر الربذة وتوفي بها .

وكان أبو ذر يفتي بالشام وقد نهاه الخليفة عن الفتيا ولكنه رفض نهي الخليفة وقال : « لو وضعتم الصمصامة على هذه ثم ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها من رسول الله ﷺ قبل أن تجهزوا عليّ لأنفذتها »[3] وكانت دعوة أبي ذر سلمية لم يجاهر فيها بالعصيان فكان دائماً يروي قول الرسول : « إسمع وأطع وإن كان عليك عبد مجدع »[4] . وعدا عن النواحي الاقتصادية فلأبي ذر أحاديث أخرى تتعلق بالأحكام منها ما رواه عن سهم الفارس والفرس قال : « شهدت أنا وأخي مع رسول الله ﷺ حنيناً ومعنا فرسان لنا ، فضرب لنا رسول الله ﷺ ستة أسهم أربعة لفرسينا وسهمين لنا »[5].

وكان معاوية بن أبي سفيان يرى القضاء برأيه أحياناً إذا رأى ذلك حقاً دون الرجوع إلى السنة ، فمن ذلك : ان مروان بن الحكم كتب إلى أسيد بن حضير وكان عاملاً على اليمامة بأن معاوية كتب اليه أن الرجل الذي تسرق منه سرقة فهو أحق بها حيث وجدها فكتب أسيد إلى مروان أن النبي ﷺ قضى

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٣٣٦ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ١٠٣ .
(٤) الكامل جـ ٣ ص ١١٦ .
(٥) ابو يوسف ، الخراج ص ١٨ — ١٩ ط الثانية (المطبعة السلفية بمصر) ١٣٥٢ هـ

بأنه إذا كان الذي ابتاعها من الذي سرقها غير متهم يخيّر سيدها فإن شاء أخذ الذي سرق بثمنه وإن شاء اتبع سارقه ثم قضى بذلك أبو بكر وعمر وعثمان فبعث مروان بكتاب أسيد إلى معاوية فكتب معاوية إلى مروان : إنك لست أنت ولا أسيد تقضيان عليّ ولكني أقضي فيما وليت عليكما فانفذ ما أمرتك به فبعث مروان بكتاب معاوية إلى أسيد فقال لا أقضي ما وليت بما قال معاوية » [1] .

ومن فقهاء الصحابة بالشام معاذ بن جبل ، أعلم الأمة بالحلال والحرام ،وكان الرسول قد بعثه إلى مكة ثم إلى اليمن ليفقه الناس ويلي القضاء ، ومن فتاوى معاذ « إن المسلم يرث من الكافر والكافر لا يرث من المسلم »[2] ، كما انه أيد عمر ابن الخطاب وعلياً في حكم الأرضين التي صولح أهلها على الخراج المعلوم« إنها وقف على المسلمين لا تقسم بين من غلب عليها من الغانمين إلى ان يرث الله الأرض ومن عليها » [3] ، وقد خالف بلال المؤذن وهو بالشام عمر في هذا الحكم،ولكن مخالفته لم تؤثر على إنفاذ الأمر . وهذا يدل على أن الاختلاف في الأحكام قد حدث في عصر الصحابة وذلك لتباين وجهات نظر الصحابة في الأمور التي تستجد عليهم ، ويذكر أن عمر قد أخذ رأيه من القرآن الكريم حيث اعتمد الآية : (ما أفاءَ اللهُ على رسوله من أهل القُرى فلله وللرسولِ ولذي القُربى واليتامى والمساكين وابنِ السبيل كي لا يكونَ دولةً بين الأغنياء منكم وما آتاكُم الرسولَ فخذوه وما نهاكم عنه فانتَهوا) الحشر ٧

وقد ذكر الشافعي في كتابه الأم عدداً من فتاوى معاذ بن جبل وأغلبها مأخوذ عن القرآن والسنة إلا أنه يستعمل رأيه في ما لم يجد فيهما ، مثال ذلك أنه سئل « إن الروم يأخذون ما حسر من خيلنا فيستلحقونها ويقاتلون عليها

---

(١) النسائي ، سنن النسائي جـ ٧ ص ٣١٣ « المطبعة المصرية » ١٩٣٠ م .

(٢) البغدادي عبد القاهر ، الفرق بين الفرق ص ٣٥٧ ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد « مطبعة المدني بالقاهرة » لات. وسيشار اليه بـ الفرق .

(٣) تاريخ دمشق جـ١ ص٥٧٥ .

أفنعقر ما حسر من خيلنا ؟ قال ليسوا بأهل أن ينقصوا منكم إنما هم فدا وقكم وأهل ذمتكم »[١] ، وكان معاذ قاضياً بفلسطين وكان يشترط العلم للقاضي فكان يقول : « إن من أبغض عباد الله إلى الله عبـداً لهج برواية القضاء حتى سمّاه جهّال الناس عالماً ، فإذا أكثر من غير طائل أُجلس بين الناس ضامناً لتخليص ما التبس على غيره »[٢] .

وكان أبو الدرداء من الفقهاء القضاة بدمشق وهو أول من ولي القضاء بها ، وكان في قضائه يدرأ الحدود بالشبهات ، وكان يكره أن يقر المذنب بذنبه في الأمور التي تستوجب الحد ، « فعن يزيد بن أبي كبشه أن أبا الدرداء أتي بامرأة سرقت ، فقال أسرقت ؟ قولي : لا »[٣] وهو لا يقصد من ذلك التشجيع على الكذب او السرقة ولكن لاجتهاد منه ان معالجة الأمر باجتثاث اسبابه افضل من تطبيق الحد ، « وكان يعيد النظر في القضية اكثر من مرة »[٤] ، وقد اتبع خلفه في القضاء ، فضالة بن عبيد نفس هذا الاسلوب — وقد أشار أبو الدرداء على الخليفة بتوليته بعده — فقد أُتي فضالة بسارق يحمل سرقته فقال له : «لعلك وجدتها ، لعلك التقطتها ، فقال رجل : إنا لله وإنا اليه راجعون ، إنه ليلقنه : فقال السارق: إي والله أصلحك الله وجدتها ،فخلّى فضالةسبيله »[٥]وقد تكلمنا عن أبي الدرداء فيمجالالتفسير وإنه يرى للقرآن وجوهاً وذلك فيأمور التأويل، أما آيات الأحكام والتي يستنبط منها الفقه فإنه كان متشدداً في الأخذ بحرفيتها، فقد سئل مرة عن كبش ذُبح لكنيسة يقال لها جرجس « أنأكل منـه ، فقال أبو الدرداء : أللهم عفواً إنما هم أهل الكتاب طعامهم حل لنا ، وطعامنـا حل

---

(١) الام جـ ٧ ص ٣٥٦ .
(٢) وكيع ، أخبار القضاة جـ ١ ص ٣٣ — ٣٤ ، ط أولى (مطبعة الاستقامة بالقاهرة) ١٩٤٧ م .
(٣) عيون الاخبار جـ ١ ص ٧٢ .
(٤) تاريخ دمشق م جـ ١٣ ص ٣٨٦ .
(٥) أخبار القضاة جـ ٣ ص ٢٠١ .

لهم » [1] وأمر بأكله ، وقد أخذ فتواه هذه من الآية : (وطعامُ الذين أوتوا الكتابَ حِلٌ لكم وطعامكم حلٌ لهم) المائدة ٥، والملاحظ ان أبا الدرداء لم يذكر الاجتهاد بالرأي بل اعتبر ذلك فقها ، وأحياناً يسمي الاجتهاد سنّة فقد قال عن عمر بن الخطاب : « رب سُنة راشدة مهدية قد سنها عمر في أمة محمد ﷺ منها المديان والقسطان » [2] يشير إلى القمح والزيت الذين فرضهما عمر للمسلمين ، وربما اعتبرها سنة لأنها حكم من خليفة طبق في الأقطار الإسلامية فهو اجتهاد مقرون بالتطبيق بعكس الاجتهاد الذي هو لمجرد معرفة الشيء .

ومن الذين أثروا في الفقه بالشام من الصحابة زيد بن ثابت وهو مدني ، إلا أنه أثر في عدد من التابعين الشاميين في الفتيا والقضاء ، ففي الفتيا روى عنه مكحول قوله : « لا تقام الحدود في دار الحرب مخافة أن يلحق أهلها بالعدو ، والحدود في هذا كله سواء » [3] ، أما في القضاء فقد كان قبيصة بن ذؤيب مختصاً بقضاء زيد بن ثابت حتى قيل عنه : « كان أعلم الناس بقضاء زيد بن ثابت» [4]،والمعروف عن زيد أنه أعلم الأمة بالفرائض التي يحتاجها القضاء، لذا كان لا بد للقاضي في أي بلد إسلامي أن يعرف قضاء زيد فيها ، ولعله كان مكتوباً في صحف أو في كتاب ، ومما يدل على أن بعض الأحكام زمن الصحابة كانت تكتب ما ذكر سوار قال : « قلت لربيعة بن أبي عبد الرحمن : من أين أخذتم اليمين مع الشاهد ؟ فقال : وجد في كتاب سعد بن عبادة » [5] .

وكان آخر الصحابة الفقهاء في الشام الذين عمروا عمرو البكالي ، كان يقال عنه

---

(١) تفسير الطبري جـ ٩ ص ٥٧٩ .

(٢) الاموال ص ٢٤٨ .

(٣) ابو يوسف ، الرد على سير الاوزاعي ص ٨٢ ، عني بتصحيحه والتعليق عليه ابو الوفا الأفغاني ،ط اولى ، عنيت بنشره لجنة احياء المعارف العثمانية بحيدر آباد الهند . لا ت.

(٤) تهذيب التهذيب جـ ٨ ص ٣٤٦.

(٥) أخبار القضاة جـ ٢ ص ٦٨ .

« هذا أفقه من بقي على وجه الأرض من أصحاب رسول الله ﷺ »[1] .

الفقه بالشام زمن التابعين :

وقد طرأت حوادث وامور في زمن التابعين أدت إلى الإتساع في مجال الفتوى والاجتهاد ، وكان من الفقهاء الشاميين في هذه الفترة كما ذكر الشيرازي : « أبو إدريس عائذ الله بن عبد الله الخولاني ، وشهر بن حوشب الأشعري .. ثم عبد الله بن زكريا وهاني بن كلثوم ، ورجاء بن حيوة ومكحول الشامي ، وأبو أيوب سليمان بن موسى الأشدق وهو من أصحاب مكحول توفي سنة ١١٩ هـ »[2] وقد انتقل إلى الشام فقيهان أثرا في الاجتهاد والفتيا تأثيراً كبيراً وهما الخليفة عمر بن عبد العزيز والزهري وهما من التابعين .

وممن ذكرهم إبن القيم الجوزية من المفتين بالشام زمن التابعين : « أبو إدريس الخولاني ، وشرحبيل بن السمط ، وعبد الله بن أبي زكريا الخزاعي ، وقبيصة ابن ذؤيب الخزاعي ، وحبان بن أمية ، وسليمان بن حبيب المحاربي ، والحارث ابن عمير الزبيدي ، وخالد بن معدان ، وعبد الرحمن بن غنم الأشعري وجبير ابن نفير ... ثم كان بعدهم : عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، ومكحول وعمر ابن عبد العزيز ، ورجاء بن حيوة ، وعبد الملك بن مروان – قبل ولايته – وحدير بن كريب »[3] .

ومن القضاة عبد الله بن عامر المقرىء ، وعطية بن قيس ، ويحيى بن قيس ابن حارثة ، ويحيى بن يحيى ، وبلال بن أبي الدرداء وزرعة بن أيوب »[4] .

عمر بن عبد العزيز :

وسنبدأ بالكلام على عمر بن عبد العزيز الذي كان أعظم الفقهاء بالشام في

---

(١) الأم جـ ٧ ص ٤٢١ .
(٢) طبقات الفقهاء ص ٧٤ – ٧٥ .
(٣) اعلام الموقعين جـ ١ ص ٢٦ .
(٤) انظر اخبار القضاة الجزء الثالث .

هذه الفترة ، وقد كان لآرائه وفتاويه نتائج هامة في مجرى السياسة والحياة العامة ، حتى أن ميمون بن مهران قال عنه : « كان العلماء عنده تلامذة »(١) وكان لا يرى الرأي إلا إذا لم يجد حكماً في الكتاب أو السنة ، فقد كتب إلى عماله : « إنه لا رأي لأحد مع سنة سنها رسول الله ﷺ »(٢) وقد بين مذهبه في الحكم حين ولي الخلافة فقال : « أيها الناس : إنه لا كتاب بعد القرآن ولا شيء بعد محمد ﷺ ألا وإني لست بقاض ولكني منفذ ألا وإني لست بمبتدع ولكني متبع »(٣) ، وكان من رأيه أنه إذا لم يوجد الحكم في كتاب الله ولا في سنة رسوله فإن من واجب الإمام وحده أن يرى ما فيه صالح الأمة من الأحكام وعلى من دونه الرجوع إليه في ذلك والقبول بحكمه ، وهذا في الامور التي تستجد على الأمة فقال : « وأما ما حدث من الامور التي تبتلى الأئمة بها مما لم يحكه القرآن ولا سنة النبي ﷺ فإن والي أمر المسلمين وإمام عامتهم ، لا يقدم فيها بين يديه ، ولا يقضى فيها دونه ، وعلى من دونه رفع ذلك إليه والتسليم لما قضى »(٤) . ولم يكن يتبع الرأي إذا وجد حكماً لأحد الخلفاء الراشدين فعندما سئل عن السر في عدم أخذ الجزية من نصارى العرب قال : « إنني متبع وليس بمبتدع ، إن عمر بن الخطاب رأى في ذلك صلاحاً »(٥) ، وقد كان بعث إلى سالم بن عبد الله بن عمر أن يكتب إليه بسيرة جده عمر بن الخطاب حتى يسترشد بها ، مما يدل على أنه يتبع سيرة الخلفاء الراشدين وآراءهم — فكتب إليه سالم : « إن عمر كان في غير زمانك ورجالك فإن قدرت أن تعمل

---

(١) طبقات الفقهاء ص ٦٤ .

(٢) ملخص ابن حزم ص ٦٤ — وجامع بيان جـ ٢ ص ٣٤ .

(٣) تاريخ دمشق م جـ ١٣ ص ١٤١ .

(٤) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٧٤ . (المطبعة الرحمانيــة . مصر) ١٩٢٧ م .

(٥) إنساب الاشراف م جـ ٢ ص ٧٣ .

في زمانك عمل عمر كنت أفضل منه » [1] ، وقد كان عمر يغضب حين يرى والياً يتصرف برأيه مخالفاً السنة ، حتى وإن كان هـذا الوالي يتشدد في تطبيق العقوبة على مرتكبي الكبائر ، فعن ميمون بن مهران قال : « دخلت على عمر وهو متغيظ على عبد الحميد فقلت : ما له يا أمير المؤمنين قال : بلغني أنه قال لا أظفر بشاهد زور إلا قطعت لسانه » [2] . وإذا كان عمر متشدداً مـع الولاة فإنما في الأحكام التي يخرجون فيها عن الكتاب والسنة أو أقوال أو أحكام الصحابة ، وأما عدا ذلك فإنه كان يشجع الولاة لأن يحكموا بآرائهم إذا لم يوجد حكم سابق حتى أنه كان لا يحب أن يراجعوه في كل صغيرة من الامور ، أمـا الامور الكبيرة فإنها من واجب الإمام كما بيَّنا ، فقد كتب عامله على اليمـن يسأله عن شيء من أمر القضاء فكتب إليه عمر : « لعمري ما أنا بالنشيط على الفتيا ما وجدت منها بداً ، وما جعلتك إلا لتكفيني ، وقد حملتك ذلك فاقض فيه برأيك » [3] .

ومع اتباع عمر للقرآن والسنة في أحكامه فإن مجال الإجتهـاد في الآية أو الحديث يبقى وارداً ، إذ أن الفقهاء يختلفون أحياناً في الحكم المستنبط من آية أو آيات متعددة كما بيّنا ذلك زمن الصحابة ، وهذا ما كان يحدث مع التابعين ، فكان عمر بن عبد العزيز يرى في تفسير حديث غير ما يراه عامله مثلاً ، كالصدقة التي جمعت من الري وبعث عاملها بعضاً منها إلى الكوفة فإن عمـر لم ير ذلك صحيحاً ، وكان من اجتهاده أن ترد إلى الري وتوزع على الفقراء هناك وذلك اتباعـاً لقول الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل : « ان الله قد فرض عليكم صدقة أموالكم ، توخذ من أغنيائكم فترد في فقرائكم » [4] ، فعامل عمر على الري فهم

---

(١) انساب الاشراف م جـ ٢ ص ٧٥ .

(٢) نفسه جـ ٢ ص ٧٣ .

(٣) جامع بيان جـ ٢ ص ٦٠ واعلام الموقعين جـ ١ ص ٦٥ .

(٤) الاموال ص ٥٩٥ .

من الحديث أنه يعني فقراء المسلمين عامة ، أما عمر فكان رأيه فقراء البلد الإسلامي الذي تجمع منه الصدقة . ومن جهة أخرى فقد يحكم المجتهد برأيه ظناً منه بعدم ورود حكم سابق ، أو حديث نبوي ، أو آية في الموضوع أو المسألة التي يحكم بها ، وقد حدث هذا مع عمر بن عبد العزيز ، فقد كان يحكم أحياناً برأيه مع وجود أحاديث للنبي بخلاف ذلك ، لأنها لم تصل إليه،فلما علم بها غيّر حكمه السابق بحكم جديد يتمشى مع السنة ، فقد كتب لعامل له في نصراني أسلم ثم ارتد : « اضرب عليه الجزية ثم خلّ عنه — كان رحمه الله لم يبلغه قوله ﷺ من بدّل دينه فاقتلوه »[١] ، وكتب إلى عامله : « كتبت تسأل عن العبد يقفو بقذف الحر ، وذكرت أنه بلغك أني كنت أضربه في عملي على المدينة أربعين جلدة ، ثم جلدت في آخر عملي ثمانين ، وإن جلدي الأول كان رأياً رأيته ، وإن جلدي الآخر وافق ما في كتاب الله لأن الله يقول : (والذين يرمون المحصّنات ثم يأتون بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة) ولم يسم فيها حراً ولا مملوكاً »[٢] . ومن الأمور التي خالف بها عمر السنة دون علمه عدم أخذ الصدقة من العسل فقد كتب : « لا تأخذ من الخيل ولا من العسل صدقة »[٣] ، بينما روي عن الرسول وجوب الصدقة في العسل : « قال سيارة المتعي لرسول الله ﷺ : يا رسول الله إن لي نحلاً ، قال ، أدّ زكاتها ، قلت : أحم لي جبلها ، فحماه لي »[٤] . وكان عمر لا يرى في اختلاف الأئمة المجتهدين أي عيب بل هو تيسير للأمة للقيام بأمور حياتها ، لذا فقد استحسن اختلاف الصحابة فقال : « ما أحب أن اصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا لأنه لو كانوا قولاً واحداً كان الناس في ضيق ، وإنهم أئمة يقتدى بهم فلو أخذ رجل بقول

---

(١) انساب الاشراف م جـ ٢ ص ٧٩ .
(٢) نفسه جـ ٢ ص ٧٣ .
(٣) الاموال ص ٤٩٩ .
(٤) طبقات ابن سعد جـ ٧ ص ٤١٨ .

أحدهم كان في سعة »[1] .

ولعمر بن عبد العزيز أحكام هامة منها معاملة المساجين وحال السجون فانه أمر بتوفير العناية الكاملة بهم فبعث إلى عماله : « لا تدعن في سجونكم أحداً من المسلمين في وثاق لا يستطيع أن يصلي قائماً ولا تبيتن في قيد إلا رجلاً مطلوباً بدم ، واجروا عليهم من الصدقة ما يصلحهم في طعامهم وأدمهم ، والسلام»[2] فقوله يصلحهم دليل على عنايته بهم وإن السجن ما هو إلا لإصلاح أحوالهم حتى لا يعودوا للذنوب . ومن أحكامه أيضاً تلك التي أمر بها بتسليف المزارعين من أهل الذمة ما يتقوون به على أعمالهم فقد كتب لعامله : «أنظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه ، فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين »[3] . وكان عمر لا يطبق الحدود إذا كان هناك من شبهة تدرأها « فقد أُتي إليه بسارق فشكا إليه بحاجة فعذره وأمر له بنحو عشرة دراهم ».[4]

ومن الامور التي اجتهد فيها عمر برأيه لأنها لم تكن موجودة زكاة السمك ، فقد بعث إلى عامله على عمان : «أن لا يأخذ من السمك شيئاً حتى يبلغ مائتي درهم ، قال عبد الرحمن بن مهدي ولا أعلمه إلا قال : فإذا بلغ مائتي درهم فخذ منه الزكاة »[5] ، وكذلك زكاة المعادن إذ قال : « خذ من المعادن الصدقة ولا تأخذ منهـا الخمس »[6] ، ومن إجتهاده في القرآن تفسيره لـ (الغارمين) في أقسام الصدقات ، فقد اختلف الفقهاء زمنه فيمن هم الغارمون ، وهل أن من يملك بيتاً وفرساً وخادماً يعتبر غارماً ، فكان من رأي عمر : « أنه لا بد للمرء

---

(١) جامع بيان جـ ٢ ص ٨٠ .
(٢) الخراج ص ١٥٠ .
(٣) الأموال ص ٢٥١ .
(٤) سيرة ابن الجوزي ص ٧٩ .
(٥) الأموال ص ٣٤٧ .
(٦) نفسه ص ٣٣٩ .

المسلم من مسكن يسكنه ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، ومن أن يكون له الاثاث في بيته . فاقضوا عنه فإنه غارم »[١] .

ومن أهم اعماله التي أبانت فضله إسقاط الجزية عمن أسلم ،بعد أن كان الحجاج قد أبقاها على أهل الذمة بعد إسلامهم ، وقال عمر كلمته المشهورة : « إن الله جل ثناؤه بعث محمداً ﷺ داعياً إلى الإسلام ، ولم يبعثه جابياً ، فمن أسلم من أهل تلك الملل فعليه،في ماله الصدقة ولا جزية عليه »[٢] .

ومن آراء عمر : « من غلب الماء على شيء فهو له ، يريد إذا أزال قوم الماء عن أرض سبخة فهي لهم »[٣] ، وعن سليمان بن داود الخولاني : « أن عمر بن عبد العزيز كان يقضي في الرجل إذا أخذ الأرض فعمرها وأصلحها ثم جاء صاحبها يطلبها أنه يقول لصاحب الأرض : إدفع ما أصلح فيها ، فإنما عمل لك فإن قال : لا أقدر على ذلك ، قال للآخر : إدفع إليه ثمن أرضه »[٤] .

وقد كانت أحكام عمر قبل توليه الخلافة ليست كما هي حال توليه الخلافة ، فإن ولايته المدينة كانت مرحلة من مراحل حياته الفقهية ، وقد خالف في أثناء خلافته كثيراً من الأحكام التي كان يعملها في أثناء ولايته ، فقد عرفنا أنه أثناء خلافته كان يؤيد اختلاف الصحابة في الأحكام ولا يرى ذلك عيباً ، بينما نراه في المدينة يعاقب على رفع اليدين في أثناء الصلاة فقد « ضرب ابن طاوس على عدم رفع يديه في الصلاة »[٥] ، وقد اختلف الصحابة في رفع اليدين وعدمه في أثناء الصلاة ، وقد غضب عمر وهو خليفة على عبد الله بن

---

(١) نفسه ص ٥٥٦ .
(٢) الخراج ص ١٣١ .
(٣) الأموال ص ٢٨٤ .
(٤) نفسه ص ٢٨٩ .
(٥) طبقات القراء جـ ١ ص ٤٢٥ .

عامر المقرىء لأنه ضرب عطية بن قيس على رفع يديــه في الصلاة ، كما ذكرنا ذلك ، فهو هنا يظهر امتعاضه من إكراه أحد على اتباع مذهب محدد يجمع عليه في العبادات وترك السنة تسير كما رويت عـن الصحابة وخصوصاً في النواحي الشكلية ، وهذا يدل على ان عمر كان ناضج الفقه حين تولى الخلافة ، وانــه يغير آراءه الفقهية كلما وجد أن ذلك هو الأصلح وهو الحق ، كما ضرب ثمانين بدل أربعين التي ضربها في القاذف .

وللقياس مكان في اجتهاد عمر ، ومن قياسه تحليل التجارة في البحر ، قاس ذلك على تحليل التجارة في البر قال : « وأما البحر فإنا نرى سبيله سبيل البر . . ثم اعتمد الآية (الله الذي سخـّر لكم البحرَ لتجري الفلكُ فيه بأمرهِ ولتبتَغوا من فضلِهِ) »(١) ، ومن قياسه معاملة الجواميس معاملة البقر في الزكاة : عـن الزهري أن عمر بن عبد العزيز كتب : « تؤخذ صدقة الجواميس كما تؤخذ صدقة البقر »(٢) ، وقوله : « يؤخذ من القطاني على نحو ممـا يؤخذ من القمح والشعير »(٣) . وأحياناً يقيس على حادثة وقعت زمن النبي ، كما حكم بالفرق بين الكبير والصغير على رواية عبد الله بن عمر حين عرضــه الرسول للقتال في أحـد وسنّه أربع عشرة سَنة فرده ، ثم في الخندق بعدها بسنة فأجازه ، فاستدل عمر الفرق بين الصغير والكبير فكتب إلى عماله قياساً على ذلكَ : « من بلـغ خمس عشرة سنة فافرضوا له في المقاتلة ، ومن كان دون ذلك فافرضوا له في الذرية »(٤) .

وله آراء هامــة في القضاء وشروط القاضي ، فكان يقول : « إذا كان في القاضي خمس خصال فقد كمل : علم بما كان قبله ، ونزاهة عن الطمع ، وحلم على

---

(١) سيرة ابن عبد الحكم ص ٩٨ — ٩٩ .
(٢) الأموال ص ٣٨٥ .
(٣) نفسه ص ٤٦٢ .
(٤) الخراج ص ١٧٥ .

الخصم ، واقتداء بالأئمة ، ومشاورة أهل العلم والرأي »[1] ، وكان يشدد على الشورى في القضاء لما له من أهمية تفوق النواحي الأخرى ، لما ينتج عنه من أحكام ملزمة ، فهو لا يكتفي في القضاء باتباع الكتاب والسنة وأئمة الهدى من الخلفاء الراشدين ، بل يضيف إلى ذلك مشاورة ذوي العلم والرأي ، حتى لا يجتهد القاضي رأياً يكون مخالفاً للواقع وحتى يطلع على الآراء السديدة فيأخذ ما يراه صالحاً ، فقال في ذلك : « القضاء إتباع ما في كتاب الله ثم القضاء بسنة رسول الله ثم بحكم أئمة الهدى ، ثم إستشارة ذوي العلم والرأي »[2] ، وفي رأيه أن القضاء يتسع كلما اتسع الفجور بين الناس فقال : « يحدث للناس من الأقضية بقدر ما يحدث من الفجور »[3] .

ومن أحكامه القضائية أنه كان لا يجيز الوكالة في الدعوى ، فقد تخاصم نصراني مع هشام بن عبد الملك إلى عمر ، فقال عمر لهشام : « قم مع خصمك قال بل أوكل وكيلاً بخصومته ، قال لا ، فجلس بين يديه »[4] .

وهذا الفقه الذي تميز به عمر بن عبد العزيز كان مقدمة لظهور المذاهب الإسلامية خصوصاً مذهب الأوزاعي في الشام ، إذ أننا نرى كثيراً من آراء الأوزاعي مستمدة من آراء عمر بن عبد العزيز . وتعتبر فترة حكمه على قصرها — من سنة ٩٩ — ١٠١ هـ ، فترة ازدهار للفقه الإسلامي في الشام خاصة وفي غيرها من الأقطار الإسلامية عامة .

فقه الزهري :

ومن التابعين الشاميين الذين كانوا مقربين من عمر ، الزهري ، فقد عاصره في

---

(١) العقد الفريد جـ ١ ص ٨٤ .
(٢) جامع بيان جـ ٢ ص ٢٤ .
(٣) ابن عرنوس ، تاريخ القضاء في الاسلام ص ٣٩ ، (المطبعة المصرية الأهلية، القاهرة) لا ت .
(٤) أنساب الاشراف جـ ٢ ص ٧٦ .

المدينة عندما كان عاملها ، وكان عمر يقول عن الزهري : « لا أعلم أحداً أعلم بسُنة ماضية منه » [1] ونلمح مدى تأثر الفقهيين من أقوالها الفقهية فالزهري يماثل عمر في رأيه في السنـة والرأي فيقول: «دعوا السنة تمضي لا تعرضوا لها بالرأي» [2] فهذا هو نفس قول عمر الذي أوردناه وهو : « أنه لا رأي لأحد مع سنة سنها رسول الله » . وكان الزهري يرى أن الفقه أحسن العبادات ويقول : « ما عبد الله بمثل الفقه » [3] . ومن أسباب كره الرأي عند الزهري خشية الاختلاف بين الأمة ، إذ أن كثرة الآراء ستؤدي إلى كثرة الخلاف ، كما حدث مع اليهود ومع النصارى فقال : « أن اليهود والنصارى إنما انسلخوا من العلم الذي كان بأيديهم حين اشتقوا الرأي وأخذوا فيه » [4] . والزهري مثل عمر يرى الرأي في الامور التي لم ترد في الكتاب أو السنة أو أحكام الأئمة السابقين ، فمن أقواله : « من اعترف مراراً كثيرة بسرقـة أو حد ثم أنكر لم يجب عليـه شيء » [5] ، ورأيه في الزكاة في صدقة الإبل : « إنها إذا زادت على عشرين ومائة كانت فيها ثلاث بنات لبون » [6] . وقد ذكر عن الرسول قوله في صدقة الإبـل : « وإن في الإبل الأربعين إبنـة لبون » [7] ، وقـد سئل الزهري عن « مال المجنون هل فيه زكاة ؟ قال : نعم » [8]. ومن فتاويه : « أنه إن اضطر المصلون

---

(١) طبقات الفقهاء ص ٦٤ .

(٢) ملخص أبطال القياس ص ٦٥ .

(٣) جامع بيان جـ ١ ص ٢٤ .

(٤) اعلام الموقعين جـ ١ ص ٧٨ .

(٥) الخراج ص ١٧٠ .

(٦) الأموال ص ٣٦٤ .

(٧) ابن هشام ، تهذيب سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٩٨ ، تحقيق عبـد السلام هارون (طبع ونشر دار سعد بمصر) ١٩٥٥م .

(٨) الأموال ص ٣٥٣ .

الى الغلام فإنه يؤمهم »[1] ، وبعض أخبار الزهري يشك فيها وربما أنهـا نسبت إليه كذباً ، فمن ذلك جوابه عمن سأل : « لماذا أخـذ عمر بن الخطاب العشر من أهل الذمـة في الإسلام ، فقال : إن ذلك كان يؤخذ منهم في الجاهلية فأقرهم عمر على ذلك »[2] ، ولم يكن الزهري يجامل أحداً من الخلفاء في فتاواه « فقد دخل على الوليد بن عبد الملك ، فقال له : ما حديث يحدثنا به أهل الشام : يحدثوننا أن الله إذا استرعى عبداً رعيته كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات : قال : باطل يا أمير المؤمنين . أنبي خليفة أكرم على الله أم خليفة غير نبي ؟ قال : بل نبي خليفة . قال : فإن الله تعالى يقول لنبيـه داود: (يا داودُ إنا جعلناك خليفةً في الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ ولا تتَّبع الهوى فيُضِلَّكَ عن سبيل الله إن الذين يضِلُّون عن سبيل الله لهم عـذابٌ شديدٌ بما نسُوا يومَ الحساب) ، فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبي خليفة ، فما ظنك بخليفة غير نبي . قال : إن الناس ليغووننا عن ديننا »[3] وكان لا يتوانى في تكذيب الخلفاء الأمويين إذا لمح خطأ في أقوالهم ، وقصة خلافه مع سليمان ابن عبد الملك — وقيل أنه هشام بن عبد الملك — حين زعم أن الآية (والذي تولَّى كِبْره منهم) نزلت في عليّ بن أبي طالب ، فعارضه الزهري مبيناً إنها نزلت في عبد الله بن أبي »[4] .

مكحول والفقه :

وكان مكحول من التابعين ، من أبرز فقهاء الشام في زمنه قال عنه ابن القيم « إنه فقيه أهل الشام بعد موت العبادلة »[5] ، وكانت له مؤلفات في الفقه ،

(١) تفسير القرطبي جـ ١ ص ٣٤٣ .
(٢) الأموال ص ٥٣٥ .
(٣) العقد الفريد جـ ١ ص ٦٠ .
(٤) انظر تاريخ الاسلام جـ ٥ ص ١٤٩ .
(٥) أعلام الموقعين ح ١ ص ٢٢ .

وهي المؤلفات الوحيدة زمن التابعين في الشام في الفقه ، وقد ذكر ابن النديم كتابين له هما : كتاب السنن في الفقه ، وكتاب المسائل في الفقه »[1] . ويبدو ان لتنقله في الأقطار الإسلامية أثراً على فقهه حيث زار مصر ومكة وأخذ عن العلماء في كل منها قبل أن يرحل إلى الشام ويستقر بها وهذا ما جعله يؤلف كتابين في الفقه . وآراؤه الفقهية كآراء غيره من التابعين الشاميين ، والملاحظ انه ينقل الفتاوى عن غيره كعبد الله بن عباس وأحياناً يتكلم برأيه : فمن الأول قوله : « لا يقسم لأكثر من فرسين وأما الخمس الذي يخرج من الغنيمة فإن محمد ابن السائب الكلبي حدثني عن أبي صالح عن عبدالله بن عباس ان الخمس كان على عهد رسول الله ﷺ على خمسة أسهم : لله وللرسول سهم ، ولذي القربى سهم ، ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم ، ثم قسّمه أبو بكر وعمر وعثمان على ثلاثة أسهم ، وأسقط سهم الرسول وسهم ذوي القربى ، وقسم على الثلاثة الباقي »[2] .

ومن آرائه عدم أخذ الزكاة من المدين فقال : « لا تؤخذ منه الزكاة حتى يقضي دينه ، وما فضل بعد ذلك زكاه ، إذ كان مما تجب فيه الزكاة »[3] ، ومن فتاويه في شؤون الحرب قوله : « إذا أنزل المسلمون على حصن فالتمس العدو مصالحة المسلمين على أهل ابيات منهم يعطونهم أماناً لم يصلح ذلك حتى يبعث أمير الجيوش رجلاً ، فيدخل الحصن ويجمع أهله ويعلمهم ذلك ، فإن رضوا بذلك استنزلوهم وإلا أقروا في حصنهم ولم يصالحوا »[4] .

وكان لمكحول طريقة في الإفتاء حين يبدأ بالفتيا ، قال أبو حاتم : « ما أعلم افقه من مكحول ولم يكن في زمنه أبصر بالفتيا منه ، ولا يفتي حتى يقول:

---

(١) الفهرست ص ٣١٨ .

(٢) الخراج ص ٦ .

(٣) الأموال ص ٥٠٩ .

(٤) الأموال ص ١٧٧ .

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ويقول : هـــذا رأيي والرأي يخطىء ويصيب »[1] ، وقد بيّنا ان مكحولاً كان يفتي مجتهداً برأيـــه قايساً على الأصول كما قال القرطبي وذكر معه سليمان بن موسى ويزيد بن جابر والأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز . وكان مكحول على سعة علمه وفقهه يكره تولي منصب القضاء ، « ويفضل ان تضرب عنقه على تولي القضاء »[2] .

وقد فضل مكحول على الزهري في الفقه ، فقال سعيد بن عبد العزيز : « كان مكحول أفقه من الزهري وكان بريئاً من القدر »[3] ، وقـــد كانت علاقة مكحول بعمر بن عبد العزيز غير حسنة بدليل أن عمر لم يستشره في أي أمر فقهي أو مسألة ، وأعتقد أن ذلك كان راجعاً لأحاديث رواها مكحول في الديات فقد كتب عمر إلى الاقطار : « انظروا إلى الأحاديث التي رواهـــا مكحول في الديات احرقوها ، فأحرقت »[4] .

وكان من أصحاب مكحول سليمان بن موسى، وكان أعلم أصحاب مكحول قال عنه أبو حاتم : « لا أعلم أحداً من أصحاب مكحول أفقه منه »[5] ، ومن الملاحظ ان الموالي ومنهم مكحول قد بـدوأ يتسلمون زمام الفقه منذ بداية القرن الثاني الهجري ، بعد أن كان ذلك وقفاً على العرب زمن الصحابة ، وقد كان الفقه من الابواب التي طرقها الموالي المسلمون وأبدعوا فيها زمن تابعي التابعين كأبي حنيفة ، إلا أنهم كانوا في أول الأمر لا يتولون منصب القضاء ، ثم تولوا هذا المنصب .

---

(١) شذرات الذهب جـ ١ ص ١٤٦ .
(٢) اخبار القضاة جـ ١ ص ٢٤ .
(٣) شذرات الذهب جـ ١ ص ٢٩٢ .
(٤) تاريخ الاسلام جـ ٥ ص ٥ .
(٥) تهذيب التهذيب جـ ٤ ص ٢٢٦ .

تخصص بعض التابعين بالقضاء :

وقد تخصص عدد من التابعين بالقضاء منهم بالشام يزيد بن أبي مالك قال عنه سعيد بن عبد العزيز : « لم يكن عندنا أعلم بالقضاء من يزيد بن أبي مالك توفي سنة ١٣٠ هـ » [١]، ومنهم سليمان بن حبيب قال عنه كلثوم بن زياد المحاربي ـ وكان يلقبه قاضي الخلفاء ـ : « أقام قاضي الخلفاء ـ سليمان بن حبيب ـ بالشام ثلاثين سنة يقضي باليمين مع الشاهد » [٢] وتوفي سليمان سنة ١٢٠ هـ .

ومنهم عبد الله بن موهب الشامي قاضي فلسطين زمن عمر بن عبد العزيز، وكان يقول عن صفات القاضي : « ثلاث إذا لم تكن في القاضي فليس بقاض : يسأل وإن كان عالماً ، ولا يسمع من أحد دعوى إلا مع خصمه ، ولا يقضي إلا بعد أن يفهم » [٣] . ومن القضاة الخلفاء عبد الملك بن مروان ، وقد كان يستشير الفقهاء أحياناً في قضائه ، قال الزهري : « أرسل عبد الملك إلى حلقة قبيصة بن ذؤيب من منكم يحفظ قضاء عمر في أمهات الأولاد فقلت أنا فأدخلت عليه » [٤] فسأله مسائل . ومن قضاء عبد الملك أنه حكم على رجل اتهم بالقتل بأن يُقتل ، فأتى إليه رجل آخر وقال له : « إن هذا والله ما هو القاتل ولكني أنا القاتل ولا والله لا اقتل رجلين ، فقال عبد الملك : بلغني أن رسول الله ﷺ قال : من أجبأ نفساً بنفسه فلا قود عليه فخلي سبيله » [٥] .

ومن القضاة بالشام أو الفقهاء الذين كانوا يستشارون في امور الدولة والأحكام رجاء بن حيوة ، وقد لعب دوراً في تولي عمر بن عبد العزيز الخلافة ، كما كان يستعان به في القضاء عند الخلفاء ، من ذلك أن امرأة باعت طستاً ظنته

---

(١) تاريخ الاسلام جـ ٥ ص ١٨٧ .
(٢) تهذيب ابن عساكر جـ ٦ ص ٢٤٧ .
(٣) تاريخ الاسلام جـ ٤ ص ١٣٩ .
(٤) نفسه جـ ٥ ص ١٣٧ .
(٥) تاريخ دمشق جـ ١٠ ص ٢٥٥ .

فضة وكان ذهباً ، فردّه المشتري إليها لأنه ذهب وهو اشترى فضة فأبت قبوله وأبى المشتري أخذه فتحا كما إلى الوليد بن عبد الملك فأحضر رجاء بن حيوة وقال : انظر ما بينهما فقال : « يا أمير المؤمنين ، إعطها ثمنه واطرحه في بيت مال المسلمين »[1] .

هذا ما كان من أمر الفقه زمن التابعين في الشام ، وكان الفقه كما رأينا في هذه الفترة يتمثل في المفتين والمجتهدين والقضاة ، وقد بدأ التفريق بين كلمة فقيه وكلمة عالم ، ولكن لفظة فقه تحددت زمن تابعي التابعين ،حيث بدأ الفقه يأخذ معنى جديداً وهو استنباط الأحكام أو الطريقة التي يتبعها الفقيه في إصدار أحكامه وفتاويه ، لذا رأينا المدارس الفقهية تنشأ في الشام والعراق والمدينة ، فكانت مدرسة المدينة هي مدرسة الحديث ، أما العراق فكانت تعتمد الرأي والقياس ، وقد اتخذت مدرسة الشام وفقيهها الأوزاعي ثم سعيد بن عبد العزيز بعده طريقاً ومذهباً وسطاً بين المذهبين ، فأخذت من الحديث واعتمدت عليه ، كما لم تهمل الرأي بل أخذته واعتمدت عليه في الأمور التي لا يوجد فيها حكم سابق ، وهذا ما يظهر من فتاوى الأوزاعي ، كما سنبيّن، وكما ظهر من قبله فقهاء شاميون أثروا في تكوين هذه المدرسة الشامية أمثال عمر بن عبد العزيز والزهري ومكحول .

الفقه زمن تابعي التابعين :

وكان أشهر تابعي التابعين من الفقهاء « الأوزاعي ، ثم أتى بعده من الشاميين سعيد بن عبد العزيز ت ١٦٦هـ، ويزيد وعبد الرحمن إبنا يزيد بن جابر، ومحمد بن الوليد الزبيدي ت ١٤٨ هـ ، ويحيى بن يحيى الغساني ت ١٥٣ هـ »[2]. وعدّد ابن القيم من المفتين الشاميين في هذه الفترة : « يحيى بن حمزة القاضي، والأوزاعي ،

---

(١) تاريخ دمشق ج ١ ص ٣١٩ .
(٢) طبقات الفقهاء ص ٧٦ — ٧٧ .

واسماعيل بن أبي المهاجر ، وسليان بن موسى الأموي ، وسعيد بن عبد العزيز ، ومخلد بن الحسين ، والوليد بن مسلم ، والعباس بن يزيد صاحب الأوزاعي ، وشعيب بن اسحق صاحب ابي حنيفة ،وابا اسحق الفزاري صاحب ابن المبارك »[1].
ونلمح من تعداد اسماء المفتين أن هناك اتصالاً بين فقهــاء الأقطار الإسلامية ، فشعيب بن اسحق من اصحاب ابي حنيفة ينزل الشام ويقيم فيـه ، ولا شك أنه حمل معه آراء ابي حنيفة فتأثر بها الشاميون سلباً أو إيجاباً ، اي بالرد عليهــا ومناقشة هذه الآراء ، مما جعل حركة فقهية واسعة تقوم في هذه الفترة ، وتنشأ الكتب الفقهية تبين وجهة نظر كل فقيه ، كما ألـّف ابو يوسف كتابه (الرد على سير الأوزاعي) والرد الشافعي في كتابه الأم فصلاً في آراء الأوزاعي واختلافه مع غيره من الفقهاء . وقد ألـّف الطبري بعد ذلك كتابه (اختلاف الفقهاء) بيـّن فيه آراء الأوزاعي وغيره واختلافهم في مسائل فقهية . وهذا كله يؤيد وجهة النظر القائلة أن الفقه أصبح يتسم بسمات جديدة ولم يعـد مجرد الفهم والدراية للقرآن والسنـّة ، وقد قال ابن حزم في ذلك :«وبهذا بدأ انفصال علم التشريـع أو الفقه باعتبار أن له كياناً مستقلاً عن مجرد الفهم والدراية للقرآن والسنـّة »[2].
ويبيـّن ابن خلدون انقسام الفقه إلى طريقتين ، ولكنه يغفل كغـيره مدرسة الشام وأثرها في الفقه ، ويذكر اهل العراق واهل الحجاز فيقول عن مرحلة تابعي التابعين أن الطريقتين هما : «طريقة أهل الرأي والقياس وهم اهـل العراق ، وطريقة اهل الحديث وهم اهل الحجاز »[3].

ولما كان الأوزاعي أبرز الفقهاء الذين ظهروا بالشام فإن من الضروري إفراد القول فيه . كان الأوزاعي يرى إتباع السلف فـكان يقول : « عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس ،وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوا لك القول »[4] .

---

(١) اعلام الموقعين ج١ ص ٢٦ — ٢٧ .
(٢) ملخص ابطال القياس ص ١٢ .
(٣) تاريخ ابن خلدون ج ١ ص ٨٠٤ .
(٤) ملخص إبطال القياس ص ٦٥ .

وليس معنى ذلك انه لايرى الرأي ، بل إن له آراء كثيرة، ولكنه يقصد من ذلك عدم القول بالرأي إذا وجد حكم . وهذا ما أخـذه على ابي حنيفة فقد قال عنه : « انا لا ننقم على أبي حنيفة أنه رأى ، كلنا يرى ، ولكننا ننقم عليه أنه يجيئه الحديث عن النبي ﷺ فيخالفه إلى غيره »[١] . فهذا ما جعله ينقم على أبي حنيفة الذي لم يعتد أيضاً بأقوال الصحابة بينما نرى الأوزاعي يعتد بها ويقول عنها : «العلم ما جاء عن أصحاب محمد ﷺ وما لم يجيء عن الصحابة فليس بعلم»[٢]. وكان بالإضافة إلى ذلك يأخذ بأقوال التـابعين ممن يثق بهم فـكان يقول مبيّناً أعمال الصحابة والتابعين ، مقتدياً بهم « خمسة كان عليها الصحابة والتابعون : لزوم الجماعة ، وإتباع السنّة ، وعمارة المساجد، والتلاوة والجهاد»[٣] .وكان من رأي الأوزاعي أن الفقه يجب أن يطلب للعبادة فقال : « ويل للمتفقهين لغير العبادة »[٤]. ومن الغريب أن الأوزاعي قد ذكر عنه انه استفتى وعمره ثلاث عشرة سنة ، وانه أجاب في سبعين ألف مسألة في حياته ، وربما كان ذلك للمبالغة فقط ، ولا شك انه قد أجاب على كثير من المسائل لكن تحديدها بعدد معين لايجوز ، فقد أورد الشيرازي وغيره أن الأوزاعي « سئل عن الفقه وله ثلاث عشرة سنة ، وقال عبدالرحمن بن مهدي : ما كان أحد بالشام اعلم بالسنّة من الأوزاعي ، وقال الهقل بن زياد : أجاب الأوزاعي على سبعين ألف مسألة»[٥]. ومع أن الهقل كان كاتب الأوزاعي وعارفاً بفتياه إلا أن ذلك لا يمنع مبالغته ، وقد قيل عن الهقل : « كان أعلم الناس بفتيا الأوزاعي »[٦]. وكان الأوزاعي إذا سئل عن مسألة فيها حكم بآية أو بحديث أو قول صحابي أو تابعي جاء به ،

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٥٢ .
(٢) تاريخ الاسلام جـ ٦ ص ٣٣١ .
(٣) تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ١٦٢ .
(٤) نفس المصدر والصفحة .
(٥) طبقات الفقهاء ص ٧٦ .
(٦) شذرات الذهب جـ ١ ص ٢٩٢ .

يبين ذلك قوله : «أصبر نفسك على السنّة وقف حيث وقف القوم ، وقل بما قالوا ، وكف عما كفوا ، واسلك سبيل سلفك الصالح فإنه يسعك ما وسعهم»[1].

ومن أصحاب أبي حنيفة الذين اتصلوا بالأوزاعي محمد بن الأحسن قال عنه ابن النديم : «محمد بن الأحسن من أصحاب أبي حنيفة طلب الحديث من الأوزاعي»[2]. وهذا يجعل الأوزاعي متصلاً بغيره من الفقهاء ، فلم يكن يخالفهم في كل مسألة ، بل هناك اتفـــاق بينه وبين بعضهم ، في كثير من المسائل الفقهية فقد اتفق مع سفيان الثوري مثلاً في أن الرسول أسهم للفرس سهمين ولصاحبـــه سهماً ، أما أبو حنيفة فقد خالفها في ذلك بأنه استعمل رأيه فأعطى للفارس سهماً ولفرسه سهماً ، ومن رأى أبي حنيفة أن لا يفضل الفرس على صاحبه المسلم، فردّ عليه بأن ذلك ليس وارداً إذ أنه لا يجوز أيضاً أن يساوى الفرس بصاحبه المسلم»[3]. فإننا نرى الأوزاعي هنا يأخذ عمل الرسول ويفتي به دونما استخدام للعقل أو الرأي ، أما أبو حنيفة فإنه يرى رأياً آخر مخالفاً لعمل النبي ﷺ .

وقد أخذ الأوزاعي عن التابعين ومنهم الزهري فقد سأله مرة :« عن رجل عليه رقبة أيجزى عنه الصبي أن يعتقه وهو رضيـع ، قال نعم : لأنه ولد على الفطرة يعني الإسلام فإنما أجزى عتقه عند من أجازه لأن حكمه حكم أبويه»[4].

ومن فتاوي الأوزاعي التي أخذها عن القرآن أنه سئل عن أحد من أهل الذمة يخبر أهل الحرب بعورة المسلمين ودل عليها أو آوى عيونهم فقال : « قد نقض عهده وخرج من ذمته إن شاء الوالي قتله وإن شاء صلبه كان مصالحاً لم يدخل في

---

(١) ابن الجوزي ، نقد العلم والعلماء ، أو تلبيس إبليس ص٩ ، تصحيح ونشر محمد منير الدمشقي (مطبعة السعادة بمصر) ١٣٤٠ هـ .

(٢) الفهرست ص ٢٨٧ .

(٣) أنظر الطبري ، اختلاف الفقهاء ص ٨٠ - ٨١ ، عني بنشره يوسف شخت ، (مطبعة ليدن) ١٩٣٣م . والأم ج٧ ص ٢٣٧ .

(٤) تفسير القرطبي ج١٤ ص ٢٨ .

ذمة المسلمين (فانبذ إليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين)[1] ولكننا نجد رأي أبي حنيفة مغايراً بذلك حيث قال : « ينبغي للامام أن يقتله ولا يستبقيه إلا أن يسلم فإن أسلم كفّ عنه »[2] .

ولو قارنّـا بين الأوزاعي ومالك بن أنس ، لوجدنا أن مالكاً أكثر تشدداً في الأخذ بحرفيات الحديث النبوي وتطبيقه ، بينما نرى الأوزاعي يأخذ الحديث ويطبقه بالصورة التي يراها مناسبة ، فهو يتبع الحديث والرأي في آن معاً ، ولنضرب مثالاً على ذلك في حكم قتل المرأة والغلام في الحرب ، فقد نهى النبي ﷺ في وصاياه عن قتل المرأة والغلام ، لذا نرى مالك : « ينهي عن قتل النساء والصبيان حتى ولو قاتلوا . أما الأوزاعي فقال : إذا قاتلت المرأة والغلام قتلا في القتال ، فإذا أسرا لم يقتلا . أما الثوري فقال : أما المرأة فتقتل إذا قاتلت . وأما الصبيان فيكره قتلهم »[3] . ومن هذه الأقوال تتبيّن أن الأوزاعي كان يحكم عقله حين يرجع إلى الحديث مما يكسب حكمه صفة منطقية عقلية ، ولو نظرنا إلى قول مالك لرأينا فيه شيئاً من اللامبالاة في الحكم ، إذ لا يعقل أن تقاتل المرأة والغلام في الحرب ولا يقتلان ، وإذا كانا ضعيفين لضعف القوة البدنية عندهما مما يمنعهما من استعمال السيوف فقد ثبت فيما بعد أن هناك أسلحة لا تحتاج إلى الناحية العضلية وتستطيع المرأة ويستطيع الغلام أن يقاتلا بها . وهذا مما يزيد في تأييدنا لحكم الأوزاعي وفتواه .

ويستخدم الأوزاعي الأحاديث مستخرجاً من معانيها فتاوى تكون قريبة من المعنى المقصود وهي قريبة من القياس فقد سئل مرة : « أتكره للمسلم أن يؤدي الجزية من خراج الأرض ، فقال بلغنا عن رسول الله ﷺ أن من أقر بذل طائعاً فليس منا . وكان عبد الله بن عمر يقول : هو المرتد على عقبيه . واجتمعت العامة من أهل العلم على الكراهية لها »[4] . وقد جمع الأوزاعي في هذا بين قول

---

(١) اختلاف الفقهاء ص ٥٨ — ٥٩ .

(٢) اختلاف الفقهاء ص ٥٩ .

(٣) نفسه ص ٩ .

(٤) نفسه ص ٢٢٥ .

الرسول ثم قول أحد الصحابة وهو عبد الله بن عمر ، ثم جماعة أهل العلم، وهم من الصحابة والتابعين ، وهذا يدل على أنه كان يأخذ بالإجماع ويعتبره مصدراً من مصادر فتاويه وفقهه .

وكان الأوزاعي إذا أفتى برأيه فإنه قد يغيره بعد ذلك ، بعكس ما إذا أفتى عن نص ، فمن ذلك : « أن رجلا سأله عن رأيه في الفلفل والتابل الذي يصاب من أرض العدو فقال هو من الطعام فلا يباع ، ثم سأله عنها بعد فقال يباع »[1] .

وكان يعطي للإمام صلاحيات واسعة في تطبيق الأحكام ؛ ففي أكثر من فتيا رد الحكم فيها إلى رأي الإمام -إذا لم يجد نصاً- مثال ذلك أنه سئل : « كيف ترى في النفر يخيفون أبناء السبيل قد تقلدوا السلاح ... قال عقوبتهم وتضمينهم الحبس إلى رأي الامام »[2].

وكانت أغلب فتاوى الأوزاعي رداً على أسئلة حدثت وقائعها أو من الممكن أن تقع في المستقبل . ويبدو أن بعض هذه الأسئلة غريبة غير محتملة الوقوع فقد سئل مرة : « حصن نزل به المسلمون فأشرف عليهم رجل منهم فأسلم ثم فتحوا الحصن فادعى كل رجل منهم أنه هو الذي اسلم وهم عشرة . قال : يسعى كل رجل منهم في قيمته إذا لم يعرف ويترك له عشر قيمته »[3] .

وقد اتفق الأوزاعي مع أصحاب المذاهب الاربعة في بعض المسائل كعدم جواز نكاح المجوسيات : « فمنع ذلك مالك والشافعي وأبو حنيفة والأوزاعي، وقال ابن حنبل لا يعجبني »[4] .

---

(١) اختلاف الفقهاء ص ٩٦ .
(٢) نفسه ص ٢٢٤ .
(٣) نفسه ص ٣٠ .
(٤) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٧٠ — ٧١ ،

ومن فتاويه : « للقاتل سلبه ، مضت بذلك السنة من رسول الله ﷺ إلا أنه لا ينفل أحد سلباً من بعد الفتح ، ولا يصلح للإمام أن يقول من أصاب شيئاً فهو له من بعد الخمس » [1] ، ومنها أنه « نهى عن رمي الكفار إذا تترسوا بأطفال المسلمين بينما لم ينه عن رميهم إذا تترسوا برجال أسارى من المسلمين » [2] ، وخالف الزهري في إمامة الصلاة فبينما أجازها الزهري إلا أن الاوزاعي إشترط لإمامته أن يبلغ الحلم فقال : « لا يؤم الغلام في الصلاة المكتوبة حتى يحتلم » [3] ، وهذا يدلنا على أن الاوزاعي كان لا يأخذ قول استاذه من التابعين بحرفيته بل يعدل به اذا رأى في ذلك صلاحاً وهذا الذي ميزه عن غيره من تابعي التابعين فصار له مذهباً يعرف به وهو مذهب الاوزاعي ، وقد كان يخالف بعض المذاهب في أشياء محددة أحياناً ومعروفة فمثلا وضع اليدين على بعضها في الصلاة كان يرى ذلك أهل الشام مقتدين بالأوزاعي بينما كان مذهب مالك بن أنس وأهل المدينة إرسال اليدين في الصلاة » [4] وكان أحياناً ينقد أهل قطر بأكمله مما يدل على أن الاقطار الإسلامية كانت في خلاف فقهي زمن تابعي التابعين ، وكان بعض هذه الأقطار يتهم دون غيره بأحكام وتشريعات تعتبر شاذة بالنسبة لغيرها فكان الاوزاعي ينتقد هذه الاقطار ومنها الحجاز والعراق فيقول : « يجتنب أو يترك من قول أهل العراق خمس ومن قول أهل الحجاز خمس : من قول أهل العراق شرب المسكر والأكل عند الفجر في رمضان ولا جمعه إلا في سبعة أمصار وتأخير صلاة العصر حتى يكون ظل كل شيء أربعة امثاله والفرار يوم الزحف ، ومن قول أهل الحجاز استماع الملاهي والجمع بين الصلاتين من غير عذر ، والمتعة بالنساء والدرهم بالدرهمين والدينار بالدينارين يداً بيد ...

---

(١) اختلاف الفقهاء ص ١١٨ .
(٢) نفسه ص ٤ ، ٥ .
(٣) تفسير القرطبي جـ ١ ص ٣٥٣ .
(٤) انظر تهذيب ابن عساكر جـ ٣ ص ٢٨٧ .

وإتيان النساء في ادبارهن »[1] ولربما كان هذا الحديث موضوعاً لتشويه سمعة هذين القطرين واهلها ، إذ أنه لم يعرف عن كل أهل العراق انهم كانوا يفعلون ما أشير به ولا كل أهل الحجاز كانوا يؤمنون بمثل ما اتهموا به من أشياء منكرة، وغالبيتهم يستنكرونها ، ونحن نعلم أن غالبية الصحابة والتابعين الشاميين كانوا أصلاً من الحجاز ونقلوا فقهم وعلمهم إلى أهل الشام فكيف نستطيع أن ننسب لأناس تهماً أخذنا العلم عن علمائهم ، ثم أن الأوزاعي لم يحدد عالماً أو فقيهاً محدداً حتى يتهمه بمثل هذه الأشياء ، وان إطلاق الحكم بصورة عامة أمر غير منطقي ولا يقبله العقل .

وكان الاوزاعي يستعمل في فتاويه بعض العبارات مثل قوله احياناً : « وبهذا مضت السنّة »[2] ، « ولا أرى بأساً »[3] ، « وهذا حلال وهذا حرام »، وقد انتقد أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة قول الأوزاعي في الفتيا هذا حلال وهذا حرام لأن ذلك في رأيه لا يجوز إلا لما يكون في كتاب الله واضحاً بلا تفسير وبذلك يقول : « ما أعظم قول الأوزاعي في قوله : هذا حلال من الله : أدركت مشائخنا من أهل العلم يكرهون في الفتيا أن يقولوا : هذا حلال وهذا حرام ، إلا ما كان في كتاب الله عز وجل بيّناً بلا تفسير »[4] ، ويدلنا ذلك على أن أبي حنيفة كان لا يقول : « هذا حلال وهذا حرام » في فتياه ، وذلك لأن غالبيتها يعتمد على الرأي ، أما الأوزاعي فاعتمد على الرأي قليلاً كما رأينا ، علماً بأن الإمام أحمد بن حنبل يضعف الرأي عند كل من الأوزاعي وأبي حنيفة ومالك : سأل ابراهيم بن اسحق الجربي أحمد بن حنبل قال : « ما تقول في مالك بن أنس ؟ قال : حديث صحيح ورأي ضعيف . قلت : فالأوزاعي ؟ قال : حديث ضعيف ورأي ضعيف . قلت : فأبو حنيفة ؟ قال لا رأي

(١) معرفة علوم الحديث ص ٦٥ .
(٢) الرد على سير الاوزاعي ص ٢٠ .
(٣) اختلاف الفقهاء ص ١٩٥ .
(٤) الرد على سير الاوزاعي ص ٧٢ .

ولا حــــديث ، قلت فالشافعي ؟ قال : حديث صحيح ورأي صحيح »[1] ، وكان العلماء في تلك الفترة كما عرفنا يفرقون بين السنة والحديث ، وان الإمام في السنّة هو فقيه إذ أن السنة تختص بالأحكام والتشريعات وما يتعلق بذلك من أمور كما بينا ذلك في كلامنا على الحديث ، لذا كان الأوزاعي إماماً في السنة وليس بإمام في الحديث وقد اوردنا قول عبد الرحمن بن مهدي : «سفيان الثوري إمام في الحديث وليس بإمام في السنة ، والأوزاعي إمام في السنة وليس بإمام في الحديث ، ومالك بن انس إمام فيهما جميعاً »[2] والذي يدل على أن الفقه غير الحديث في هذه الفترة ما أورده الذهبي من أن : « عبد الله بن وهب جمع بين الفقه والحديث »[3] ، وهذا يوضح تطور كلمة الفقه في زمن تابعي التابعين .

ومن المبادىء التي نراها في فتاوى الأوزاعي : « التقيّة » فقد أباح للمسلم الأسير إذا خاف على دمه أن يقاتل مع الأعداء عدواً آخر له ، وقــــد خالفه مالك في ذلك »[4] .

وكان الأوزاعي يرى التقليد بالإضافة إلى الكتاب والسنّة والإجماع والقياس فكان من قوله : « إن الاختلاف إذا تدافع فهو خطأ وصواب ، والواجب عند اختلاف العلماء طلب الدليل من الكتاب والسنة والإجماع والقياس على الاصول منها ، وذلك لا يعدم ، فإن استوت الأدلة وجب الميل مع الأشبه بما ذكرنا بالكتاب والسنة ، فإذا لم يبن ذلك وجب التوقف ولم يجز القطع إلا بيقين ، فإن اضطر أحد إلى استعمال شيء من ذلك في خاصة نفسه جاز له ما يجوز للعامة من التقليـــد واستعمل عند افراط التشابه والتشاكل وقيام الأدلة على كل قول »[5] . وقد

---

(١) تاريخ دمشق م جـ ١٠ ص ٤٣ .
(٢) تاريخ دمشق م جـ ١٠ ص ٤٢ .
(٣) تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٢٧٨ .
(٤) انظر اختلاف الفقهاء ص ١٩٤ .
(٥) جامع بيان جـ ٢ ص ٨٠ — ٨١ .

كره الأوزاعي تولي منصب القضاء « فقد ولي بعد موت الحارث بن محمد فجلس مجلساً ثم استعفى فأعفي »[1] ، وكان يؤمن بالعمل ويكره الجدل فيقول : « إذا أراد الله بقوم شراً فتح عليهم الجدل ومنعهم العمل »[2] ومن آرائه « لا يجتمع حب علي وعثمان إلا في قلب مؤمن »[3] .

وقد أورد الشافعي في كتابه الأم خمساً وثلاثين مسألة إختلف فيها الأوزاعي مع غيره من الفقهاء أو بعضهم ، وكلها تتعلق بشؤون الحرب وهي موجودة أيضاً في كتابي الرد على سير الأوزاعي واختلاف الفقهاء ، وقد كان يقيس في فتاويه على حوادث وقعت في غزوات الرسول فمثلاً إختلف مع أبي حنيفة في الرجل يكون معه اكثر من ترس هل يسهم لأفراسه فقال أبو حنيفة : « لا يسهم له إلا لواحد ... وقال الأوزاعي : يسهم للفرسين ولا يسهم لأكثر من ذلك وعلى ذلك أهل العلم وبه عملت الأئمة »[4] . وقال أبو حنيفة : « لا يسهم لصبي في الغنيمة ... وقال الأوزاعي : يسهم لهم ... وذكر أن رسول الله ﷺ اسهم بخيبر لصبي في الغنيمة واسهم أئمة المسلمين لكل مولود ولد في أرض الحرب »[5] ،وفي السلب يقول أبو حنيفة في الرجل يقتل الرجل ويأخذ سلبه: «لا ينبغي للإمام أن ينفله إياه لأنه صار من الغنيمة ، وقال الأوزاعي : مضت السنةعن رسول الله ﷺ:من قتل علجاً فله سلبه.وعملت به أئمة المسلمين بعده إلى اليوم ... قال الشافعي : القول فيها ما قال الأوزاعي وأقول قوله »[6] . ويلاحظ أن الشافعي يورد الآراء ثم يبين رأيه في ذلك ويؤيد من يرى رأيه

---

(١) اخبار القضاة جـ ٣ ص ٢٠٧ وتاريخ دمشق م جـ ١٠ ص ٤٨ .
(٢) تاريخ الاسلام جـ ٦ ص ٢٣١ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) الأم جـ ٧ ص ٣٤٢ .
(٥) نفسه جـ ٧ ص ٣٤٣ .
(٦) نفسه جـ ٧ ص ٣٤٤ .

موافقاً ، كما يلاحظ أن الأوزاعي يكثر من ذكر « مضت السنة ». وعملت به أئمة المسلمين ... وعلى ذلك أهل العلم ... وبه عملت الأئمة » مما يبين تمسكه بالسلف بينما لم يذكر ابو حنيفة مثل هذه الألفاظ حين يفتي . ومن رأي الأوزاعي وجماعة أن تكبيرة الاحرام ليست بواجبة ، وقد روي عن مالك إيجاب تكبيرةالإحرام وإنها فرض وركن من أركان الصلاة »[1] . ومن فتاويه جواز الوضوء بالنبيذ : لما روي عن عبد الله بن مسعود عن أن النبي قال عنه :تمرة طيبة وماء طهوز »[2] ، وقد أورد له صاحب محاسن المساعي بعض الفتاوى ، وكانت هذه الفتاوى تلقى معارضة أحياناً من الشاميين ، بل والشتم أحياناً ، فقال كاتبه عبد الحميد بن أبي العشرين وهو مثل الهقل بن زياد : « ما مات الأوزاعي حتى جلس وحده وسمع شتمته بأذنه ، يعني أنه اعتزل الناس وصبر على اذاهم »[3] ، وكان « يكره صيد الطير أيام فراخه رحمة بأمه »[4] ، وهي ناحية تدل على ما عنده من الإنسانية والرفق بالحيوان سبق بها غيره من الأمم المتحضرة . وللرازي في كتابه الجرح والتعديل فصل جيد عن الأوزاعي بيّن فيه تأثير الأوزاعي على الفقه عامة وعلى سياسة الأمة ، وتأثيره على الخلفاء العباسيين في سن الأحكام ، كزيادة أرزاق أهل الساحل ، وفداء الأسرى من المسلمين ، وقوله الحق في حضرة الخلفاء دون خوف ، ثم وصاته بأهل الذمة خيراً وقد روى حديث الرسول : « من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه »[5] ، وقد كان أهل الذمة في ديار الشام يقدرون الاوزاعي تقديراً

---

(١) تفسير القرطبي جـ ١ ص ١٧٥ .

(٢) محاسن المساعي في مناقب الاوزاعي ص ١٤٤ ، تحقيق شكيب ارسلان (مكتبة الحياة – بيروت) ١٩٦٧ م وسيشار اليه بـ محاسن المساعي .

(٣) محاسن المساعي ص ١٤٦ .

(٤) الشعراني ، طبقات الشعراني جـ ١ ص ٣٩ (المطبعة العامرة الشرفية – مصر) ١٣١٥ هـ .

(٥) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٠١ .

عظيماً نظير شفاعته لهم وتوصيته بهم عند الخلفاء والولاة وهي صفحة مشرقة في تاريخه مما جعل له قيمته الكبرى عند المسيحيين خاصة . ومن أعماله انه كان يتوسط لإسقاط الخراج عنهم في بعض السنوات التي يحتاجون فيها وهـذا ما رأيناه زمن عمر بن عبد العزيز الذي كان يسلف أهل الذمة من بيت المال .

وقد ألف الأزواعي كتابين في الفقه هما: «السنن في الفقه والمسائل في الفقه»[1].

أما البلاد التي انتشر مذهب الأوزاعي فيها فهي الشام والمغرب والأندلس وذلك لفترة معينة، ففي الشام لبثوا يعملون بمذهبه في الفقه حوالي مائتي عام، فقد جاء في تاريخ الذهبي في حوادث سنة ٣٤٧ هـ أنه : « مات مفتي دمشق على مذهب الأوزاعي القاضي أبو الحسن أحمد بن سليمان بن حزام وكانت له حلقة كبيرة بالجامع »[2] ، وفي تهذيب النووي أن أهل الشام والمغرب انتقلوا إلى مذهب مالك بعد الاوزاعي فقال : « كان اهل الشام والمغرب على مذهبه قبل انتقالهم إلى مذهب مالك »[3] . ويذكر ابن عساكر : « إن أول من ادخل مذهب الأوزاعي الأندلس صعصعة بن سلام توفي سنة ١٨٠ هـ وهـو فقيـه من اصحاب الأوزاعي — وكانت الفتيا دائرة عليه ايام الأمير عبد الرحمـن بن معاوية »[4] ، وان أول من ادخل مذهب مالك للأندلس هـو زياد بن عبـد الرحمن بن زياد اللخمي المعروف بشبطون قيل : « انـه كان فقيه الأندلس على مذهب مالك وهو أول من أدخل مذهبه الاندلس وكانوا قبله يتفقهون على مذهب الاوزاعي ، توفي سنة ٢٠٤ هـ »[5] ، وقيـل أن من أدخـل مذهب مالك الى

---

(١) الفهرست ص ٣١٨ .
(٢) الذهبي ، دول الاسلام جـ ١ ص ١٥٧ ، ط الثانية (مطبعة جمعية دائرة المعـارف العثمانية — حيدر آباد الهند) ١٣٦٤ هـ .
(٣) النووي ، تهذيب الاسماء واللغات جـ ١ ص ٢٩٨ (دار الطباعة المنيرية مصر) .
(٤) انظر تهذيب ابن عساكر جـ ٦ ص ٢٢٣ .
(٥) المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ٣٤٩ (المطبعة المنيرية المصرية)لا ت .

الاندلس هـو يحيى بن يحيى الليثي : قال ابن عساكر : « لقد كان مـذهب الاوزاعي ظاهراً بالأندلس إلى حـدود العشرين ومائتين ثم تناقص واشتهر مذهب مالك بن يحيى الليثي »[1] .

وقد ذكر يوسف شاخت بعض الآراء عن فقه الأوزاعي ، ولا بدّ لنـا من مناقشة بعض هذه الآراء . من ذلك أنه قال : « أن جميع مواقف الأوزاعي من العقيدة متعلقة بقانون الحرب ويعلل ذلك بقلة الاحاديث المسندة المتعلّقة بهذا الامر »[2] ، وهذا قول لا يخلو من المبالغة ، إذ أن الاوزاعي تحدث في كافـة مجالات العقيدة الاسلامية كما بينّا وليس في مجال الحرب وقوانينه وحدها ممـا يوضح خطأ شاخت في دعواه ، فقد ناظر الاوزاعي القدرية واختلف مع غيره من أهل المدينة والعراق في امور دينية كثيرة كما اسلفنا ،امـا إدعاؤه بقـلة الأحاديث المسندة عن الرسول بهذا الشأن فأمر مردود أيضاً ، لأن المعروف ان السنة تشمل الحديث والفعل والتقرير ، فكثيراً ما يستعين الاوزاعي بأفعال رسول الله في غزواته وحروبه ويقيس عليها في فتاويه .والمعروف أن الاوزاعي كان إماماً في السنة ، وقد نسي شاخت ان افعال الرسول هي بنفس الاهمية التي تعطى لأقواله ﷺ .

وقد اخطأ شاخت خطأ آخر حين ادعى أن الأوزاعي « يستعمل القياس دون أن يستعمل عبارة القياس »[3] ، فإن المهم هو الجوهر وليس اللفظ ونحن نحكم على الفقيه بما ينتهجه من مبادىء في فقهه وفتياه لا بظاهر الفاظـه ، ولو

---

(١) تهذيب ابن عساكر جـ ٦ ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .

(٢) Shacht,The Origins of Muhammadan Jurisprudence , P 34 (Oxford University Press) 1958 .

(٣) نفسه ص ١١٩ .

سلفنا أن الاوزاعي لم يذكر كلمة القياس ، فانه ضمناً يؤيد القياس بدليل انه سلفي يؤمن بأقوال السلف من الصحابة والتابعين ويأخذ عنهم ، وقد اتبع الصحابة والتابعون القياس ، فرسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء تؤيد القياس وتحض عليه ، فإيمان الاوزاعي بالقياس منطقي إذن لا يحتاج إلى اثبات أو تبيين منه وليس هو بمنكره حتى يصرّح بأنه مع القياس .

وقد إتهم شاخت الاوزاعي خطأ بأنه يضع الأحكام لتبرير سياسة بني أمية، حين ادعى أن الأوزاعي نسب إلى أبي بكر وصية ليزيد بن أبي سفيان حين سيّره إلى الشام بأن لا يقطع الأشجار المثمرة الخاصة بالعدو ، وذلك لأن سياسة بني أمية كانت الانتفاع بأرض العدو وعدم تضييعها عبثاً»[1] ، لذا برّر الأوزاعي على حد قول شاخت أعمالهم بأن أورد عن أبي بكر وصية إلى يزيد ، وهذا خطأ إذ أن وصية أبي بكر قد اوردها اكثر من فقيه ولكن تأولوا معناها ، فقد قال أبو حنيفة : « إنما قول أبي بكر لا تخرب عمراناً ولا تحرق نخلا ولا تقطع شجراً مثمراً .. وذلك اذا افتتح بلادهم وظفر بها فصارت في أيديهم فلا ينبغي لهم أن يفعلوا شيئاً من ذلك »[2] فالمهم هنا أن ابا حنيفة قد أورد وصية أبي بكر وأقرّ بها كما أنه أقر بعدم قطع شجر العدو حين غلبة المسلمين لهم ، وهذا مما يؤكد أن الأوزاعي لم يكن في قوله ذلك مؤيداً لسياسة بني أمية بل لرأي واجتهاد منه في تفسير قول أبي بكر الصديق الذي لم يحدد عدم قطع الأشجار بظرف أو حالة معينة .

ولنا أن نتساءل عن مدى تأثر فقه الأوزاعي بالقوانين الرومانية التي كانت سائدة قبل الفتح الإسلامي ، فنشير إلى أن هناك نوعاً من التأثير ظهر في فقهه ، وخصوصاً في النواحي الترتيبية والتنظيمية ، فان الدارس يرى أن بعض

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٠٥ .

(٢) اختلاف الفقهاء ص ١٠٧ .

الأبواب في فتاويه تتعلق بأمر واحد فقط دون الدخول في تفصيلات اخرى ومثال ذلك أن جميع ما أورده الشافعي في كتاب الأم من فقه الأوزاعي كان يتعلق بشؤون الحرب ، وقد أورد خمساً وثلاثين مسألة كلها في هذا الباب ، وهذا الترتيب لا يمكن أن يأتي بمحض الصدفة . ونحن نعلم أن الفتيـــا زمن الصحابة والتابعين كانت تتعلق بأمور كثيرة ،ففي المجلس الواحد يتعلم القرآن ثم يذكر حديث نبوي ثم يتلى بعض القصص فاذا سئل الصحابي أو التابعي عن مسألةتتعلق بالفقه أجاب عليها وهذا ما ظهر في فصل التعليم . ولعل الأوزاعي قد تأثر بالترتيب الروماني الذي كان سائداً قبل الفتح الإسلامي . وقد أورد شاخت بعض الامثلة التي تبيّن تأثير القوانين الرومانية في بعض اصول الفقـــه الإسلامي : فمثلاً الاجماع عند المسلمين قال انه مأخوذ مما سماه في القانون الروماني « Opinio Prodentium » [١] ، كما اشار إلى تأثـــر آخر من القوانين الرومانية والساسانية وهي قوانين القضاء والحاكم ، فمن القوانين الرومانية حصر الاثبات القانوني للحادث بشهود الاثبات والدفاع، واشار إلى كتابة الوثائق عند الرومان ثم إشارة القرآن إلى الكتابة بين المتعاقدين [٢] ، ومن القوانـين الرومانية التي اخذها المسلمون قانون « الوليد للفراش وللعاهر الحجر » وهي في الرومانية : [٣] Peter est quem nuptiae demonstrant

ومن النظام الساساني جاءت وظيفة كاتب المحكمة الذي ظهر مـــع ظهور القاضي في النصف الثاني من القرن الأول [٤] .

الفقه بعد الأوزاعي :

وقد كان بعد الأوزاعي في الشام من الفقهاء : سعيد بن عبد العزيز والوليد

---

(١) Schact , Introduction to Islamic Law , P 20

(٢) نفسه ١٨ – ١٩ .

(٣) Introduction P . 21 .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

ابن مسلم ، ومحمد بن الوليد الزبيدي ، ويحيى الغساني ويزيد وعبد الرحمن ابنا يزيد بن جابر ، وأكثرهم أهمية سعيد بن عبد العزيز حيث أن اسمه يقرن بالاوزاعي أحياناً فقيل : « وثبتت الفتيا بالشام على مذهب الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز » [1] ، وكان سعيد بن عبد العزيز إذا سئل لا يجيب حتى يقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله ، هذا الرأي ، والرأي يخطيء ويصيب » [2] وهو متأثر بمكحول الذي كان يقول نفس القول حين يسأل ، وقد كان يفضله على الزهري كما رأينا ، ومن فيتاه : « ليس في البقر التي تحرث الأرض صدقة ، لأن في القمح صدقة ، وإنما القمح بالبر » [3] . وكان سعيد يفضل في القضاء من التابعين يزيد بن أبي مالك قال عنه : « لم يكن عندنا أعلم بالقضاء من يزيد بن أبي مالك توفي سنة ١٣٠ هـ » [4] ، ومن قضائه : « ان زوجة الأوزاعي وضعت الفحم في الحمام واغلقت الباب عليه فاختنق ومات فحكم عليها سعيد بعتق رقبة » [5] .

أما الوليد بن مسلم فله مؤلفات ومصنفات بلغت السبعين ويتعلق بعضها بالقضاء وقيل : « لم نزل نسمع أنه من كتب مصنفات الوليد صلح أن يلي القضاء ومصنفات الوليد سبعون كتاباً » [6] .

وقد كان للفقهاء قيمة كبيرة في هذه الفترة خصوصاً في النواحي السياسية ، ومن هذه الأعمال ردهم أهل قبرص إلى بلادهم فقد ذكر : « أن الوليد بن يزيد أجلى أهل قبرس إلى الشام فاستفظع ذلك واستعظمه فقهاء المسلمين ، فلما ولي

---

(١) طبقات الفقهاء ص ٧٧ .
(٢) اعلام الموقعين جـ ١ ص ٧٥ .
(٣) الاموال ص ٣٨١ .
(٤) تاريخ الاسلام جـ ٥ ص ١٨٧ .
(٥) تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٦٢ .
(٦) تهذيب التهذيب جـ ١١ ص ١٥٣ .

يزيد بن الوليد ردهم إلى قبرس فاستحسن المسلمون ذلك ورأوه عدلاً »[1]، وقد كان بعض الفقهاء يطمع أن يولى فقيهاً الخلافة فقد قال أبو اسحق الفزاري: « لو خيّرت لهذه الأمة لاخترت الأوزاعي »[2]، وقد أيد قوله هـذا عدد كبير من الفقهاء في عصره . والملاحظ أن من أتى بعد الأوزاعي من الفقهاء لم يتحمسوا لنشر مذهبه وإلا لانتشر واستمر اكثر من ذلك الوقت، كما نشر أتباع أبي حنيفة ـ أبو يوسف وغيره ـ والشافعي ومالك مذاهبهم، وقد كان للأوزاعي كتّاب كالهقل بن زياد وعبد الحميد بن أبي العشرين كان من الممكن أن يكملوا مذهبه، إلا أن نشاطهم إقتصر على التقليد والكتابة . ويلاحظ أن عدم وجود مولف فقهي كبير للاوزاعي قد ساعـد على انقراضه، بينما نجـد للفقهاء أصحاب المذاهب الأربعة الاخرى مؤلفات فقهية مكتوبة وهذه اكثر تأثيراً في النفوس وعدم الضياع . وقد اصبحت السياسة بعد ذلك تتدخل في المذاهب الاسلامية فكان الخليفة يحمل الناس على مذهب معين دون غيره .

---

(١) الاموال ص ١٧٤ .

(٢) تهذيب التهذيب جـ ٦ ص ٢٤١ .

الفصل الثاني

علم الكلام

١ ــ المؤثرات الاجنبية في هذا الاتجاه .

٢ ــ القدرية والجبرية في الشام .

٣ ــ اهم آراء غيلان .

٤ ــ القدرية بعد غيلان .

٥ ــ الجبرية والجعد بن درهم .

٦ ــ أهل السنة .

٧ ــ الصوفية والتصوف .

مقدّمـــة :

بدأت لفظة « الكلام » تتردد على السنة التابعين منذ أواخر القرن الأول الهجري ، فقد ورد في رسالة الحسن البصري إلى الحجاج حين سأله رأيـــه في القدر فقال : « إن الله لم يخلقهم — العباد — لأمر ثم حال بينهم وبينه ، لأنه تعـــالى ليس بظالم للعبيد ولم يكن أحد في السلف يذكر ذلك ولا يجادل فيه لأنهم كانوا على أمر واحد وانما احدثنا الكلام فيه لما احدث الناس النكرة له ، فلما أحدث المحدثون في دينهم ما أحدثوه أحدث الله للمتمسكين بكتابه ما يبطلون به المحدثات ويحذرون به من المهلكات »[١] ، واننـــا نلمح من رسالة الحسن أن الصحابة لم يخوضوا في مسألة القدر وأن هذه المسألة قد كثر الخوض فيها زمن التابعين ، وأن الكلام قد كان بسبب بعض المسائل الجدلية والتي كان القدر في مقدمتها ثم تبع ذلك مسائل أخرى تتعلق بالقرآن أو تتعلق بصفات الله سبحانه وعدله .

وكان هناك من يعتبر الرجل الذي يكثر من الجدل « صاحب كلام » فقـــد حدّث الأصمعي قال : « إن أياساً — ابن معاوية — اجتمع هو وغيلان عند عمر ابن عبد العزيز ، فقال عمر : هذان مختلفان قد اجتمعنا يتناظران ، فقال اياس : يا أمير المؤمنين ، ان غيلان صاحب كلام وأنا صاحب اختصار فأما أن يسألني ويختصر واما أن أسأله وأختصر »[٢] .

---

(١) طبقات المعتزلة ص ١٩ .
(٢) تهذيب ابن عساكر ٣ / ١٧٨ .

وقد كان الصحابة إجمالاً يكرهون الجدل في أمور الدين خوفاً من افتراق الأمة [١] ، ومنهم الصحابة الذين هاجروا إلى الشام فانهم لم يختلفوا عن غيرهم في النظر إلى امور العقيدة وخصوصاً مسألة الجدل والقدر ، فهذا معاوية يتهم من يتحدثون بكلامهم بالجهل مما يوحي بأن بعض الجدل كان يدور زمن معاوية فحذرهم من ذلك وقال : « بلغني أن رجالاً فيكم يتحدثون بأحاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله فأولئكم جهالكم ، أتعلمون أن رسول الله ﷺ نهى عن عضل المسائل » [٢] ، وهذا معاذ بن جبل ينهي عن كثرة السؤال وجدل المنافق بالقرآن فيقول : « كيف تصنعون بثلاث : دنيا تقطع أعناقكم وزلة عالم وجدال منافق بالقرآن ، أما العالم فإن اهتدى فلا تقلدوه دينكم وإن افتتن فلا تقطعوا من اناتكم ، فإن المؤمن يفتتن ثم يتوب وأما القرآن فله منار كمنار الطريق لا تخفى على أحد فما عرفتم منه فلا تسألوا عنه وما شككتم فكلوه إلى عالمه ، وأما الدنيا فمن جعل الله الغنى في قلبه فقد أفلح ومن لا فليس بنافعته دنياه » [٣] . وكان عبادة بن الصامت لا يقول في القدر إلا بما سمع من الرسول أو ما فهمه من كلامه وقد جاء بعض كلامه عن

---

(١) حذر بعض الصحابة الشاميين من ابتداع الكلام . فمعاذ بن جبل يقرن ذلك بظهور الفتن فيقول « تكون فتن فيكثر فيها المال ويفتح القرآن حتى يقرأه الرجل والمرأة والصغير والكبير فيقرأه الرجل فلا يتبع ، فيتخذ مسجداً ويبتدع كلاماً ليس من كتاب الله » . اعلام الموقعين جـ ١ ص ٦٠ .

وكان أبو الدرداء يكره الجدل بالقرآن فقال : « ان فيما اخش عليكم زلة العالم وجدال المنافق بالقرآن والقرآن حق » جامع بيان جـ ٢ ص ١٠ .

وروى العرباض بن سارية عن الرسول قوله : « إياكم ومحدثات الامور فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » . جامع بيان جـ ٢ ص ١٨٢ .

(٢) اعلام الموقعين جـ ١ ص ٧٠ .
(٣) ابن قيم الجوزية ، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكم والتعليل ص ١٩ . (مطبعة دار الكتاب العربي بمصر) لا ت .

القدر في وصيته لإبنه حين قال : « يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، فقال : رب وماذا اكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة يا بني ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: من مات على غير هذا فليس مني ، وكتابة القلم للقدر كان في الساعة التي خلق فيها .... يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان ، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى حتى تؤمن بالقدر خيره وشره »[(1)] .

١ – المؤثرات الأجنبية في الشام في القرنين الأول والثاني الهجريين :

وجدت المذاهب غير الإسلامية في الشام كالنصرانية وكان منها فرق أصحاب جدل كالنساطرة واليعاقبة ، وكان جدلهم يتعلق بطبيعة المسيح ، وكان النساطرة في الشام ينفون التشبيه كالمعتزلة ويقولون بالقدر ، قال الشهرستاني: « ومن النسطورية من ينفي التشبيه ويثبت القول بالقدر خيره وشره من العبد كما قالت القدرية »[(2)] .

ومن المسيحيين الذين أثروا في العقيدة في الشام يوحنا أو يحيى الدمشقي ويقال : « أن راهباً أسر في إيطاليا من قبل المسلمين وإسمه قوزما وأحضر لدمشق فأخذ عنه يوحنا اللغة اليونانية وآدابها والعلوم والفلسفة والموسيقى »[(3)] فهذا يدل على أن الثقافة اليونانية كانت تنقل حتى عن طريق الأسرى بواسطة العلماء الشاميين ، وخصوصاً النصارى منهم ، وقد ألف يوحنا عدة كتب في

---

(١) شفاء العليل ص ١٩ .

(٢) الشهرستاني . الملل والنحل جـ ٢ ص ٥٤ بهامش الفصل في الملل والنحل (طبعة محمد علي صبيح مصر) ١٣٤٧ هـ .

(٣) وستم ، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى جـ ٢ ص ٦٩ . (مطبعة دار الفنون بيروت) لا ت . وسيشار اليه بـ كنيسة مدينة الله .

اللاهوت والفلسفة ذكر منها : « ينبوع المعرفة ، والمقدمة في العقائد والإيمان الحق ، والثالث الأقدس وإيضاح الإيمان »[1] ويضيف الاستاذ رستم في حديثه عنه : « وقد انبرى يحارب الهراطقة المتمسكين بفلسفة أرسطو ... وقد وفق إلى إصلاح بعض نظريات أرسطو ولا سيما فيما يتعلق باللاهوت الطبيعي وعلم الأخلاق وخلود النفس ، وأخذ عن ارسطو كثيراً من التحديدات ولكنه أضاف إليها أشياء وأشياء كالفرق بين الطبيعة والجوهر والاقنوم واستعان بها على انشاء تعابير خاصة بعلم اللاهوت مستقلة عن المذاهب الفلسفية العديدة »[2] .

ويعتبر بروكلمان يحيى الدمشقي « آخر كبار العلماء بالعقائد على مذهب الكنيسة الإغريقية ... وكان أبوه صاحب عبد الملك بن مروان . وقد صنف كتاباً في فضائل النصرانية على نهج محادثة بين مسلم ونصراني ، فلم يكن عرضاً أن ظهرت عند المرجئة والقدرية في الشام آراء يحيى الدمشقي في أن الله سبحانه كتب على نفسه الرحمة لجميع الناس ، وفي حرية إرادة الإنسان »[3] ، وهذا يوضح مدى تأثير يحيى في فرقتين إسلاميتين في الشام وهما المرجئة والقدرية ، كما يدل على أن الجدل كان قائماً بين المسلمين والنصارى حول الامور الدينية ، والواقع أن هذا صحيح ، فالجدل كان قائماً منذ عهد التابعين ، وهناك مجادلة بين خالد بن يزيد بن معاوية (توفي سنة ٨٨ هـ) وبين راهب نصراني نذكر طرفاً منها : قال الراهب « ألستم تزعمون في كتابكم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون فقلت له : نعم نقول ذلك ، قال : فإن لهذا مثلاً في الدنيا فما هو ؟ قلت : مثل الصبي في بطن أمه يأتيه رزق الرحمن بكرة وعشية ، لا يبول ولا يتغوط ، فتربد وجهه وقال : ألم تزعم إنك لست من علمائهم ، قال : فقلت

---

(١) كنيسة مدينة الله جـ ٢ ص ٧٣ .
(٢) نفسه جـ٢ ص ٧٤ – والملاحظ ان الاستاذ رستم نقل كافة معلوماته عن: آثار الاباء الكنيسة اليونانية لمبيه .
(٣) تاريخ الادب العربي جـ ١ ص ٢٥٦ .

بلى ما أنا من علمائهم ولا من جهالهم ، ثم قال : ألستم تزعمون أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا ينتقص مما في الجنة شيء ؟ فقلت : نقول ذلك ، ومثل هذا في الدنيا ، مثل رجل آتاه الله علماً وحكمة ، فلو اجتمع جميع الخلق فتعلموا منه ما نقص من علمه شيء »[1] ، وحين نبهه خالد إلى زعمهم أن لله ولداً قال الراهب : « لا غفر الله لمن قالها ، منها فررنا واتخذنا الصوامع »[2] ، فنتبين منا أن بعض الرهبان كانوا ينكرون أن عيسى عليه السلام إبن الله وانهم فروا إلى الرهبنة لادعاء النصارى ذلك .

وقد أولى الدارسون كتاب يحيى «ينبوع المعرفة»عناية زائدة واعتبروه أهم كتبه وانه كان نبراساً في نهجه لعلماء الكلام فيما بعد، فيقول الاستاذ رستم « إن الخطة التي رسمها لتأليف كتابه ينبوع المعرفة هي الخطة عينها التي إتبعها علماء الكلام فيما بعد ، فهم يبدأون مثلاً بمقدمة فلسفية ثم ينتقلون مثله إلى بحث في الملل والنحل قبل الخوض في صلب الموضوع . ولا يقف الكلاميون عند هذا الحد في الأخذ عن يوحنا الدمشقي فإنهم ينسجون على منواله في تنسيق الكلام عن العقيدة ، فيعالجون موضوع الله وصفاته أولاً ، ثم ينتقلون إلى الكلام في الله وأعماله ثم يحلون البحث في النبوّة محل البحث في المسيح »[3] . وسمّاه غورديه كتاب معين المعرفة وربما كان ذلك لاختلاف الترجمة إلى العربية وقال : « إنّه ألف بعد سنة ٢٤٧ م ويشتمل على ثلاثة أجزاء : ١ — الجدل أو الفصول الفلسفية ، ٢ — كتاب الهرطقات ، ٣ — بيان في الإيمان القويم من مائة فصل »[4]. وقال أيضاً أسد رستم عن ينبوع المعرفة « أصبح مؤلفه فيما بعد

(١) تهذيب ابن عساكر جـ ٥ ص ١١٧ .
(٢) نفسه جـ ٥ ص ١١٨ .
(٣) كنيسة مدينة الله جـ ٢ ص ٧٧ .
(٤) غورديه — فلسفة الفكر الديني بين الاسلام والمسيحية ، ص ٣١٩ ، تعريب صبحي الصالح وفريد جبر (دار العلم للملايين) ١٩٦٧ م .

مرجع الآباء الأرثوذكسيين والكاثوليكيين في علم اللاهوت » [1] .

وقد شكك وات في الدور المؤثر الذي يعتقده البعض في تأثير يوحنا الدمشقي على الأفكار الإسلامية التي انتشرت زمن غيلان والجعد بن درهم وذلك لأن كتابات يوحنا قد حدثت في رأيه « بعد عشرين أو ثلاثين سنة بعد بدء الجدل بالأفكار الجديدة لغيلان والجعد » [2] .

أماسيل فيعتقد : « أن يوحنا كان مجمعاً لأفكار غيره أكثر منــــه مفكراً أصيلاً ، وقد اعتمد اعتماداً واسعاً على المفكرين القدماء من رجال الكنيسة من أمثال غريغوريوس النازيانزي وبسيل الكبير » [3] .

وقد عقد سيل مقارنة بين يوحنا والقدرية فوجد تشابهاً بينهـــما في أشياء كثيرة .من ذلك «أن القدرية تقول أن الأعمال الخيرة هي من الله ولكن الأعمال الشريرة هي من فعل البشر حتى لا ينسبوا الافعال القبيحة والذنوب إلى الله »[4] وقال يوحنا : «إن من كل الأشياء التي تحصل يكون السبب كما يقال أما من الله أو الضرورة أو القدر أو الطبيعة أو الحظ أو الصدفة ، فأي الأعمال من هذه ممكن أن تنسب إلى الإنسان ؟ وإنه ليس من الحق أن نعزو إلى الله اعمـــالاً شريرة وظالمة أحياناً ، فنحن إذاً أمام حقيقة وهي أن الإنسان الذي يفعـــل ويعمل هو نفسه المسؤول عن أعماله حين رزق حرية الإرادة » [5] ، ثم اورد عن الملطي أيضاً كيف ان الله قد وهب للإنسان حرية الأفعـــال كالجلوس والنوم والقعود ثم القدرة على الإيمان والكفر ، فإذا لم يكن كذلك فإن البشر

---

(١) وستم ، الروم في سياستهم وصلاتهم بالعرب جـ ١ ص ٣٤٢ . (دار المكشوف بيروت) ط الاولى سنة ١٩٥٥ وسيشار اليه بـ الروم .

(٢) Watt , Free will and predestination . p .58.

(٣) Seale , Muslim Theology . p . 6 .

(٤) نفسه ص ٣١ وانظر التنبيه ص ١٥٧ .

(٥) نفسه ص ٣٢ .

لا يعاقبون على أشياء لا يستطيعون عملهـا ، وبنفس المعنى قال يوحنا : « من الاشياء والحوادث ما هو في مقدورنا ، وبعضهـا ليس كذلك . فالأشياء التي نستطيع عملها ونحن أحرار في عملها أو تركها هي الأعمال التطوعية ، وفي كلمة : كل ما يتبعه عتاب أو مدح ويعتمد على الحركة أو الدافع والقانون ، وبالتحديد فإن كل الأعمال العقلية والمتعمدة هي في مقدورنا ... وإن الأعمال التي في مقدورنا هي تلك التي تحتمل احتمالات متساوية مثل : التحرك وعدمه ، الإسراع والإبطاء ، والإعطاء أو عدمه »[1] .

ومن أقوال يوحنا أيضاً التي اخذها عن القدرية قوله : « إن العناية الإلهيـة محيطة بكل الموجودات وكلها تأخذ نصيبها من عناية الله . أما من جهـة الفرد فمن الممكن أن يكون بالضرورة فاعلاً لما يوجد . لأنه ليس من المناسب أن يكون الخالق لما يوجد والمانح أشخاصاً مختلفين ، لأن ذلك يؤدي إلى العجز في الخلق والرّزق ، لذلك كان الله هو الخالق والرازق معاً وهذه هي إرادتـه الخيّرة ... »[2] فهو هنا يحاول أن يربط بين الله وبين كل الأعمال الخيّرة التي تصيب الإنسان ، وأن الامور الإختيارية هي ضمن تصرفنا ومنهـا الأعمال الشريرة التي تكون مخالفة لله ولا دخل له بها مع علمه المسبق بحصولها .

ويقرر سيل « أن العرب قد استعملوا كلمة تفويض لترجمة فكرة يوحنا عن أصل الإرادة، وقد سميت هذه الطائفة الإسلامية بالمفوضة »[3] .

ونذكر نصرانياً آخر أثـر في مجال العقيدة في الشام وهو من العراق واسمه سوسن ،الذي أسلم ثم تنصر وهو أول من نطق بالقدر ، فقد أورد الأوزاعي : « أول من نطق في القدر رجل من أهل العراق يقال له سوسن ،كان نصرانياً فأسلم

(١) سيل ص ٣٢ .
(٢) نفسه ص ٣٣ — ٣٤ .
(٣) نفسه ص ٣٤ — ٣٥

ثم تنصّر فأخذ عنه معبد الجهني وأخذ غيلان عن معبد »[1] .

هذا أهم ما أثر به أصحاب الديانات في العقيدة الإسلامية في الشام ، وقد كان يسير مع هذا التيار تيار آخر يؤدي إلى الزندقة ، ودعاة هذا التيار لا ينتمون إلى دين سماوي بل إلى مذاهب وثنية عرفت بفارس والهند والجزيرة مثل المجوسية والسمنية والمشبهة والمانوية والصابئة : وقد قالت المجوسية بالقدر من الإنسان خيره وشره ، قال ابن تيمية : « قال القدرية المجوسية : إن الأفعال تنقسم إلى حسن وقبيح لصفات قائمة بها والعبد هو المحدث لها بدون قدرة الله وبدون خلقه »[2] ، وهذا هو نفس قول القدرية من أصحاب غيلان ، أما السمنية فهي من مذاهب الهند ويقول عنها المقدسي مبيناً إيمانها بالتناسخ : « والهند على كثرة اختلافها يجمعها نحلتان السمنية المعطلة والبراهمة الموحدة : والسمنية تؤمن بالتناسخ ، فإذا اجترحت النفوس السيئات أثرت تلك الأفعال في جوهرها وصار غرضاً لازماً لها فإذا فارقت الجسد ذهبت بذلك التأثير إلى الجنس الذي لا يلائم همتها فتلابسه فيصير بذلك السبب إلى المكروه وهو التناسخ في أجساد الحيوان كله من الهوام والأنعام والآنام والطير في البر والبحر »[3] . وتعطيل الصفات هي من مبادىء الجعد بن درهم ، كما أن التناسخ قد وجد بين بعض الأفراد وإن كان وجودهم بالعراق أكثر منه في الشام ، وربما كانت المشبهة الحلولية أقرب الفرق للتأثير بالسمنية ، وقد سميت الحلولية الحلمانية نسبة إلى أبي حلمان الدمشقي الذي ذكره أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية فقال : « دخل

---

(١) تاريخ دمشق م جـ ١٤ ص ٩٢ – ٩٣ .
(٢) تفسير ابن تيمية ص ١٥٨ .
(٣) المقدسي ، كتاب البدء والتاريخ ، جـ ١ ١٩٧ – – ١٩٨ . تحقيق أرنست لرو (طبعة برطرند – شالون باريز) ١٨٩٩ م .

الشام ويحكى عنه في الأرواح والشواهد مناكير »[1] ، وقال البغدادي وقد ذكر المشبّهة : « ومنهم الحلولية الحلمانية المنسوبة إلى أبي حلمان الدمشقي الذي زعم أن الإله يحل في كل صورة حسنة ، وكان يسجد لكل صورة حسنة »[2].

وقد ظهرت المانوية في الشام وحاربها يوحنا الدمشقي لأنها استعانت بآيات من الإنجيل لإثبات دعواها ضد الأيقونات ومنع السجود للصليب ، قال الاستاذ رستم : « وحارب – يوحنا – المانوية التي ظهرت في منتصف القرن السابع متخذة ثوباً جديداً فعرفت بالبولسية وتفشت في أرمينية والجزيرة وسورية ، وتذرع أصحابها بالآية : « حيث العابدون الحقيقيون يعبدون الأب بالروح والحق فرفعوا الأيقونات ومنعوا السجود للصليب المقدس واستغنوا عن اكرام العذراء والقديسين ... فوقف ضدهم »[3] .

أما الصابئة فقد كانت بحرّان وأثرت على عدد من أصحاب الكلام ومنهم الجعد بن درهم .

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نوضح السبب في ظهور عدد من الزنادقة ومدعي النبوة في الشام في هذه الفترة أي أواخر القرن الأول الهجري ، وذلك لتأثرهم بهذه الحركات الوثنية ومن هؤلاء الزنادقة ومدعي النبوة : محمد بن سعيد الشامي والحارث بن سعيد الشامي ، وأبو حمزة الصوفي ، فقد قال القرطبي عن محمد بن سعيد :« إنه من الزنادقة ... الذين وضعوا أحاديث ، وحدثوا بها ليوقعوا بذلك الشك في قلوب الناس. فمما رواه محمد بن سعيد عن أنس بن مالك في قوله ﷺ (أنا خاتم الأنبياء لا نبي بعدي إلا ما شاء الله) ، وكان يدعو

---

(١) ابن حجر ، لسان الميزان جـ ٦ ص ٣٦٧ ، الطبعة الاولى (دائرة المعارف النظامية– حيدر اباد – الهند) ١٣٣٠هـ .
(٢) الفرق ص ٢٢٦ .
(٣) كنيسة مدينة الله جـ ٢ ص ٧٦ .

للإلحاد والزندقة »[1] ، وقال عنه إبن حجر « إنه من كذابي الأردن ، قتله أبو جعفر المنصور في الزندقة »[2] .

أما الحارث بن عبد الرحمن بن سعيد الدمشقي فهو مولى أبي الجلاس العبدري القرشي ، ويقال مولى مروان بن الحكم ، وقد إدعى النبوة قال الذهبي « كان متعبداً زاهداً لو لبس جبة من ذهب لرؤيت عليه زهادة »[4] ، والذي أعتقده أن الحارث أُصيب بمس من جنون جعله يفعل بعض الأشياء المنكرة فقد كتب إلى أبيه يقول : « يا أبتاه أعجل عليّ فقد رأيت أشياء أتخوف أن يكون الشيطان عرض لي »[4] ومما يدل على ذلك أنه بعد إحضاره من بيت المقدس وقتله من قبل عبد الملك سنة ٧٩ هـ دخل على عبد الملك خالد بن يزيد بن معاوية فقال له : « لو حضرتك ما أمرتك بقتله ، قال ولم ؟ قال : كان به المذهب فلو جوعته ذهب ذلك عنه »[5] ويروى أن غيلان الدمشقي كان من أتباعه فقال له خالد بن اللحلاج : « ويحك يا غيلان ! ألم نأخذك في شبيبتك ترامي النساء في شهر رمضان بالتفاح ؟ ثم صرت حارثياً تحجب إمرأته وتزعم إنها أم المؤمنين ثم صرت قدرياً زنديقاً »[6] . ويروى عن الحارث بعض الخاريق والاعاجيب « فكان يأتي رخامة في المسجد فينقرها بيده فتسبح ويطعمهم فاكهة الصيف في الشتاء ... فتبعه بشر كثير حتى أن عبد الملك اتهم عامة عسكره بالحارث أن يكونوا يرون رأيه »[7] .

---

(١) تفسير القرطبي جـ ١ ص ٧٦ .
(٢) تهذيب التهذيب جـ ٩ ص ١٨٦ .
(٣) تاريخ الاسلام جـ ٣ ص ١٤٧ .
(٤) نفس المصدر والصفحة .
(٥) نفسه جـ ٣ ص ١٤٩ .
(٦) نفس المصدر والصفحة .
(٧) نفسه جـ ٣ ص ١٤٧ .

وكان أبو حمزة الصوفي حلولياً زنديقاً وقيل : « تكلم أبو حمزة في جامع طرطوس فقبلوه . فبينا هو ذات يوم يتكلم إذ صاح غراب على سطح الجامع فزعق أبو حمزة وقال : لبيك لبيك ، فنسبوه إلى الزندقة ، وقالوا حلولي زنديق ، وبيع فرسه بالمناداة على باب الجامع : هذا فرس الزنديق . وقيل : أطلق على أبي حمزة أنه حلولي وذلك أنه كان إذا سمع صوتاً مثل هبوب الرياح وخرير الماء وصياح الطيور يصيح ويقول : لبيك لبيك »[1] .

٢ – القدرية والجبرية في الشام :

مع نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني إتخذ الانحراف الديني في العقيدة شكلاً جديداً ، فظهرت فرقتان أو مذهبان في الشام : الأولى هي القدرية أتباع غيلان الدمشقي ، والثانية هي الجبرية أتباع الجعد بن درهم . وسوف اتحدث عن كل منهما لأهميتها في هذا المجال .

أما غيلان فهو مولى ويكنى أبا مروان قال عنه ابن قتيبة : « كان قبطياً قدرياً لم يتكلم أحد قبله في القدر ودعا اليه إلا معبد الجهني »[2] وقال ابن نباتة « هو غيلان بن يونس القدري الدمشقي كان أبوه مولى لعثمان بن عفان »[3] وكما لاحظنا فإنه تتلمذ على أيدي بعض المشبوهين كسوسن النصراني ومعبد الجهني والحارث بن سعيد الكذاب . وهذا من المآخذ التي يرمى بها ، ويذكر أنه كان يؤلف بعض الصحف مع الحارث ويدعيان أنها منزلة عليهما . قال يحيى ابن مسلم : « إن رجلاً أخذني فأدخلني سرباً فيه غيلان والحارث الكذاب في أصحاب له ورجل يقول لغيلان ، يا أبا مروان ما فعلت الصحيفة التي كنا

---

(١) تلبيس ابليس ص ١٨٠ .

(٢) المعارف ص ٤٨٤ .

(٣) ابن نباتة ، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ص ٢٩٢ . (مطبعة المدني القاهرة) ١٩٦٤ م وسيشار اليه بـ سرح العيون .

نقرؤها بالأمس ؟ قال عرج بها إلى السماء فأحكمت ، ثم أهبطت . فقلت : إنا لله ما كنت أرى أن أبقى حتى أسمع بهذا في أمة محمد ﷺ »[1] وقد وضعت الأحاديث عن الرسول في ذم غيلان، من ذلك: « يكون في أمتي رجلان أحدهما وهب — بن منبه — يهب الله له الحكمة والآخر غيلان فتنة على هذه الأمة أشد من فتنة الشيطان »[2] وأول ما اشتهر من أمر غيلان وكلامه كان زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز وكان معه صالح بن سويد ، وكانا يقولان بالقدر ، أي أن العبد يفعل بقدرته ما يشاء دون أن يكون لله مشيئة على أعمال الفرد وقد بلغ قولهما عمر بن عبد العزيز فدعاهما وقال لهما : « علم الله تعالى نافذ في عباده أم منتقض ؟ فقالا : لا بل نافذ . فقال : ففيم الكلام ؟ فخرجا ، فلما كان عند مرضه بلغه انهما قد أسرفا ، فأرسل اليهما وهو مغضب فقال : ألم يكن في سابق علمه حين أمر إبليس بالسجود أنه لا يسجد ؟ قال عمرو بن المهاجر حاجبه : فأومأت اليهما برأسي أن قولا نعم فقالا نعم . فأمر بإخراجهما وبالكتاب إلى الاجناد بخلاف ما قالا »[3] ، ويروى أن غيلان إحتج على عمر بقوله تعالى (هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً. إنا خلقنا الإنسانَ من نُطفةٍ أمشاجٍ نبتليه فجعلناهُ سميعاً بصيراً إنا هديناهُ السبيلَ إمّا شاكراً وإما كفورا) ثم سكت فقال له عمر: إقرأ. فقرأ حتى بلغ آخر السورة (وما تشاءون إلا أن يشاء اللهُ إنّ الله كانَ عليماً حكيماً يُدخلُ من يشاء في رحمته والظالمين أعدّ لهم عذاباً أليماً) ،فقال له عمر : كيف ترى في رحمته يا ابن الاتانة ؟ تأخذ الفروع وتدع الأصول ؟ »[4] ويوضح غيلان في مقالة لعمر أن سبب قوله بالقدر هو سبب سياسي إذ أنه ينحي على بعض العامة قولهم إن ظلم الحكام هو بقضاء

---

(١) تاريخ دمشق م جـ ١٤ ص ٩٢ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) تهذيب ابن عساكر جـ ٦ ص ٣٦٩ .
(٤) نفسه جـ ٦ ص ٣٧٠ .

وقدر من الله ، فقال مقالته تلك حتى ينبهم إلى خطأهم ، وقد جادل بهذا عمر ابن عبد العزيز أيضاً فقال له : « إن العامة من الشام زعموا أن الظلم بقضاء الله وقدره وانك تقول بذلك ، فقال عمر : يا سبحان الله انما أتتبع مظالم بني أمية وأردها وأسميها مظالم بني أمية ، أفترى أني أظلم الله »[1] ، ويروي ابن المرتضي أيضاً أن عمر قد ولى غيلان بيع الخزائن فكان يبيعها وينادي : « تعالوا إلى متاع الخونة ، تعالوا إلى متاع الظلمة ، تعالوا إلى متاع من خلف الرسول في أمته بغير سنته وسيرته ، وكان فيما نادى عليه جوارب خز ، فبلغ ثمنها ثلاثين ألف درهم وقد انتكل بعضها ، فقال غيلان : من يعذرني ممن يزعم أن هؤلاء كانوا أئمة هدى وهذا يأتكل والناس يموتون من الجوع ! فمر به هشام بن عبد الملك وقال : أرى هذا يعيبني ويعيب آبائي والله إن ظفرت به لأقطعن يديه ورجليه ، فلما ولي هشام خرج غيلان وصاحبه صالح إلى أرمينية فأرسل هشام في طلبهما فجيء بهما فحبسهما أياماً ثم أخرجهما وقطع أيديهما وأرجلهما »[2] ، وهذا يدعو للاعتقاد بأن غيلان قتل لسبب سياسي وليس لآرائه الكلامية ، وهذا ما رآه الاستاذ مونتجمري وات معتمداً على رأي البلاذري في قوله : « إن غيلان كان كاتباً من كتاب الأمويين ، ومولى لهم ، فترك خدمتهم وبسط لسانه فيهم بسوء القول، وانه هو وصاحبه صالح حين كانا بأرمينية كانا يتكلمان في هشام ، وان هشاماً وضع عليهما عيوناً ودس شهوداً شهدوا عليهما ، فمثل بهما ثم صلبهما »[3] .

وقد ذهب الاستاذ وات أيضاً نفس المذهب حين ادعى أن غيلان قتل لأسباب سياسية فقال : « إن غيلان لم يقتل من أجل القدر ، بل لأنه انتقد

---

(١) ابن المرتضي ، طبقات المعتزلة ص ١٢٠ . (المطبعة الكاثوليكية – بيروت) ١٩٦١ م .

(٢) نفسه ص ٢٦ – ٢٧ .

(٣) البلاذري :انساب الاشراف م . ج ٢ ص ١٢٣ .

النظام المالي لعمر لأنه لم يكن يضع الثروة في موضعها »[1] .

وإننا لا ندري إن كان يعارض سياسة بني أمية لظلمهم أم لحقده على الملك العربي كغيره من الموالي ضعيفي الإيمان بالإسلام ، علماً بأن ماضي غيلان مشبوه، وقد أشار مرة على عمر بن عبد العزيز محوَ ما على النقود من القرآن وإسم النبي فقال : « هذه الدراهم البيض فيها كتاب الله يقلبها اليهودي والنصراني والحائض والجنب فإن رأيت أن تأمر بمحوها ، فقال : أردت أن تحتج علينا الأمم إن غيَّرنا توحيد ربنا واسم نبينا ، قال : فبهِتّ ولم أدر ما أرد عليه »[2] .

ويذكر أن هشاماً قد أحضر غيلان وسأله عما يبدر منه من أقوال في القدر فطلب غيلان أن يحضر له من يجادله ويكلمه فإن أخذته حجة المجادل مكّنه من نفسه ، فبعث إلى الأوزاعي فقال لغيلان : « إن شئت ألقيت عليك سبعاً وإن شئت خمساً وان شئت ثلاثاً قال : ألق عليّ ثلاثاً فقال له . قضاء الله على ما نهى عنه ، قال ما أدري أيش تقول . قال : وأمر الله بأمر حال دونه فقال : هذه أشد عليّ من الأولى قال : فحرم الله حراماً ثم أحله ، قال : ما أدري أيش تقول ، قال : فأمر به فضربت رقبته »[3] ، والذي يظهر من سياق المجادلة أنها أقرب إلى الأحاجي والألغاز منها إلى الجدل الصحيح المعتمد على البراهين والأدلة ، وان عدم استطاعة غيلان بالرد على هذه الألغاز لا يبرّر قتله باعتبار أن أكثر المسلمين لا يستطيعون الإجابة عليها حتى في زمن الأوزاعي والغريب في الأمر أن الخليفة نفسه كان يجهل الإجابة على هذه الأسئلة فيحكى أنه قال للأوزاعي بعد أن أفتاه بقتل غيلان : « قد قلت يا أبا عمرو ففسر ، قال : نعم ، قضى على ما نهى عنه ، نهى آدم عن أكل الشجرة وقضى عليه بأكلها ، وحال دون ما أمر ، أمر إبليس بالسجود لآدم وحال بينه وبين ذلك

---

(١) وات ص ٤٧ .

(٢) تاريخ دمشق م جـ ١٤ ص ٩٣ .

(٣) نفسه جـ ١٤ ص ٩٦ .

وأعان على ما حرّم ، حرّم الميتة ، وأعان المضطر على أكلها » [1] .

ولا يستطيع الدارس أن يفسر الموقف الذي وقفه الأوزاعي من دماء بني أمية حيث حرمها على العباسيين مع أنه كان معرضاً لنقمتهم وبين افتائه بقتل غيلان لعدم إستطاعته الإجابة على بعض الأسئلة الغامضة ، فمثلاً كان ينبغي أن يسأل السؤال الثالث بهذه الطريقة : هل أعان الله المضطر أن يفعل ما حرمه عليه عند الضرورة ؟ إلا أنه يبدو أن النظر إلى القدرية كانت نظرة عدائية في أوائل القرن الثاني الهجري مما جعل التابعين وتابعيهم ينظرون بعداء إليهـا . ويروى أن هشاماً كان يصطحب غيلان معه في الحج ليفتي الناس وإنـه كان ذا عبادة وتأله ،وهذا يعني أن هشاماً لم يكن حاقداً عليه بعد توليه الخلافة مباشرة إذ لو كان ذلك لانتقم منه في بداية ولايته . ويذكر الذهبي : « وقد حج بالناس هشام بن عبد الملك سنة ست ومائة في أول خلافته وكان معه غيلان يفتي الناس ويحدثهم وكان ذا عبادة وتأله وفصاحة وبلاغة ثم نفذت فيه دعوة الإمام الراشد عمر بن عبـــد العزيز فصلب » [2] إلا أن إبن عساكر يذكر أن غيلان كان يفتي بالمدينة سنة ست ومائة فقال :« وكان غيلان يفتي الناس ويحدثهم بالمدينة سنة ست ومائة وأراد مكالمة محمد بن كعب فأمره بالتشهد ،فتشهد غيلان وقال : إن القرآن ينسخ بعضه بعضاً فلم يرد عليه محمد وطرده » [3] كما يورد ابن عساكر مناقشة أخرى جرت مع كل من عمر وغيلان ، فإن عمر أقرأ غيلان سورة يس فلما وصل إلى قوله تعالى (وَجعَلنا مِن بينِ أيديهِمْ سَدّاً ومن خلفِهِم سداً)قال له : قف ويلكَ من جعل السد بين أيديهم ؟ قال لا أدري ، قال : الله والله : زد ويلك(سواءٌ عليْهـم أأنذرتَهُم أم لم تُنذرهُم لا يُؤمِنون)قال:قف كيف ترى ؟ قال : كأني والله لم أقرأ هذه السورة قط ... أما هشام فأقرأه الفاتحة ثم

---

(١) العقد الفريد جـ ٢ ص ٣٨٠ .

(٢) تاريخ الاسلام جـ ٤ ص ٢٩٠.

(٣) تاريخ دمشق م جـ ١٤ ص ٩٥ .

قال له : على ما نستعين الله على أمر بيدك أم على أمر بيده » [١] . والغريب في الأمر أن غيلان في جدله لا يجيب المجادل بشيء من الأمر ويكتفي بالسكوت و عدم العلم في أكثر المجادلات مع أنه معروف عنه أنه لسن وفصيح فجميع من جادلهم من عمر إلى الأوزاعي إلى هشام لم يكن يبين حجة أو يظهر دليلاً ، ويوطح ذلك اكثر مجادلته مع أياس بن معاوية في حضرة عمر بن عبد العزيز فقدقال له اياس : « أخبرني عن العقل هل هو مقسوم او مقتسم.فأمسك غيلان، فقال له أجب ؟ فقال لا جواب عندي. فقال أياس:قد تبين لك امره يا امير المؤمنين، إن الله تبارك وتعالى يهب العقول لمن يشاء فمن قسم له منها شيئاً ذاده عن المعصية ومن تركه تهور، ثم سأله : أخبرني عن العلم أهو قبل العمل أم العمل قبله ؟ فقال غيلان :والله لا أجبتك فيها. فقال له اياس فدعها ولكن اخبرني عن الخلق هل خلقهم الله مختلفين أم مؤتلفين ؟ فنهض غيلان وهو يقول والله لا جمعني وإياك مجلس أبداً » [٢] ، مع العلم أن غيلان كان لسناً في الكلام فقد روى أن حسان بن عطية قال له : « يا غيلان والله لئن كنت أعطيت لساناً لم نعطه إنا لنعرف باطل ما جئت به » [٣] ، والذي أعتقده أن غيلان لم يكن يريد أن يعرض نفسه أمام الخليفة لأي مأخذ يأخذه به فيعاقبه عليه ، ولذلك كان يلتزم السكوت أو الناحية السلبية ، بينما إذا خلا للعامة فإنه يكثر من الكلام في القدر والمواعظ والجدال ، فمن مواعظه قوله لعمر حين سأله عن حاله فقال : « ذقت حلو الدنيا فوجدته مراً فأسهدت لذلك ليلي واظمأت له نهاري ، وكل ذلك حقير في جنب ثواب الله .فقال رجل ممن كان في المجلس: ما سمعت أبلغ من هذا الكلام ولا أنفع منه لسامعه فأنّى أوتيت هذا العلم ،قال غيلان : انما قصر بنا عن عا ما جهلناه ، تركنا العمل مهما علمنا ولو انا علمنا

---

(١) تاريخ دمشق م . جـ ١٤ ص ٩٧ .
(٢) تهذيب ابن عساكر جـ ٣ ص ١٧٨ .
(٣) تاريخ الاسلام جـ ٤ ص ٢٨٩ .

لأورثنا سقماً لا تقوم له أبداننا »[1] ، كما أورد ابن المرتضي موعظة طويلة لغيلان بعثها إلى عمر بن عبد العزيز نذكر منها : « أبصرت يا عمر وما كدت ، ونظرت وما كدت ، إعلم يا عمر انك أدركت من الإسلام خلقاً باليـاً ورسمـاً عامياً ، فيا ميت بين الاموات لا ترى أثراً فتتبع ولا تسمع صوتاً فتنتفع ،طفىء أمر السنة وظهرت البدعة ، أخيف العالم فلا يتكلم ، ولا يعطى الجاهل فيسأل وربما نجت الأمة بالامام وربما هلكت بالإمام فأنظر أي الإمامين أنت »[2] ، ونرى غيلان هنا يدعو عمر إلى إعطاء العلماء حرية الكلام للتعبـير عـن آرائهم بصراحة ويعتبر حرمانهم من هذا الحق من البدع وخلافاً للسنة ، وقد نقل ابن قتيبة موعظة لغيلان يبدو فيها أنه كان لسناً متكلماً وفيها يقول : « ان التراجع في المواعظ يوشك أن يذهب يومها ويأتي يوم الصاخّة . كل الخلق يومئذ مصيخ يستمع ما يقال له ويقضى عليه ،وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً.. إني رأيت قلوب العباد فيا رب متعبد لله بلسانه مغاير له بفعله ذلول في الانسياق إلى عذاب السعير في امنيته اضغاث أحلام يعبرها بالأماني والظنون»[3] ، ومن يقرأ كلام غيلان يجد رجلا متألهاً عابداً بعيداً عـــن الضلال أو الانحراف في العقيدة ويذكر أنه وعظ ميمون بن مهران برسالة حتى لا يلي بيت المال لمحمد بن مروان بالجزيرة فأثر في ميمون تأثيراً كبيراً حتى أنـــه قال : « وددت أن حدقتي سقطت وإني لم أل عملا قبل له ولا لعمر بن عبد العزيز »[4] . وقد عدّه ابن النديم من البلغاء وقال : « ولرسائله مجموع نحو ألفي ورقة »[5] .

---

(١) تاريخ دمشق م جـ ١٤ ص ٩٢ .
(٢) طبقات المعتزلة ص ٢٦ .
(٣) عيون الاخبار ٢ ص ٣٤٥ — ٣٤٦ .
(٤) طبقات ابن سعد جـ ٧ ص ٤٧٨ .
(٥) الفهرست ص ١٧١ .

٣ — اهم الاراء عند غيلان :

أول هذه الآراء كان القدر ، وهو ان الانسان يفعل ما يشاء باختياره ، لاعتقاده أن الله لا يأمر بالظلم ولا يأمر بالفاحشة أو العصيان بل إن ذلك كله من عمل الإنسان وهذا ما سمي عند المعتزلة فيما بعد بالعدل ، إذ أن غيلان كان أصلا من اصولهم كما سنوضح ، وقد بين رأيه في القدر في رسالة بعث بها إلى عمر ابن عبد العزيز يقول فيها : « ولكن الدعاة إلى النار هم الدعاة إلى معاصي الله، فهل وجدت يا عمر حكيما يعيب ما يصنع أو يصنع ما يعيب ، أو يعذب على ما قضى أو يقضي ما يعذب عليه ، أم هل وجدت رشيداً يدعو إلى الهدى ثم يضل عنه أم هل وجدت عدلاً يحمل الناس على الظلم والتظالم وهل وجدت صادقاً يحمل الناس على الكذب » [١] ، وقد استعان غيلان ببعض الآيات التي تؤيد رأيه في القدر مثل(إنا َهديناهُ السبيلَ إمّا شاكراً وإما كَفوراً) إلى غير ذلك من الآيات ، إلا أنه كان يقف عاجزاً أمام الآيات التي تبيّن مشيئة الله في أفعال العباد مثل(َوسَواءٌ َعليهِم أأنذَرتَهُم أم لم ُتنذِرهمُ)(وماتشاءونَ إلا ّ أنْ َيشاءَ الله) ... ولكنه رد على ذلك بنفي الظلم عن الله كما بينّا، أي أن الله قد يأمر العبد بفعل الخير ويعينه عليه ولكنه لا يأمره بفعل الشر أو يعينه على ذلك لأنه يعذب من يقترف إثماً ،ولو أن غيلان قد اكتفى بالتركيز على هذا الرأي لنجا من العقاب في اعتقادي، إلا أنه أحياناً كان ينادي بأن الخير والشر هو من فعل الانسان . قال الشهرستاني : « وكان غيلان يقول بالقدر خيره وشره من العبد » [٢] .

وكان غيلان أول من قال بخلق القرآن وهذا ايضاً من مبادىء المعتزلة . قال ابن نباتة : « وغيلان أول من تكلم في القدر وخلق القرآن في الاسلام » [٣]

---

(١) طبقات المعتزلة ص ٢٦ .
(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ١٤٧ .
(٣) سرح العيون ص ٢٨٩ .

أما المصادر الأخرى فإنها تنسب القول بخلق القرآن إلى الجعد بن درهم ومنهم ابن نباتة نفسه وأنا أؤيد هذا القول لأن الجعد قد قال بنفي الصفات كما سنوضح.

ومن آراء غيلان أن الإمامة تصلح لكل المسلمين ، ومن كان كفؤاً لها وليس من الضروري أن يكون قرشياً فقال : « وفي الامامة أنها تصلح لغير قريش وكل من كان قائماً بالكتاب والسنة وكان مستحقاً لها وانها لا تثبت إلا بإجماع الأئمة » [1] . ويعلق الشهرستاني على ذلك بقوله : « والعجب أن الأمة اجتمعت على أنها لا تصلح لغير قريش وبهذا دفعت الانصار عن دعواهم منا أمير ومنكم أمير » [2] وقد أخذ برأي غيلان هذا المعتزلة أيضاً وقد نادى الخوارج به كذلك . وقد عد بعض الدارسين القدماء غيلان من المعتزلة — فإبن المرتضي عده من الطبقة الرابعة من المعتزلة وقال : « انه أخذ المذهب عن الحسين بن محمد بن الحنفية ، ولم تكن مخالفته لأبيه وأخيه إلا في شيء من الارجاء » [3] ، ويقول في موضع آخر عن الحسن بن محمد : « من الطبقة الثالثة من المعتزلة وهو استاذ غيلان ويميل إلى الارجاء ولهذا قالت به الغيلانية من المعتزلة » [4] ، والواقع أن المعتزلة قد ظهروا بعد غيلان ، إلا أنه ألحق بهم على أساس أنه ممهد لحركتهم ، كما عد الخلفاء الراشدين الطبقة الأولى من المعتزلة وذلك قبل ظهور واصل بن عطاء مؤسس الاعتزال . وقد أيد الشهرستاني هذا القول من ناحية المعتزلة وغيلان إلا أنه رد موقفه من الارجاء وتأثره بهم إلى أبي ثوبان المرجيء ، وفرقته التي تسمى الثوبانية الذين زعموا « أن الايمان هو المعرفة والإقرار بالله تعالى وبرسله عليهم السلام وبكل ما لا يجوز في العقل أن يفعله وما جاز في العقل تركه فليس من الايمان وآخر العمل كله من الايمان. ومن القائلين

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ١٤٧ — ١٤٨ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) طبقات المعتزلة ص ٢٥ .
(٤) نفسه ص ١٧ .

بمقالته أبو مروان غيلان بن مروان الدمشقي لذا « فقد جمع غيلان خصالاً ثلاثاً: القدر والارجاء والخروج »[1]، أما أبو الحسن الاشعري فقد ذكر أن هناك فرقة الغيلانية وعدها من الفرقة السابعة من المرجئةوذلك لرأيه في الايمان فقال « الفرقـــة السابعـة من المرجئة (الغيلانية) أصحـاب غيلان، يزعمون أن الايمان المعرفـة بالله الثانية والمحبـــة والخضوع والاقرار بما جاء بـه الرسول وبما جاء من عند الله سبحانه وتعالى وذلك أن المعرفـة الأولى عنده اضطرار فلذلك لم يجعلها من الايمان »[2]وذكر محمد بن شبيب بعض آراء الغيلانية والشمرية من المرجئة في الايمان ونتبين منها أن الايمان لايتجزأ وإنه لا يحتمل الزيادة أو النقصان، فقال : « الغيلانية يوافقون الشمرية في الخصلة من الايمان أنه لا يقال لها إيمان إذا انفردت ولا يقال لها بعض إيمـان اذا انفردت، وان الايمان لا يحتمل الزيادة والنقصان، وانهم خالفوهم في العلم فزعموا أن العلم بأن الأشياء محدثة مدبرة ضرورة والعلم بأن محدثها ومدبرها ليس باثنين ولا اكثر من ذلك اكتساب. وجعلوا العلم بالنبي ﷺ وبما جاء من عند الله إكتسابـــاً، وزعموا انه من الايمان إذا كان الذي جاء من عند الله منصوصاً باجماع المسلمين ولم يجعلوا شيئاً من الدين مستخرجاً إيماناً، والشمرية والجهميـة والغيلانيـة والنجارية ينكرون أن يكون في الكفار إيمان وأن يقال أن فيهم بعض إيمان، ان كان الايمان لا يتبعض عندهم ـ وذكر زرقان عن غيلان أن الايمان هو الإقرار باللسان وهو التصديق وأن المعرفة بالله فعل الله وليست من الايمان في قليل ولا كثير »[3] والعلم الذي يشير اليه محمد بن شبيب يعني المعرفة التي قسمها غيلان إلى قسمين : معرفة فطرية ضرورية ومعرفة مكتسبة، وقد وضح الشهرستاني ذلك فقال : « زعم غيلان أن الايمان هو المعرفة الثابتة بالله والمحبة والخضوع له والاقرار بما جاء به الرسول وبما جاء من عند الله والمعرفـــة الأولى فطرية

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ١٤٨ .
(٢) مقالات الاسلاميين جـ ١ ص ٢٠٠ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .

ضرورية . فالمعرفة على أصلها نوعان فطرية وهو علمه بأن للعالم صانعاً ولنفسه خالقاً وهذه المعرفة لا تسمى ايماناً ، إنما الايمان هو المعرفة الثانية المكتسبة »[1] ويبدو أن غيلان كان منطقياً فلسفياً في بيانه للإيمان ، وهذا أول انواع الكلام الذي ظهر في أوائل القرن الثاني الهجري وربما أواخر القرن الاول ، مما فتح باب الكلام والجدل بعده في هذه المسائل . واعتقد أن غيلان قد أصاب في تحديده لمفهوم الايمان على أساس ان الاعتقاد الفطري لا يمكن ان يعتبر ايماناً لتباين مفهوم الفطرة عند الانسان ، أما الاشياء التي يكتسبها الفرد بالتلقي فيعتقد بها فهذا هو الايمان الصحيح ، ثم ربط هذا التلقي المكتسب بما جاء من عند الله والرسول وهو اعتقاد صحيح لا يخالف مفهوم الايمان كما جاء عن الرسول في تحديده لهذا المفهوم وهو قوله حين سئل عن الايمان « ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره »[2] .

ومن عد غيلان من المرجئة ابن النديم [3] ، والبغدادي الذي قال : « إنه جمع بين القدر والارجاء ويزعم أن الإيمان هو المعرفة الثانية بالله تعالى والمحبة ، والخضوع والاقرار بما جاء به الرسول ﷺ وبما جاء من الله تعالى ، وزعم أن المعرفة الاولى إضطرار وليس بإيمان »[4] . وهو هنا يسمي المعرفة الفطرية بالمعرفة الاولى والمعرفة المكتسبة بالمعرفة الثانية ، وقد عد غيلان من المرجئة لأن أساس مبدأهم وعمدته الكلام في الايمان والكفر ، قال ابن حزم : « اما المرجئة فعمدتهم التي يتمسكون بها الكلام في الايمان والكفر ، ما هما والتسمية بهما »[5] .

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ١٥٠ – ١٥١ .
(٢) مقالات الاسلاميين جـ ١ ص ٨٥ .
(٣) الفهرست ص ١٨١ .
(٤) الفرق ص ٢٠٦ .
(٥) الفصل في الملل والنحل جـ ٢ ص ٨٩ .

وقد عد ابن الخياط غيلان من المعتزلـــة الذين جمعوا أصولهم الخمسة وهو
ـحيد الذي ذكر ذلك من العلماء القدامى فقد قال : « وأما غيلان فكان
ـتقد الأصول الخمسة التي من اجتمعت فيه فهو معتزلي ، وهذه رسائله قد طبقت
لأرض » (١) ، والمعروف ان الأصول الخمسة التي يؤمن بها المعتزلة هي : التوحيد
العدل والوعيد والمنزلة بين المنزلين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ونلمح
ثر غيلان وأقواله في آراء بعض المعتزلة كالنظام وواصل بن عطاء وصالح قبه ،
النظام يأخذ قول غيلان في الإمامة وحق المسلمين كافة بها فيقول : ان الامامة
تصلح لمن قال بالكتاب والسنة من جميع الناس لقوله تعالى : (إنَّ أكرمَكُم عندَ
اللهِ أتقاكُم) (٢) . وواصل يأخذ عن غيلان آراءه ولكنه يعتبر رأس المعتزلة
بعده قال البغدادي : « الواصلية أتباع واصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة وداعيهم
إلى بدعتهم بعد معبد الجهني وغيلان الدمشقي » (٣) . وقد أخذت المعتزلة عن
غيلان إن الله لم يخلق الكفر والمعاصي ولا شيئاً من أفعال غيره ، أما صالح قبه
وهو معتزلي فقد زعم أن الله خلقها بأن خلق اسماءها وأحكامها » (٤) .

وقد كان غيلان مثار جدل من علماء عصره من مؤيد ومعارض له ، فقد كان
الحسن بن الحنيفة معجباً به فكان إذا رآه في الموسم يقول : « اترون هذا هو
حجة الله على أهل الشام ولكن الفتى مقتول » (٥) . ويبدو إن اياس بن معاوية
عندما ناظر غيلان ، قد اقتنع بوجهة نظره في عدل الله مع العلم أن أقوال غيلان
في المناظرة لا تذكر دائماً مما يوحي بأن بعض المتشددين كان يحذفها أو يهملها
ويذكر فقط كلام خصمه ، وإن أياس قد خشي أن يقول مقالة غيلان خوفاً من

---

(١) الخياط ، الانتصار ص ٩٣ (المطبعة الكاثوليكية — بيروت) ١٩٥٧ م .
(٢) الحميري ، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ص ٤٢ (طبعة بريل ليدن) ١٣٧٠ هـ .
(٣) الفرق ص ١١٧ .
(٤) مقالات الاسلاميين مـ ١ ص ٢٧٣ .
(٥) طبقات المعتزلة ص ٢٥ .

القتل فقد قيل له : « ما يمنعك أن تصنف في العدل وقد أبصرته ؟ فقال : قد رأيته ناظرت فيه غيلان وأبصرت الحق والعدل ولكني أخشى أن أقول فأصلب كما صلب »[1] . كما كان غيلان يجالس مكحول وقد اتهموه بالقدر من أجل ذلك فقد قيل له : يجالسك غيلان ؟ فقال : انما لنا مجلس فلا أستطيع أن أقول لهذا قم ولهذا اجلس[2] وقد نقم بعض معاصري مكحول عليه لهـــذا السبب فيذكر رجاء بن ابي سلمة عن ابي عبيد مولى سليمان : « ما سمعت رجاء بن حيوة يلعن أحداً إلا يزيد بن المهلب ومكحولاً – لعنه لكلامه في القدر »[3] ولعل ذلك هو الذي جعل مكحولاً في النهاية يأمر غيلان بعدم مجالسته حيث قال له:«لا تجالسني»[4].وقال :«ان دعاك غيلان فلا تجبه وإن مرض فلاتعده.. وقال حسب غيلان الله فقد ترك هذه الأمة في لجج »[5] .

ومن العلماء الذين وقفوا بعنف ضد غيـلان « الأوزاعي الذي ناظره وافتى بقتله ورجاء بن حيوة الذي كتب إلى هشام بن عبد الملك بعد قتل غيلان : قتله أفضل من قتل ألفين من الروم ، وعبادة بن نسي الذي قال عن هشام : أصاب والله .. ولأكتبن إلى أمير المؤمنين ولأحسنن رأيه »[6] .

ويذكر أن هشام قطع أطراف غيلان قبل قتله فبقي يتكلم ، ومعه صالـح أيضاً ، فقد قيل له بعد قطع أطرافه : كيف ترى بعد مـــا صنع بك ربك ! فقـــال لعن الله من فعل بي هذا ، واستسقى صاحبه فقال بعض من حضر : لا نسقيكم حتى تشربوا من الزقوم ، فقال غيلان لصالح : يزعم هؤلاء أنهم لايسقوننا حتى نشرب من الزقوم ولعمري لئن كانوا صدقوا إن الذي نحن فيـه ليسير في

---

(١) نفسه ص ١٣١ .
(٢) تاريخ دمشق م ج ١٧ ص ٨٨ .
(٣) تاريخ الاسلام ج ٥ ص ٥ .
(٤) لسان الميزان ج ٤ ص ٤٢٤ .
(٥) تاريخ دمشق م ج ١٤ ص ٩٦ .
(٦) لسان الميزان ج ٤ ص ٤٢٤ .

جنب ما نصير إليه بعد ساعة من عذاب الله ، ولئن كانوا كذبوا إن الذي نحن فيه ليسير في جنب ما نصير إليه بعد ساعة من روح الله فاصبر يا صالح . ثم مات صالح وصلى عليه غيلان ثم أقبل على الناس وقال : قاتلهم الله كم من حق أماتوه وكم من باطل قد احيوه ، وكم من ذليل في دين الله أعزوه ، وكم من عزيز في في دين الله أذلوه ، فقيل لهشام : قطعت يدي غيلان ورجليه وأطلقت لسانه ، إنه قد بكّى الناس ونبههم على ما كانوا عنه غافلين » [1] . ويذكر ابن عساكر « ان هشام قد دخله شيء بعد قتل غيلان » [2] . أي انه قد ندم على فعله لأنه لم يكن متأكداً في رأيي من أن غيلان يستحق القتل ولذلك كتب اليه رجاء يشجعه ويؤيده ، كما بعث اليه نمير بن أوس قاضي دمشق : « إن قتل غيلان من فتوح الله عز وجل العظام على هذه الأمة » [3] .

٤ — القدرية بعد غيلان :

استمر القول بالقدر في الشام على رأي غيلان بعد موته ، ولكن القدرية لم يكونوا فرقة قوية ، بل كانوا أفراداً متفرقين ، أما في العراق فقد قويت حركة المعتزلة حتى أتى المأمون واعتنقها .

ومن تلاميذ غيلان مسلم بن خالد الزنجي . ويذكر ابن المرتضي« ان الشافعي أخذ عنه » [4] ، ومن الخلفاء الأمويين الذين يذكر اعتناقهم للقدر الخليفة يزيد ابن الوليد قال الذهبي : « وممن اعتنق القدر من الخلفاء يزيد بن الوليد ، دعا الناس إلى القدر وحملهم عليه وقرب أصحاب غيلان » [5] .ومن القدرية الشاميين النعمان بن المنذر ١٣٢ هـ ، وحسان بن عطية ، وقد رماه بذلك سعيد بن عبد

---

(١) طبقات المعتزلة ص ٢٧ .
(٢) تاريخ دمشق م جـ ١٤ ص ٩٧ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) طبقات المعتزلة ص ٤٣ .
(٥) تاريخ الاسلام جـ ٥ ص ١٨٩.

العزيز إلا أن الأوزاعي أنكر عنه ذلك » [1] ، ومنهم ثور بن يزيد الكلاعي المتوفي ببيت المقدس سنة ١٥٣ هـ ، وثّقه جماعة وقال الأوزاعي : « هو ثقة إلا أنه كان يرى القدر ، وقال يحيى القطان ما رأيت شامياً أوثق من ثور بن يزيد وليس في نفسي عنه شيء تتبعه » [2] وهنا نلمح التحول الكبير في النظرة إلى القدرية،فبعد أن افتى الاوزاعي بقتل غيلان نراه يوثق ثوراً ولكن يحذر من القدر عنده ، ونرى غيره من العلماء يعتبره أوثق من في الشام ، ولم نسمع أن قدرياً قتل في القدر في الشام زمن تابعي التابعين . ويلاحظ أن الدولة العباسية لم تكن في تلك الفترة تتدخل مع القائلين بالقدر ، والإيذاء الذي حصل لثور كان من سكان حمص وليس من واليها ، فقد روي « إن سكان مدينة حمص قد أخرجوا ثوراً منفياً من مدينتهم وأحرقوا داره سنة ١٥٠ هـ » [3] ، كما يروى إن الاوزاعي رفض مصالحته أو أن يروى عنه ولكن سفيان الثوري أجاز الرواية عنه إلا في القدر فقال : « خذوا عنه واتقوا قرنيه » [4] . ومن القدريين سعيد بن بشير الازدي سنة ١٧٠ هـ ، ومنهم يحيى بن حمزة الحضرمي « كان قدرياً وقاضياً بدمشق سنة ١٨٣ هـ » [5] ، وهذا يدل على أن القدريين في هذه الفترة كانوا يتقلدون مراكز هامة في الدولة كالقضاء ، ومنهم صدقة بن عبد الله السمين توفي سنة ١٦٦ هـ كان قدرياً ليناً .

وقد أورد القلقشندي عن القدرية انهم يقسمون اليمين عند دخول أحدهم فيها . ولكنه لم يذكر الفترة التي ابتدأوا فيها ذلك أو المكان ، ولكننا نورد هذا اليمين على أساس أن الشام كانت منطلقاً للقدر ، وهذا اليمين هو : « إن العبد غير مكتسب وإن الجعد بن درهم محتقب ، وقلت : ان هشام بن عبد

---

(١) نفسه جـ ٥ ص ٦١ .
(٢) تهذيب ابن عساكر جـ ٣ ص ٣١٣ .
(٣) نفسه جـ ٣ ص ٣٨٤ .
(٤) نفس المصدر والصفحة .
(٥) تهذيب التهذيب جـ ١١ ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

الملك أصاب دماً حلالاً منه ، وأن مروان بن محمد كان ضالاً في اتباعه وآمنت بالقدر خيره وشره، وقلت : ما أصابني لم يكن ليخطئني وما اخطأني لم يكن ليصيبني ، ولم أقل : أنه إذا كان أمر قـــد فرغ منه ففيم أسدد وأقارب ، ولم أطعن في رواة حديث : (إعملوا فكلٌ ميسرٌ لما خُلق له) ، ولم أتأول معنى قوله تعالى : (وإنهُ في أمِّ الكتاب لدينا لعليٌّ حكيم) ، وبرئت ممـــا أعتقد ولقيت الله وأنا أقول ان الأمر غير أنف ، وبالله التوفيق والعصمة »[1] .

ونلاحظ أن القول بالقدر قد ارتبط في هذه الفترة ارتباطـاً وثيقاً بالعلوم الدينية وخصوصاً القرآن والحديث فاعتمد عليهما في نشأتــه ووجوده ، ولم يقتصر ذلك على القدرية بل تعدى إلى كافة الفرق التي نشأت بعد ذلك .

٥ — الجبرية والجعد بن درهم :

كان ظهور الجبريةفي الشامزمن التابعين رداً على ظهور القدرية ، فكانا مذهبين متقابلين من ناحية المشيئة ، فكما نادت القدرية بحرية الإرادة ، نادت الجبرية بأن الإنسان لا إرادة له معتمدة أيضاً على آيات وأحاديث نبوية كالتي أوردناها في القدر ، وأول من دعا إلى الجبر من التابعين في الشام هو الجعد بن درهم .وتسمى أحياناً الجبرية بالقدرية ، وذلك لأنها تثبت القدر ، فقيـــل : « ثم نفت طائفة أخرى من القدرية فعل العبد وقدرته واختياره ، وزعمت ان حركته الاختيارية ولا اختيار كحركة الأشجار عند هبوب الرياح ، وكحركات الأمواج وأنه على الطاعة والمصية مجبور وأنه غير ميسر لما خلق له . بل هو عليه مقسور ومجبور وأن تكليفه كتكليف المقعد أن يرقى إلى السبع الطباق فالتكليف بالإيمـان وشرائعه تكليف بما ليس من فعل العبد ولا هو بمقدور »[2] . ولقد اشتهر بهذه

---

(١) القلقشندي ، صبـــح الأعشى في كتابة الانشاء جـ ١٣ ص ٢٥٢ — ٢٥٣ (المطبعة الاميرية بالقاهرة) ١٩١٨ م وسيشار اليه بصبح الأعشى .

(٢) شفاء العليل ص ١٥ .

المقالة الجهم بن صفوان تلميذ الجعد بن درهم وقد عرف اتباعه بالجهمية، قال ابن حزم : « ذهبت طائفة إلى أن الإنسان مجبر على أفعاله وأنـــه لا استطاعة له أصلاً ، وهو قول جهم بن صفوان وطائفة من الأزارقة . ومعنى إضافة الفعـل إلى الإنسان إنما هو كما تقول: مات زيد وإنما أماته الله تعالى وقام البناء وإنما أقامه الله تعالى »[١] .

الجعد بن درهم :

هو من التابعين ، مؤدب مروان بن محمـــد ولهذا يقال له مروان الجعدي ، وأصله من حران ، ذكره الذهبي في الطبقة الثانية عشرة من التابعين الشاميين ، وقـــد أثر في تاريخ العقيدة في الشام حيث نادي بالجبر ونفي الصفات وخلق القرآن ، وقد هرب من الشام إلى العراق فحبسه واليها خالد بن عبد الله القسري ، ثم ضحى به يوم عيد الأضحى بعـد أن خطب الناس وقال : ضحوا يقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم ، انه زعم ان الله لم يتخـذ ابراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً ، ثم نزل فذبحه . وهذه قصة مشهورة رواها كافة المؤرخين القدامى تقريباً . وكانت هذه المقالة للجعد في تلك الفترة مجالاً لاتهامه بالزندقة حيث أن العقول لم تكن مهيئة بعد لتقبل مثل هذه الآراء ، بالإضافـة إلى ما عرف عن الجعد من الزندقة، قال ابن حجر مبيناً زندقته : « مبتدع ضال زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلاً ، وللجعد أخبار كثيرة في الزندقة منها أنـه جعل في قارورة تراباً وماء فاستحال دوداً وهوام ، فقال : أنا خلقت هذا لأني كنت سبب كونه ، فبلغ ذلك جعفر بن محمد فقال : ليقل كم هو . وكم الذكران منه والإناث إن كان خلقه وليأمر الذي يسعى إلى هذا أن يرجع إلى غيره فبلغه ذلك فرجع »[٢]. وقداعتبر ابن النديم « الجعد من أتباع ماني »[٣] وهم المانانية

(١) الفصل في الملل والنحل جـ ٣ ص ١٤ ـ وانظر مقالات الاسلاميين جـ ١ – ص٣١٢ ـ والفرق ص ٢١١ .

(٢) لسان الميزان جـ ٢ ص ١٠٥

(٣) الفهرست ص ٤٧٢ .

وكانوا يقولون : « مبدأ العالم كونين أحدهما نور والآخر ظلمة وكل واحد منهما منفصل عن الآخر »[1] ، وبعضهم اعتبره من القدرية كالبغدادي الذي أورد : «ثم حدث خلاف القدرية في القدر والاستطاعة من معبد الجهني وغيلان الدمشقي والجعد بن درهم »[2]. ويقال إن الذي قتل الجعد وهو خالد القسري كان زنديقاً أيضاً لذلك أمره هشام بذبحه يوم عيد الأضحى نكاية بخالد ، ويستبعد الدارس ذلك لأن الخليفة لن يقبل بولاية زنديق على العراق ، وقد أورد هذا الرأي ابن النديم فقال عن خالد القسري : « انه قتل الجعد يوم أضحى وجعله بدلاً من الأضحية بعد أن قال ذلك على المنبر بأمر هشام،فإنه كان يرمي ـ أعني خالداً ـ بالزندقة ، وكانت امه نصرانية »[3] . إلا أن الباحث قد يعتقد ان هشام أراد أن يختبر خالداً فيما يرمي به من الزندقة فأوعز اليه بقتل الجعد والتضحية به ليرى تأثير ذلك على خالد وما يرمي به . وكان الجعد قد هرب من الشام إلى العراق بعد أن شهد عليه ميمون بن مهران عند هشام فقد أورد البلاذري عنه ، « كان دهرياً ويقال كان معتزلياً شهد عليه ميمون بن مهران أنه قال له ووعظه لشاة قباذ أحب إلي مما تدين به فقال له قتلك الله وهو قاتلك ويقال ان ميمون بن مهران وعدة شهدوا عند هشام على الجعد بن درهم بالكفر فطلبه هشام فهرب إلى حران ثم أنه ظفر به فحمل إلى هشام فأخرجه من الشام إلى العراق وكتب إلى خالد بن عبد الله القسري وهو عامله على العراق بأن يحبسه» ..[4] والمعروف أن الجعد نشأ بحران وأخذ عن الصابئة واليهود الذين كانوا بها ، وقد ورد إسم الصابئة في القرآن مع أهل الكتاب ، وأن منهم من يعمل صالحاً قال تعالى:(إنَّ الذينَ آمنوا والذين هادُوا والنصَارى والصابئينَ مَنْ آمنَ بالله واليوم الآخِرِ وعَملَ صالِحاً فلهُمْ أجرُهم عندَ ربّهِمولا خَوْفٌ عليهِمولا هم

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٤٥٨ .

(٢) الفرق ص ١٨ .

(٣) الفهرست ص ٤٧٢ – ٤٧٣ .

(٤) انساب الأشراف م جـ ٢ ص ١٢٢ .

يحزنون) ، وقد كان والي حران والجزيرة مروان بن محمد الذي تتلمذ على يد الجعد حتى أصبح يلقب مروان الجعدي وذلك أنه كان يرى رأيه واعتنق مبادئه .

آراء الجعد بن درهم :

من آراء الجعد التي عرفت عنه قوله بالجبر وخلق القرآن ونفي الصفات ، أما الجبر فيعني أنه مثبت للقدر ومعنى ذلك ان ما يصيب الإنسان هو من الله ، بينما القدرية تنفي القدر ، وقد أخذت المعتزلة القول بالقدر عن القدرية وغيلان، وأخذت القول بخلق القرآن ونفي الصفات عن الجعد والجبرية فكان غيلان والجعد هما الرافدان لحركة المعتزلة ، وقد عد القلقشندي الجعد معتزلياً ، كما عد غيلان أيضاً فقال عن الجعد : « وممن علت رتبته فيهم الجعد بن درهم ، اجتمع على مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وأخذ مروان عنه مذهبه في القول بالقدر وخلق القرآن وعلت رتبته عنده وبه سمي مروان المذكور الجعدي »[1] . وقد ذكر ابن نباتة أن الجعد « مولى بني مروان أول من تكلم بخلق القرآن من أمة محمد بدمشق ثم طلب فهرب ثم نزل الكوفة فتعلم منه الجهم بن صفوان القول الذي نسب إليه وهو الجهمية »[2]، وقد ذكر لنا قول بعضهم أنه « اخذ القول بخلق القرآن عن رجل يهودي يدعى طالوت بن أعضم ، وقد أخذه عن طالوت ابان بن سمعان »[3] ، وقد كان الجعد يلاقي كثيراً من المعارضة والسخرية أحياناً لهذا القول فقد دخل عليه يوماً بهلول فقال: «احسن الله عزاءك في (قل هو الله أحد) فإنها ماتت ! قال وكيف تموت ! قال : لأنك تقول : انها مخلوقة ، وكل مخلوق يموت »[4] . وقد كان قول الجعد بخلق القرآن نتيجة منطقية لقوله

---

(١) صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٥١ .
(٢) سرح العيون ص ٢٩٣ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) نفسه ص ١٩٤ .

بنفي الصفات ، وذلك أنه لا يصح أن يتصف الله سبحانه بصفات يتصف بها البشر ، كالكلام ، وضد ذلك كالبكم ، وفي القرآن آيات فيها بعض الصفات كقوله تعالى : (وكلَّم اللهُ موسى تكليماً)، النساء ١٦٤ ـ وقوله :(واتَّخذَ اللهُ ابراهيمَ خليلاً)، النساء ١٢٥، وقد قال ابن تيمية في ذلك : « كان الكفار بالرسل ينكرون حقيقة خلة ابراهيم وتكليم موسى ، ولما نبعت البدع الشركية في هذه الأمة أنكر ذلك الجعد بن درهم فقتله المسلمون لما ضحى به أمير العراق خالد القسري »[1] . وكانت مقالة الجعد بنفي الصفات لتنزيه الله عن أن يوصف بما يوصف به البشر من أعمال أو ان يكون له حواس كحواسهم كالعين واليد ثم أخذ المعتزلة يفسرون ذلك تفسيراً مجازياً ، وقد حاول الجعد أن يبحث هذه المسألة مع وهب بن منبه فرفض ، قال الذهبي : « وكان الجعد أول من تفوه بأن الله لا يتكلم وقد هرب من الشام .. وكان يسأل وهب بن منبه عن الصفة فقال يا جعد ويلك ! انقص من المسألة إني لأظنك من الهالكين ، لو لم يخبرنا الله في كتابه أن له يداً ما قلنا ذلك وإن له عيناً ما قلنا ذلك »[2] ، وهذا يمثل الاختلاف بين أهل السنة وبين الفرق الاخرى ومنها الجبرية ، فقد كان أهل السنة يؤمنون بما جاء عن صفاته دون تفسير أو تعليل ، يقول ابن تيمية :«اتفق سلف الأمة وائمتها وسائر أهل السنة وأهل المعرفة أن الله نفسه يُحِب ويُحَب وانكرت الجهمية ومن تبعهم محبته وأول من أنكر ذلك الجعد بن درهم شيخ الجهم بن صفوان »[3] . وهذا الرأي للجعد أخذه المعتزلة وسموه (التوحيد) قال القلقشندي عن المعتزلة : « وهم يسمون أنفسهم أهل التوحيد وأهل العدل ويعنون بالتوحيد نفي الصفات القديمة عن الله تعالى كالحياة والعلم والإرادة

---

(١) تفسير ابن تيمية ص ١١٩ – ١٢٠

(٢) تاريخ الاسلام جـ ٤ ص ٢٣٩ .

(٣) ابن تيمية ، مجموعة الرسائل الكبرى جـ ١ ص ٣٩٥ ، ط الأولى (المطبعة العامرة الشرفية بمصر) ١٣٢٣ هـ .

والقدرة »[1] ، والمعروف أن التوحيد هو أصل من اصول المعتزلة الخمسة .

ومن الفرق التي تأثرت بالجعد فرقة تسمى الحمارية من القدرية فقد أخذوا عنه قوله : « ان النظر الذي يوجب المعرفة تكون تلك المعرفة فعلا لا فاعل لها »[2] وقيل انهم من « معتزلة عسكر مكرم ، اختاروا من بدع أصناف القدرية ضلالات مخصوصة »[3] .

موقف الأمويين من القدرية والجبرية :

حاول بعض المحدثين تصوير كره الأمويين للقدرية وخصوصاً غيلان بان هذه الدعوى تنفي حقهم الالهي في الحكم ، باعتبار ان الخليفة كان يعتبر نفسه خليفة لله في أرضه ، ومناداة غيلان تنفي عنهم هذا الحق ، وهذا قول باطل لا أساس له من الصحة فإن الخليفة هشام بن عبد الملك الذي قتل غيلان هو نفسه الذي قتل الجعد بن درهم الذي ينادي بالجبر وانه لا اختيار للانسان في أفعاله ، فلو كان ما يدعونه صحيحاً لقرّب الجعد واعتنق آراءه . ونضيف بان بعض الخلفاء الامويين قد اعتنقوا القدر وبعضهم اعتنقوا الجبر عندما آمنوا بافكارهما ، فالخليفة يزيد بن الوليد اعتنق القدر وقرب أصحابه ،واعتنق مروان ابن محمد الجبر واتبع الجعد بن درهم حتى لقب بمروان الجعدي .

وعن مواقف الامويين أيضاً ان بعض المحدثين يدعون أنهم كانوا مساندين من المرجئة وهذا ايضاً رأي يفتقر للتأييد . فقد ادعى وات « ان المرجئة كانت حركة مساندة للامويين لتسليمهم بالإمام وقبولهم له حتى ولو على أشياء يعترض عليها »[4]. فمثل هذه الآراء من تأييد الامويين لأي من الفرق التي كانت موجودة يفتقر الى البرهان .

---

(١) صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٢٥١ .

(٢) الفرق ص ٢٧٩ .

(٣) نفسه ص ٢٧٨.

(٤) وات ص ٤٦ .

٦ - أهل السنّة :

اعتبر المحافظون على العقيدة كما توارثوها عن الصحابة دون الجدل فيها أو الخروج على المفهوم السائد لها أهل السنّة ، وقد كان عامة أهـل الشام من أهل السنة ، أما ما ظهر من قدرية وجبرية فلم يكن لها تأثير كبير على الشاميين ، الا ان تأثير هاتين الفرقتين كان على العراقيين كبير ، وذلك يرجع إلى أن أهل الشام كان أكثرهم عرباً وكان عدد كبير من الصحابة قـد نزل بينهم وأثروا فيهم بعكس العراق الذي كان يحوي كثيراً من الموالي والعناصر الاجنبية ، ثم ان بُعد العراق عن مركز الخلافة بادىء الأمر جعل مجال انتشار العقائد الجديدة أكثر لبعدها عن يد السلطان الذي كان لا يتساهل بادىء الأمر عن البطش بأي رأي خالف في الدين لما هو متعارف عليه في مجال العقيدة . فلما أتى العباسيون كانت النظرة إلى أصحاب الفرق قد خفت حدتها مع وجود بعض الخصومات المذهبية ، وقد بين أبو الحسن الأشعري أهم مبادىء أهل السنة فقال :« الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء من عند الله ، وما رواه الثقـات عن رسول الله ﷺ لا يردون من ذلك شيئاً ، ويرون في الصفات ان الله سبحانه على عرشه كما قال (الرحْمنُ على العَرْشِ اسْتَوى) وان له يدين بلا كيف ، وان له عينين بلا كيف ، أما في المشيئة فقالوا : إنه لا يكون في الأرض خير ولا شر إلا ما شاء الله ، وان الأشياء تكون بمشيئة الله كما قال عز وجل (وما تشاؤون إلاّ أن يَشاءَ الله)[1] . وقد اعتبر ابن قتيبة أهل السنة بأنهم أصحاب الحديث وجميع الفرق الاخرى بأنهم أصحاب الكلام ، ويعني بذلك ان أهل السنة يؤمنون بما جاء في الكتاب والحديث النبوي دون تحوير أو جـدل بينما تعمل الفرق الأخرى العقل وتستنبط ما تراه يوافقها من معانٍ وآراء فقال:« ولو اردنا ان ننتقل عن اصحاب الحديث ونرغب عنهم إلى أصحاب الكلام ونرغب منهم

---

(١) مقالات الاسلاميين جـ١ ص ٣٢٠-٣٢١ .

لخرجنا من اجتماع الى تشتت وعن نظام الى تفرق »[1] ونحن نرى أن مذهب أهل السنة هو ما جاء في القرآن ومن أحاديث الرسول ومثل ذلك « ترك الجدل ... وصلاة الجمعة خلف كل بر وفاجر – والقرآن كلام الله والصبر تحت لواء السلطان وعدم الخروج على الامراء بالسيف وان جاروا وان لا نكفر أحداً وان عمل بالكبائر والكف عن مساوىء أصحاب رسول الله ، وأفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي »[2] ، ولو طبقنا هذه المبادىء على أهل الشام لوجدناها منطبقة عليهم منذ عصر الصحابة وإلى ما بعد القرن الثاني الهجري ، فلم نسمع مثلاً ان فتنة قامت على الخليفة أو عصياناً حدث ، بل كان أهل الشام هم سيف السلطان الأموي الذي يوجههم للقضاء على الفتن في العراق والحجاز وغيرهما ، كما لمحنا موقفهم من أصحاب القدر والجبر من الموالي الذين تأثروا بأصحاب الديانات الأخرى في الشام وكيف ان تأثير هؤلاء الموالي كان على نطاق محدود في الشام يكاد يكون فردياً . وقد فهم أهل السنة العدل على أنه « كان عادلاً بالعدل الذي قام بنفسه ومحسناً بالإحسان الذي قام بنفسه »[3] ،« كما أنهم يؤمنون بما اخبر الله به في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل هم الوسط في فرق الامة كما ان الامة هي الوسط في الامم »[4].

عمر بن عبد العزيز أول متكلمي أهل السنّة :

اعتبر عمر بن عبد العزيز « أول متكلمي أهل السنة من التابعين وله رسالة بليغة في الرد على القدرية »[5] وكان عمر مع شهرته بالجدل والمناظرة يكره ذلك

---

(١) ابن قتيبة . تأويل مختلف الحديث ص ١٦ ، صححه وضبطه محمد زهري النجار ، (دار القومية العربية للطباعة والنشر بالقاهرة) ١٩٦٦ م .
(٢) تهذيب ابن عساكر ج ٣ ص ١٣١ – ١٣٢ .
(٣) مجموعة الرسائل الكبرى ج ١ ص ٣٥٩.
(٤) نفسه ج ١ ص ٣٩٥ .
(٥) الفرق ص ٣٦٣ .

ولولا انه خليفة ومضطر الى مجادلة من يراه خارجاً على العقيدة لما جادل ، فقد روى عنه الأوزاعي قوله « اذا رأيت قوماً يتناجون في دينهم دون العامة فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة »[1] وكان عمر يحب أن يكون دينه دين الفطرة السمحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا جدل ولا فلسفة فكان يقول: «ديننا دين العجائز وصبيان المكاتب ودين الاعراب »[2] ، ومع كره عمر للمجادلة الا أنه كان يحبذ المذاكرة في الدين والتدارس فيه بقصد المعرفة بين الرجال فقال « رأيت ملاحاة الرجال تلقيحاً لألبابهم »[3]

وقد رأينا جدل عمر مع غيلان وكيف أنه قطع غيلان فامتنع عن الكلام طيلة خلافة عمر ، وقد اعترف غيلان بقدرة عمر على المناظرة والإفحام[4] . كما جادل عمر الخوارج وله معهم مناظرات كثيرة ، خصوصاً خوارج الجزيرة والمعروف ان خوارج الجزيرة نشأوا منذ معركة النهروان حيث نجا تسعة منهم فتفرقوا في الاقطار الاسلامية ومنهم « رحلان صارا الى ناحية الجزيرة ومن أتباعهما كان خوارج الجزيرة »[5] . وكان عمر يعتمد في مناظراته معهم على القياس في حوادث حدثت زمن أبي بكر وعمر احياناً وعلى قوة اقناعه بالحجج الواضحة المستمدة من القرآن والسنة فقال لهم مرة « أفبذنبي تخرجون من دينكم وتسفكون الدماء وتنتهكون المحارم ولو كانت ذنوب أبي بكر وعمر مخرجة رعيتهما من دينهم كانت لهما ذنوب ، فقد كانت آباؤكم في جماعتهم فلم ينزعوا»[6]. وقد استشهد عمر بحوادث في القرآن لتأييد وجهة نظره حين أراده الخوارج

---

(١) جامع بيان جـ ٢ ص ٩٣ .

(٢) المكي – قوت القلوب في معاملة المحبوب جـ ٢ ص ٢٥٨ . مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر) ط الاولى ١٩٦١ م . وسيشار اليه بـ قوت القلوب .

(٣) جامع بيان جـ ٢ ص ١٠٨ .

(٤) انظر التنبيه ص ١٥٩ .

(٥) الفرق ص ٨٠ .

(٦) سيرة ابن الجوزي ص ٧٨ .

لعن أقاربه من خلفاء بني أمية ، فضرب لهم مثلاً بفرعون وكيف أنهم لا يلمنونه فبالاحرى ان لا يلعن أقاربه أو يبرأ منهم وان من نطق بالشهادتين فقد حقن دمه ووجبت حرمته ... فوافقوا على كلامه [1] الا انهم اقنعوه بعدم تولية يزيد للخلافة من بعده وانه هم بخلعه فدس له بنو أمية السم فقتلوه ، وقد روى ذلك معظم المؤرخين كالبلاذري والطبري ، فقد قال الطبري : « ان خارجيان ناظرا عمر فقالا له : اخبرنا عن يزيد لم تقره خليفة بعدك قال صيّره غيري قال أفرأيت لو وليت مالا لغيرك ثم وكلته الى غير مأمون عليه أتراك كنت أديت الأمانة إلى من ائتمنك قال: فقال انظراني ثلاثاً فخرجا من عنده وخاف بنو مروان ان يخرج ما عندهم وفي أيديهم من الأموال وان يخلع يزيد فدسوا اليه من سقاه سماً فلم يلبث بعد خروجهما من عنده الا ثلاثاً حتى مات » [2] ، وقد كان عمر ليناً مع الخوارج لا يقاتلهم ما داموا لا يقاتلون ولا يعتدون على أحد ، وكان ينهي سليمان بن عبد الملك عن قتلهم ويقول « ضمنهم الحبوس حتى يحدثوا توبة » [3] ، ولعمر محاورة طريفة مع خارجيين أوردها ابن عبد الحكم ، نورد منها ما يلي « قالا : السلام عليك يا انسان . فقال . وعليكما السلام يا انسانان. قالا : طاعة الله أحق ما اتبعت . قال : من جهل ذلك ضلّ . قالا : الأموال لا تكون دولة بين الاغنياء . قال : قد حرموها ... قالا : تقام الصلاة لوقتها. قال : هو من حقها . قالا : اقامة الصفوف في الصلوات . قال : هو من تمام السنة . قالا : إنا بعثنا اليك . قال : بلغا ولا تهابا . قالا : ضع الحق بين الناس. قال : الله أمر به قبلكما . قالا : لا حكم إلاّ لله . قال : كلمة حق ان لم تبتغوا بها باطلا . قالا : ائتمن الأمناء . قال : هم أعواني ... قالا : فمن دخل في الاسلام فقد أمن . قال : لولا الاسلام ما أمنا ...» [4] . ومن هذه المناظرة

---

(١) انظر العقد الفريد جـ٢ ص ٤٠١–٤٠٣ .

(٢) تاريخ الطبري جـ ٥ ص ٣١١ .

(٣) سيرة ابن الجوزي ص ٣٩.

(٤) سيرة ابن عبد الحكم ص ١٧٤.

نتبين ان عمر كان يعطي المناظر كل الحرية في ان يقول ما يراه مما لم يكن متوفراً مع غيره من الخلفاء ، حتى انهم كانوا لا يسمحون بالمناظرة أصلاً ، ويرى الباحث ان عمر يشجع مناظره على الكلام بما يريد وذلك من قوله (بلغاولا تهابا)، والملاحظ في هذه المحاورة ان الخارجيين قد بدءا عمر بداية جافة حينما اسقطا مناداته بالخلافة ثم دعياه (بإنسان) ولكنه لم يغضب منهما واستمر في مناقشتهما بالحكمة والدليل .

الزهري والسنة :

وكان الزهري من التابعين ومن أهل السنة بالشام ، وهو« الذي أفتى عبدالملك ابن مروان بدماء القدرية » [1] ، وكان يقول في القدر « الإيمان بالقدر نظام التوحيد فمن وحد ولم يؤمن بالقدر نقض كفره بالقدر توحيده » [2].

علماء أهل السنة زمن تابعي التابعين :

وفي زمن تابعي التابعين بقي النظر الى مسائل العقيدة كما كانت عليه زمن التابعين ومن أهم العلماء في هذه الفترة المهتمين بشؤون الكلام: الاوزاعي وأبو اسحق الفزاري ومحمد بن الوليد الزبيدي . وقد كان الاوزاعي أهمهم فهو الذي جادل غيلان بحضرة هشام وأفتى بقتله للقدر ، وللاوزاعي بعض الآراء في القدر والجبر :«حدث أبو اسحق الفزاري قال: قال الاوزاعي : أتاني رجلان فسألاني عن القدر فأحببت أن آتيك بهما تسمع كلامهما وتجيبهما قلت : رحمك الله أنت أولى بالجواب. قال : فأتاني الاوزاعي ومعه الرجلان فقال تكلما. فقالا: قدم علينا ناس من أهل القدر فنازعونا في القدر ونازعناهم فيه حتى بلغ بنا وبهم الى ان قلنا: الله جبرنا على ما نهانا عنه وحال بيننا وبين ما أمرنا به ورزقنا ما حرم علينا. فقلت يا هؤلاء ان الذين أتوكم بما أتوكم به قد ابتدعوا بدعة وأحدثوا حدثاً

---

(١) الفرق ص ٣٦٣ .

(٢) تاريخ الاسلام جـ ٥ ص ١٤٢ .

واني أراكم قد خرجتم من البدعة الى مثل ماخرجوا اليه. فقال: أصبت وأحسنت يا أبا اسحق - وذكر عن بقية بن الوليد قال سألت الزبيدي والاوزاعي عن الجبر فقال الزبيدي: أمر الله أعظم وقدرته أعظم من ان يجبر أو يعضل ولكن يقضي ويقدر ويخلق ويجبل عبده على ما أحب، وقال الاوزاعي: ما أعرف للجبر أصلاً من القرآن والسنة فأهاب ان اقول ذلك ولكن القضاء والقدر والخلق والجبل فهذا يعرف في القرآن والحديث »[1]. وكان الاوزاعي لا يحب استعمال كلمة (جبر) ويفضل كلمة (جبل) عليها آخذاً ذلك أيضاً من حديث نبوي فقال « ان السنة جاءت بـ (جبل) ولم تأت بجبر فإن النبي ﷺ قال لأشج عبد القيس: ان فيك لخلقين يحبهما الله- الحلم والاناة - فقال: أخلقين تخلقت بهما أم خلقين جبلت عليهما؟ فقال: بل خلقين جبلت عليهما »[2]

وكان الأوزاعي يعظ بعض القدريين برسائل يبعثها اليهم فقد « كتب الى صدقة ابن عبدالله المعروف بالسمين رسالة في القدر يعظه فيها »[3]، كما أنه نصح أبا مسلم الفزاري بعدم الرواية عن ثور بن يزيد لأنه قدري: قال أبو مسلم الفزاري قلت للاوزاعي حدثنا ثور بن يزيد فغضب غضبة شديدة ثم قال: قال رسول الله ﷺ ستة لعنتهم ولعنهم الله وكل نبي مجاب الدعوة: الزائد في كتاب الله، والمكذب بقدر الله - وثور بن يزيد أحدهم ... ثم قال لي: لا تأخذ دينك عنه ولا عن محمد بن اسحق فأنه كان يرى الاعتزال. قال أبو مسلم فمحيت كتابي الذي سمعته من ثور وألقيته في التنور »[4].

أما في الصفات الالهية فكان الاوزاعي شأن أهل السنة يؤمن بها دون كيفيتها أو الخوض في بيانها كما أوضحنا في التفسير، وقد قال: « كنا والتابعون

---

(١) مجموعة الرسائل الكبرى جـ ١ ص ٣٣٩ .
(٢) تفسير ابن تيمية ص ٦٠ .
(٣) تهذيب ابن عساكر جـ ٦ ص ٤١١ .
(٤) نفسه جـ ٣ ص ٣١٣ .

متوافرون نقول ان الله تعالى ذكره فوق عرشه ونؤمن بما وردت السنة به من صفاته... وسأل الوليد بن مسلم الأوزاعي ومالك وغيره من أهل السنة عن الأخبار التي جاءت في الصفات فقالوا : أمروها كما جاءت بلا كيف... وهو رأي الزهري ومكحول ايضاً» [١] ، وقد قال الأوزاعي والزهري ومكحول في قوله تعالى(إن يأتيهم اللهُ في ظُللٍ من الغَمام) «أما الاتيان المنسوب الى الله فإنه يمرّ كما جاء » [٢]، وكان الأوزاعي يكره الأسئلة المتعلقة بالصفات ويعتبر سائلها ضالاً وسؤاله بدعة ، ويعتبر ذلك من الجدل الذي حذر منه الرسول والصحابة والتابعون ، وكان يفضل العمل على الجدل فيقول : « بلغني أن الله إذا أراد بقوم شراً ألزمهم الجدل ومنعهم العمل » [٣] ويقول : « ادركت الناس وهم يقولون الإيمان قول وعمل » [٤] . وكان الزبيدي يشابه الأوزاعي في نظرته للقدر والجبر فقال في الجبر: «إنما يجبر العاجز ، والله أجلّ وأعظم من أن يجبر أحداً ـ يعني أنه يخلق إرادة العبد فلا يحتاج إلى اجباره »[٥] .

وفي العصر العباسي خف تأثير السلطان على علماء الشام ومتكلميهم لبعدهم عن مركز الخلافة أو لتغيير النظرة من الخلفاء نحو المتكلمين ولكن العامة في الشام كان لها تأثير كبير على هؤلاء العلماء يفوق تأثير الحكام ، وكان العامة كما رأينا من أهل السنة متأثرين بعلماء أهل السنة في الشام فكانوا أحياناً يتولون عقاب من يرود خارجاً عليهم في رأيه كما فعل أهل حمص حين نفوا ثور بن يزيد الكلاعي من حمص إلى بيت المقدس سنة ١٥٠ هـ وأحرقوا داره ، مما يدل أن العامة كانت تتولى العقاب في الشام زمن العباسيين وذلك لبعد الدولة . أما في بغداد أو

---

(١) مجموعة الرسائل الكبرى جـ ١ ص ٤٣١ – وتفسير ابن تيمية ص ٣٢٥ ، ٣٨٧ .
(٢) تفسير ابن تيمية ص ٣٣٢ .
(٣) جامع بيان جـ ٢ ص ٩٣ .
(٤) التنبيه ص ١٥٢ .
(٥) تفسير ابن تيمية ص ٦٠ .

العراق فلم نسمع بعالم ينفى من قبل العامة لمخالفته رأيهم إذ أن الخليفة هو الذي يتولى عقابه وإصدار الحكم عليه .

ويلاحظ في هذه الفترة أن هناك علماء اتهموا بأكثر من فرقة مثل محمد بن راشد الدمشقي فقد قيل إنه شيعي وإنه قدري وأنه بريء منهما . فقد قال عنه إبراهيم الجوزاني : « كان مشتملاً على غير بدعة — وقال عبد الرحيم بن إبراهيم . كان يذكر بالقدر وقال النسائي ثقة ، وقال أبو زرعة الدمشقي، بلغني عن أبي مسهر قال : كان يرى الخروج على الأئمة »(١) . فهذا العالم وهو من التابعين رأوا فيه ثلاثة اتجاهات مختلفة : التشيع والقدر والخروج ، وذلك لأنه ربما أيد فكرة من أفكار كل فرقة فاتهم بأنه منتم إليها، وهذا يدل على أن بعض المسلمين كان يقف إلى جانب بعض الفرق في بعض آرائها ، ويروى عن محمد بن راشد أنه كان معتزلاً شيعياً فقال ابن المرتضي : « محمد بن راشد صاحب مكحول — هو من القدرية — وقال شعبة هو معتزلي شيعي »(٢) ، وربما قصد بالمعتزلي أنه قدري .

ويبدو أن أكثر أصحاب مكحول اتهموا بالقدر ، فهذا برد بن سنان قال عنه أبو حاتم : « كان صدوقاً قدرياً »(٣) ، بينما « ذكره ابن حيان في الثقات ،وقال يزيد بن زريع : ما رأيت شامياً أوثق من برد »(٤) .

٧ — الصوفية والتصوف :

لم يكن التصوف يعني الرهبانيــة في الاسلام على مــر العصور وذلك لأن الإسلام حض على الابتعاد عنها والاقبال على العمــل ، وقد بــين القرآن أن

---

(١) تهذيب التهذيب جـ ٩ ص ١٥٩ — ١٦٠ .

(٢) طبقات المعتزلة ص ١٣٦ .

(٣) تهذيب التهذيب جـ ١ ص ٤٢٩ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

رهبانية أهل الكتاب لم تكن إلا ابتداعاً منهم ، قال تعالى : (ورُهبانِيّةً إبتَدَعوهاما كَتبناها عليهم إلاّ ابتِغاءرضوانِ الله، فما رَعوْها حقّ رِعايَتها فآتَيْنا الذين آمنُوا مِنهُم أجرَهم وكثيرٌ مِنهُم فاسِقون)،سورة الحديد ٢٧ ، وإننا نجد في القرآن آيات تدل على أن الله أحل التنعم بالطيبات من الرزق ، وكذلك نجد أحاديث نبوية تحل ذلك ، إلا أننا نرى أيضاً بعض الاحاديث تنفر من الدنيا وتزهد فيها ،وهذا من ميزات الاسلام الذي جمع بين المادة والروح فكان الهدف ليس الإقبال على متع الحياة فقط بل النظر إلى الآخرة ، فقد قال الرسول : « لست من الدنيا وليست مني اني بعثت والساعة نستبق وفي لفظ أنتم والساعة كهاتين »[(١)] ، لذا اتخذ مفهوم التصوف زمن الرسول والصحابة ثم التابعين وتابعيهم في الشام خاصة في القرنين الأول والثاني للهجرة شكل الزهد والعبادة والرضى بالقليل واحتمال الفقر والمرض . وقد كان لبس الصوف دلالة على التخشن والابتعاد عن ترف الدنيا ولكن لم يتخذ ذلك شعاراً في هذين القرنين .

وقد أورد ابن الجوزي عن سبب التسمية فقال : « ذهب قوم إلى أن التصوف منسوب إلىأهل الصفة فيهم العرباض بن سارين كانوا ينامون في المسجد »[(٢)] ، وأعتقد ان هذا القول غير صحيح بدليل أن العرباض نفسه قد امتلك الأموال في الشام بعد ذلك ، وأن وجودهم في المسجد ما كان إلا لضيق في المعيشة ، فلما فتحت الاقطار تخلوا عن هذه الحياة ، فقد قال العرباض ابن سارين بعد نزوله الشام: « لولا أن يقال فعل أبو نجيح لألحقت مالي سبله ،ثم لحقت وادياً من أودية لبنان عبدت الله حتى أموت»[(٣)] ، فلم يكن إذن أصحاب الصفة إلا جماعة من فقراء المهاجرين ، وقد تحدث العرباض نفسه عن ذلك

(١) تهذيب ابن عساكر جـ ٣ ص ١٤٠ .
(٢) تلبيس إبليس ص١٧٣ .
(٣) سير اعلام النبلاء جـ٣ ص٢٨٠.

فقال : لا كنا أصحاب الصفة ما مِنّا رجل له ثوب تام ، ولقد اتخذ العرق في جلودنا طرقاً من الغبار إذ أقبل علينا النبي ﷺ فقال : ليبشر فقراء المهاجرين » [1] ، وقد كان من أصحاب الصفة أبو ذر الغفاري وواثلة بن الأسقع، وقد عرفنا رأي أبي ذر بكنز الاموال وتحريمها ، ثم اختلافه مع معاوية في ذلك وارجاعه الى المدينة عند عثمان الذي بيّن له أنه لا يستطيع أن يحمل الناس على الزهد ، وقد اعترف أبو ذر بعد ذلك أن دعوته بالحق في سبيل الله وارجاع الناس إلى ما كانوا عليه زمن الرسول قد أبعد عنه الأصدقاء فقال : « ان قيامي بالحق لله تعالى لم يترك لي صديقاً ، وإن خوفي من يوم الحساب ما ترك على بدني لحماً ، وان يقيني بثواب الله تعالى ما ترك في بيتي شيئاً » [2] .

وقد بين ابن خلدون أن التصوف كان زمن الصحابة والتابعين يتميز بالعبادة والاعراض عن الدنيا فقال : « هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة ،وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا ... وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف » [3] . وقد كان يلبس الصوف أحياناً بعض الغارمين للدلالة على أنهم بحاجة إلى المال لسداد ديونهم » [4] ، ويبيّن ابن خلدون أن العبادة والابتعاد عن الدنيا كانتا من مميزات الصوفية في القرن الثاني الهجري فيقول : « فلما فشا الاقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة » [5] . والواقع أن الإقبال على

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣ / ١٥٨ .

(٢) ابن السراج ، اللمع في التصوف ص ١٨٦ .

(٣) تاريخ ابن خلدون ١ / ٨٤١ .

(٤) انظر انساب الاشراف مخطوط ٢ / ٩١ .

(٥) تاريخ ابن خلدون ١ / ٨٤٢ .

الدنيا لم يكن في القرن الثاني بل أن بدايته كانت زمن عثمان بن عفان حيث اتخذ بعض المسلمين الضياع وبنوا القصور ، وصار الأمر يميل إلى الدنيا اكثر منه إلى الآخرة،وهذاما عبّر عنه عثمان نفسه حين بثّ شكواه مما آل إليه حال المسلمين من البعد عن الدين إلى أبي الدرداء حيث قال له : « قد استنكرت من يليني ولم أسأل أحداً من أهل الآفاق عن من يليه إلا وقد وجدته استنكر من يليه . فما أعرف شيئاً ، فكيف بكم ؟ فقال ما يعصينا أهل بلادنا ولا يستبدون علينا . قال : فالزمها : فوالله لينقلن الله الأمر إليكم فقد استنكرت الأشياء فما تعرف إلا الصلاة يا أبا الدرداء ، أو إنها من آخر ما ينكر من هذا الأمر »[1] .

وقد تميزت الصوفية بالشام زمن الصحابة بوجود عدد من المتصوفة أو الزهاد وقد تكلمنا عن أبي ذر الغفاري وعن زهده،وهو يعد أول المتصوفين الاسلاميين وقد كان بإمكان أبي ذر أن يعيش بعد الفتح حياة الأغنياء ، وقد حاول معاوية معه ذلك ولكنه رفض ، فكان رفضه عن إيمان منه بضرورة العيش بعيداً عن مظاهر الترف التي كان بها معاوية وأهل بيته ، فلم يكن زهده هروباً من الواقع أو انعزالاً عن الناس بل مجاهدة للحكام ووقوفاً في طريقهم والعمل على اصلاح شأنهم وهذا بعكس ما آل إليه الزهد بعد ذلك في هروبه من الحياة العامة لعدم القدرة على مواجهتها ويدل على ذلك قول رابعة العدوية البصرية لأصحابها حين زارتهم فذكروا الدنيا وأقبلوا على ذمها فقالت : « اسكتوا عن ذكرها ، فلولا موقعها من قلوبكم ما اكثرتم من ذكرها ، إلا من أحب شيئاً اكثر من ذكره »[2] ، وقد كان الزهد عند ابي ذر بالأضافة الى ذلك التفكير والتدبر فيما سيؤول اليه حاله ، قال الشعراني عنه : « كان يظل نهاره أجمع يتفكر فيما هو صائر اليه وكان يقول لو أن صاحب المنزل يدعنا فيه لملأته أمتعة ... وكان يرى تحريم ادخال ما زاد على نفقة اليوم ، وكان الرجل يدخل عليه فيقلب

---

(١) تاريخ دمشق ١ / ٣٠٥ .
(٢) احياء علوم الدين ٣ / ٢٠٨ .

بصره في بيته فلا يجد فيه شيئاً من أمتعة الدنيا » [1] وكان من كثرة تفكره يود أن يكون شجرة ينتفع بها الناس ، وذلك بسبب كثرة تفكيره بالآخرة فقد قال : « قتلني هم يوم لم أدركه فقيل له وما ذاك ؟ قال إن املي جاوز اجلي وددت أن الله خلقني شجرة تعضد » [2] ،وهذا أقصى مايكون من الزهد وحب الخير للناس ، ويشابه ذلك موقف الصحابي الشامي أبو عبيدة بن الجراح الذي كان يظهر للناس وعليه الصوف الجافي – وقد تمنى أن يكون كبشاً يوزع لحمه على الفقراء .. « وقد روي عنه حين خرجت في كفه طعنة في أيام الطاعون ، فعظم ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وفرقوا منها ، فأقسم لهم أبو عبيدة ما يحب أن له مكانها حمر النعم » [3] ، وقد كان بعض الصحابة يعتقدون أن في الرضى بالمرض ، رضى بقدر الله تعالى وقضائه ، فهذا أبو الدرداء يقول : « ثلاثة أحبهن ويكرههن الناس : الفقر والمرض والموت ... وكان يحب لصديقه أن يقل ماله وولده ويعجل موته .. ولعدوه أن يكثر الله ماله وولده ويطيل بقاءه » [4] وكان أبو الدرداء مثل أبي ذر يميل إلى التفكر والاعتبار فقد قيل عنه : « إن أكثر عبادته التفكر والاعتبار » [5] ، كما امتاز الزهد عنده بفلسفة سبق بها أبا العلاء المعري وعمر الخيام وذلك حين قال : « ابن آدم طأ الارض بقدميك فإنها عن قليل تكون قبرك ، ابن آدم إنما أنت أيام فإذا ذهب يوم ذهب بعضك ، ابن آدم انك لن تزل في هدم عمرك منذ يوم ولدتك امك » [6] ، فهذا في رأيي بداية مزج الزهد بالفلسفة وهو ما يمكن التعبير عنه بفلسفة الزهد التي امتاز بها أبو الدرداء والتي سبق بها كثيراً ممن اشتهروا بذلك

---

(١) طبقات الشعراني ١ / ٧ .
(٢) اللمع ١٨٦ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) تاريخ دمشق مخطوط ١٣ / ٣٨١ .
(٥) اللمع ١٨٦ .
(٦) تاريخ دمشق ١٣ / ٣٨٣ .

بعده ... ونورد بعض أقواله في الزهد ممن أخذ عنها أبو العتاهية : « تولدون للموت وتعمرون للخراب وتحرصون على ما يفنى وتذرون على ما يبقى »[1] ، ويبدو أنه كان متأثراً بأقوال السيد المسيح كقوله « ومن يكثر قرع الباب يفتح له »[2] ، فهو هنا يحث على عدم اليأس من الواقع بل متابعته وعدم الهروب منه وهي نظرة في الزهد مشابهة لنظرة أبي ذر لها ، وقد كان أبو الدرداء يحارب التكهن والتطير والأستقسام وهو الضرب بالازلام فقال : « ثلاث من فعلهن لم يسكن الدرجات العلى لا أقول الجنة : من تكهن أو استقسم أو رجع من سفره لطيره »[3] ، مما يدل على ارتباط الزهد عنده بالحياة الواقعية وأن هدفه في الزهد ليس إلا السمو بالنفس إلى الكمال ، كما كان أبو الدرداء يأمر أصحابه بالصبر على أذى الناس وعدم الهروب منهم أو اعتزالهم فقال : « إن ناقدت الناس ناقدوك وإن تركتهم لم يتركوك ، وإن هربت منهم أدركوك فهبوا أعراضكم ليوم فقركم »[4] ، ومع أن أبا الدرداء كان يعمل في أمور كثيرة كالقضاء والتعليم في المساجد والافتاء إلا أنه حاول ممارسة التجارة فلم يستطع لكثرة أشغاله وعبادته فقال : « والذي نفسي بيده ما أحسب أن لي حانوتاً على باب لا تخطئني فيه صلاة أربح فيه كل يوم أربعين ديناراً وأتصدق بها كلها »[5] ، ويبدو أن تفرغه لأعماله الدينية قد صرفه عن الأعمال الأخرى ، وهذا ما نراه عند بعض الصحابة الشاميين كمعاذ بن جبل الذي كان يكره الأعمال الدنيوية ويقبل على الأعمال الدينية فلما حضره الموت قال : « مرحباً بالموت ، مرحباً بزائر جاء على فاقة ، لا أفلح من ندم ، اللهم انك تعلم اني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لكري الأنهار ولالغرس الأشجار ولكن كنت أحب البقاء لمكابدة الليل الطويل

---

(١) تاريخ دمشق ١٣ / ٢٨١ .
(٢) نفسه ١٣ / ٣٨٣ .
(٣) جامع بيان ١ / ١٣٥ – ١٣٦ .
(٤) الطبقات الكبرى ١ / ٦ .
(٥) تاريخ دمشق ١٣ / ٣٨٢ .

ولظمأ الهواجر في الحر الشديد ولمزاحمة العلماء بالركب في حلق الذكر »[1] .
وليس معنى ذلك أن الصحابة في الشام لم يحبذوا كري الأنهار أو غرس الأشجار بل أن كثيراً منهم ملك الضياع ، ولكن بعضهم هاله إقبال الناس الشديد على الدنيا وحرصهم عليها فولوا وجوههم نحو الآخرة يعملون لها والمعروف أن معاذا كان يعمل في الأمور الدينية وكذلك القضاء .

وقد ارتبط التصوف زمن الصحابة بظاهرة أخرى وهي التهجد والبكاء والخوف الشديد عند بعض الصحابة مما كان مقدمة لظهور جماعة البكائين ومن هؤلاء في الشام تميم الداري وسلمان الفارسي وكعب الأحبار ، ويلاحظ أن ثلاثتهم كانوا في الأصل من أصحاب الكتب السماوية أو من أصل غير عربي كسلمان مما يشك في أن هذه الظاهرة قد تكون من أثر أصحاب الكتب السماوية:
فكان تميم الداري كثير التهجد والبكاء والاطالة في الصلاة قال عنه ابن سعد : « قام ليلة حتى أصبح بآية واحدة من القرآن يركع ويسجد ويبكي وهي قوله تعالى (أمْ حَسِبَ الذينَ اجترحوا السَّيئاتِ .. الآية) »[2] . وكان سلمان الفارسي يهيم على وجهه من آيات الوعيد ، فقد قيل « لما نزلت هذه الآية : (وإنَّ جَهَنم لموعِدَهم أجمعين) صاح صيحة ووضع يده على رأسه ، ثم خرج هارباً ثلاثة أيام »[3] ،وكان سلمان يقطع الطريق بين العراق والشام ماشياً[4] ،وذلك لتعويد النفس على المشقة ، كما كان الصحابة يفعلون ذلك في الحج حيث يروى أن الحسن ابن علي قد حج خمساً وعشرين حجة ماشياً والنجائب تساق من حوله . وكان كعب الأحبار أيضاً يدعو إلى مكابدة المشاق وخصوصاً في الحج والجهاد ، قال

---

(١) عيون الأخبار ٢ / ٣٠٩ .
(٢) الطبقات الكبرى ١ / ٢٦ ، واللمع ص ١٨٩ .
(٣) اللمع ص ١٨٥ .
(٤) نفس المصدر والصفحة .

كعب : « لن يستكمل العبد أجر الحج والجهاد حتى يصبر على الأذى »[1] وكان كعب من الوعاظ ، وقد أوتي بلاغة في ذلك ، ويروى أن عمر بن الخطاب قال له : « يا كعب خوّفنا . فقال يا أمير المؤمنين إعمل عمل رجل لو وافيت القيامة بعمل سبعين نبياً لازدرأت عملك مما ترى ، فأطرق عمر مليا ثم أفاق فقال : زدنا يا كعب فقال : يا أمير المؤمنين إن جهنم لتزفر يوم القيامة زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مصطفى إلا خرّ جاثياً على ركبتيه ويقول : رب نفسي نفسي »[2] .

لم تكن الصومعة محللة أو مسموحاً بها في هذه الفترة ، يدلنا على ذلك أن أبا مسلم الجليلي وهو راهب أسلم فترك الصومعة ، وهو أستاذ كعب الأحبار ، قيل عنه « من أهل جبل الجليل ، أدرك النبي ﷺ ، أسلم في عهد عمر ، وقيل في عهد معاوية ، وعن ابي مسلم الخولاني انه لقي أبا مسلم الجليلي وكان مترهباً نزل من صومعته أيام عمر وأسلم »[3] .

ويلاحظ الدارس وجود بعض الصفات الحميدة في هذه الفترة دلالة على الصلاح والتقوى مثل « المكلّمون والمحدّثون والأبدال » ، ويروي عن النبي ﷺ قوله : «(إن في أمتي مكلّمون ومحدثون) .. والمكلّم والمحدث اتم في معناه من جميع الكرامات التي ذكر الله عز وجل »[4] ، فيذكر مثلاً ان العرباض بن سارية كلم زنبائيل أحد الملائكة حين طلب من الله الموت فكان يدعو « اللهم كبرت سني ، ووهن عظمي ، فاقبضني اليك . قال : فبينا أنا يوماً في مسجد دمشق أصلي وأدعو أن أقبض ، إذا انا بفتى من أجمل الرجال ، وعليه دواج أخضر فقال : ما هذا الذي تدعو به ؟ قلت : كيف أدعو يا ابن أخي ؟ قال :

(١) اللمع ص ١٨٨ .
(٢) تلبيس ابليس ٣٦٦ .
(٣) تاريخ الاسلام ٣ / ٢٢٥ .
(٤) اللمع ص ٣٩٦ .

قل اللهم حسن العمل ، وبلغ الأجل ، فقلت : ومن أنت يرحمك الله ؟ قال : أنا زنبائيل الذي يسلّي الحزن من صدور المؤمنين ، ثم التفت فلم أجد أحداً »[1] .

وقد اختصت الشام بالأبدال ، وقد ذكر مالك بن أنس عن النبي ﷺ قوله « بدلاء أمتي أربعون رجلاً ـ اثنان وعشرون بالشام ، وثمانية عشر بالعراق ، كلما مات واحد أبدل مكانه آخر فإذا جاء الأمر قبضوا »[2] ، ويروى أحاديث كثيرة عن عدد الأبدال فبعضهم قال أربعون وبعضهم قال أكثر من ذلك أو أقل ، وبعضهم جعل الابدال من الشام فقط دون العراق . فمن شهر بن حوشب قال : « لما فتحت مصر سبوا أهل الشام فأخرج عوف بن مالك رأسه من برنسه ثم قال : يا أهل مصر ، أنا عوف بن مالك ، لا تسبوا أهل الشام فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول (فيهم الابدال وبهم تنصرون وبهم ترزقون) »[3] . ولم يكن الابدال معروفين بأسمائهم ، إلا ان العامة إذا رأوا في رجل صلاحاً وتقوى وعلماً إعتبروه من الابدال ، وقد يورثون هذا اللقب لابنه من بعده إذا حمل نفس صفات ابيه ، كبلال بن أبي الدرداء ، وعاصم بن رجاء بن حيوة ، أو انهم يورثونها رجلاً آخر تتلمذ على يديه أو خلفه في منصبه الذي يتولاه كالقضاء أو القراءة أو الامامة .

التصوف زمن التابعين وتابعيهم :

قال ابن السراج الطوسي : « وأهل الشام يسمون الصوفية فقراء ، ويقولون قد سماهم الله تعالى فقراء فقال : (لِلفُقراءِ المهاجرينَ الذين أُخرِجوا من ديارِهم) وقوله تعالى : (لِلفُقراءِ الذينَ أُحْصِروا في سَبيلِ الله) »[4] ، ولم يبين ابن السراج

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣ / ٢٨٠ .
(٢) تاريخ دمشق ١ / ٢٧٨ .
(٣) نفسه ١ / ٢٧٧ .
(٤) اللمع ص ٤٦ .

الفترة التي بدأ بها الشاميون يسمون المتصوفة بالفقراء إلا أنه من الممكن أن نعتبر ذلك في القرن الثاني الهجري .

استمر وضع التصوف في الشام على ما كان عليه زمن الصحابة من الزهد والعبادة والكرامات ، ومن الزهاد التابعين أبو مسلم الخولاني الذي قيل أن الأسود العنسي ألقاه في النار باليمن فلم تضره فشبه بابراهيم الخليل ، وقال عنه علقمة بن مرثد : « انتهى الزهد إلى ثمانين من التابعين منهم أبو مسلم الخولاني فإنه لم يكن يجالس أحداً يتكلم في شيء من أمر الدنيا إلا تحول عنه فدخل ذات يوم مسجداً فنظر إلى نفر قد اجتمعوا فرجا أن يكونوا على ذكر الله تعالى فجلس إليهم فإذا بعضهم يقول قدم غلامي فأصاب كذا وكذا وقال آخر جهزت غلامي فنظر إليهم وقال : سبحان الله أتدرون ما مثلي ومثلكم : كمثل رجل أصابه مطر غزير وابل فالتفت فإذا هو بمصراعين عظيمين فقال لو دخلت هذا البيت حتى يذهب هذا المطر فدخل فإذا البيت لا سقف له ، جلست اليكم وأنا أرجو أن تكونوا على ذكر وخير فإذا انتم أصحاب دنيا »[1] ، ولأبي مسلم كرامات كثيرة غير إلقائه في النار وسلامته منها ، تشبه الخارق أو المعجزات التي قد يكون مبالغاً فيها . منها : « قال الصبيان لأبي مسلم أدع الله أن يحبس علينا هذا الظبي فنأخذه فدعا الله فحبسه عليهم حتى أخذوه .. وقال يزيد ابن يزيد بن جابر كان أبو مسلم يكثر أن يرفع صوته بالتكبير حتى مع الصبيان ويقول أذكر الله حتى يرى الجاهل انك مجنون »[2] ، وكان يعاقب نفسه بالسوط أحياناً ، وكان يخالط بعض الرهبان . يذكر قوم مروا بحمص فطلع عليهم راهب فقال : « هل تعرفون أبا مسلم الخولاني قلنا نعم قال : إذا اتيتموه فاقرئوه السلام فإنا نجده في الكتب رفيق عيسى بن مريم أما انكم لا تجدونه

---

(١) صفة الصفوة ٤ / ١٨٠ .

(٢) تاريخ الاسلام ٣ / ١٠٤ .

حياً ، فلما أشرفنا على الغوطة بلغنا موته »[1] . وقد قال عن كعب « هــذا حكيم هذه الأمة »[2] .

ومن التابعين الابدال في الشام خالد بن معدان كان كثير التسبيح والعبادة قيل « أنه كان يسبح في اليوم أربعين الف تسبيحة .. ويقال أنه كان من الابدال ولما مــات خلفه أرطاة بن المنذر »[3] ، وكانت الأقطار الاسلامية تتباهى بعابديها قال رجاء بن حيوة : « إن يفخر علينا أهل المدينة بعابدهم عبد الله بن عمر فإنا نفخر عليهم بعابدنا عبد الله بن محيريز »[4] ، وقد ذكرنا ان بلال بن سعد قد عدّ بالنسبة لأهل الشام كالحسن البصري بالعراق ، وقد كان له كل يوم وليلة ألف ركعة .

وقد أدى ظهور الفرق الاسلامية إلى ظهور بعض الزهاد والعباد مــن كل فرقة وذلك لنصرة مذاهبهم ، فمن زهاد المعتزلة عمرو بن عبيد وواصــل بن عطاء ، وكان الخوارج أصحاب عبادة ، ولا شك أن يكون من أهل السنة عباد وزهاد يفاخرون بهم الفرق الأخرى وعبادهم .

وكما وجد بعض البكائين من الصحابة كذلك وجد زمن التابعين وخصوصاً بين الموالي ، ذكر سفيان بن عيينة عن رجل يدعى أمين الشامي قال : « كان يقوم فيصلي في المسجد فينتحب ويبكي حتى يعلو صوته وحتى تسيل دموعه على الحصى ، قال فأرسل اليه الأمير انك لتفسد على المصلين صلاتهم بكثرة بكائك وارتفاع صوتك فلو أمسكت قليلاً . فبكى ثم قال : ان حزن يوم القيامــة ورثني دموعاً غزاراً فأنا استريح إلى درتها أحياناً »[5] . ومن البكائين في هذه

(١) تاريخ الاسلام ٣ / ١٠٦ .
(٢) نفسه ٣ / ١٠٣ .
(٣) تهذيب ابن عساكر ٥ / ٨٨ .
(٤) تاريخ الاسلام ٤ / ٢٣٥ .
(٥) صفة الصفوة ٤ / ١٩٦ .

الفترة يزيد بن مرثد الذي قال : « إن الله عز وجل قد توعدني إن أنا عصيته أن يسجنني في النار، والله لو لم يتواعدني أن يسجنني إلا في الحمام لكنت حريا أن لا تجف لي عين » [1] .

وللزهري رأي في الزهد يبين فيه أن « الزاهد من لم يغلب الحرام صبره ولا الحلال شكره » [2] ، وكان لا يرى الزهد في تغيير هيئة الإنسان ، أو تعذيب النفس بل هو رياضة النفس وكبحها عن الشهوات فيقول عن الزهد : « أما إنه ليس بشعث اللمة ، ولاقشف الهيئة ، ولكنه ظلف النفس عن الشهوة » [3] .

ومما يلفت الانتباه ويستوقف المرء زهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز والذي عرف بزهده بعد توليه الخلافة مما يبين أن بعض النفوس قد تتوق إلى درجات عليا في الحياة فإذا بلغتها زهدت فيها واتجهت نحو الآخرة ، وكان عمر يحلم بمنزلة أرفع من منزلة الخلافة ، ولما لم يكن في هذه الحياة الدنيا أعظم منزلة من الخلافة فإن عمر اتجه إلى الآخرة يسمو بها حيث الحياة المثلى والخالدة، وهذا ما نفسر به عدم تزهده حين وليها ، وهذه ميزة لعمر على غيره من الزهاد لأنه تزهد حين أقبلت عليه الدنيا وملك أمور المسلمين ، قال مالك بن دينار : « يقولون أني زاهد انما الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي أتته الدنيا فتركها » [4]، ويرى أن عمر اعتزل زوجته وجواريه بعد توليه الخلافة ، وقد يكون ذلك مبالغاً فيه ، فقد أورد الذهبي عن زوجته فاطمة قولها : « ما اغتسل من جنابة منذ ولي » [5] . ومما يدل على أن عمر لا يؤيد هذا الرأي أو الترهب أنه بعث إلى واليه على العراق يحثه على تزويج شباب المسلمين من بيت المال ، وكان عمر

---

(1) صفوة الصفوة ٤ / ١٢٧ .
(2) البيان والتبيين ٣ / ١٥٤ ، وقوت القلوب ١ / ٥٤٢ .
(3) البيان والتبيين ٢ / ١٧٧ .
(4) تذكرة الحفاظ ١ / ١٠٧ .
(5) نفس المصدر والصفحة .

يرى دسائس بني أمية والبدع الكثيرة التي أدخلوها فأراد أن يكرس جل وقته لمحو تلك الآثار ، وهذا أمر يتطلب جهداً كبيراً . وكان عمر يتقرب من الزهاد والعلماء كالحسن البصري ويراسلهم ويبعد الشعراء والخطباء . ومن الأشياء الطريفة التي تروى في زهده أنه «كان يميز بين الزيت الذي يسرج لنفسه والزيت الذي يسرج للعامة ، وكان يضع سراجه على ثلاث قصبات ، وفي يده خزائن الأرض »[1] ، ومن أعظم ما كان يتحلى به هذا الخليفة من الزهد على الاطلاق « أنه كان يمتنع عن شم مسك بيت المال ويضع يده على أنفه بخافة أن يشمه أو تصل إليه رائحته ويقول إنما ينتفع برائحته »[2] ، وهذا هو أرقى درجات الزهد وأرفعها ، ويستطيع المسلمون والعرب أن يفخروا بذلك على كافة الحضارات قديمها وحديثها حتى يوم القيامة .

ومن الأمراء الأمويين الزهاد عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية ، وسعيد بن عبد الملك بن مروان الذي كان يلبس ثوبي شعر في الليل وقد ذكر عنه « كان متألهاً .. وكان إذا أقبل الليل وضع ثيابه ولبس ثوبي شعر وقام يصلي »[3] .

وقد ذكر ابن الجوزي في صفة الصفوة كثيراً من العباد والعابدات ووصفهم بأنهم المصطفون وقسمهم حسب البلدان التي يقيمون فيها ، وكانوا يشتهرون بالعبادة وحسن السيرة ، وبعضهم له أقوال في الزهد والعلم عامة ، وممن ذكر من الشاميين من التابعين عمرو بن الأسود السكوني ، وعمير بن هانىء الشامي الذي كان يسبّح مائة الف تسبيحة في اليوم وأبو عبد الله الصنابحي ويزيد بن الأسود وشرحبيل بن السمط ، وعبد الله بن محيريز ، وعبيد بن المهاجر ، وأمين الشامي ، وعبد الله بن ابي مريم .

---

(١) اللمع ص ١٧٧ .
(٢) سيرة ابن الجوزي ص ١٦٣ .
(٣) تهذيب ابن عساكر ٦ / ١٥٣ .

التصوف زمن تابعي التابعين :

يبدو أن عادة لبس الصوف قد انتشرت في هذه الفترة بين الزهاد بعد أن كانت سابقاً تقتصر على عدد قليل من الذين زهدوا بالحياة ، وقد اتهم الأزاعي وهو عالم هذه الفترة من يلبس الصوف في الحضر بأنه أحدث بدعة وذلك في رأيي لكثرة من أخذ يتبع هـــذه الطريقة ، قال الاوزاعي في ذلك : « لبس الصوف في السفر سنة وفي الحضر بدعة »[1]، ومع ورع الأوزاعي وكثرة صلاته واعتباره من الأبدال فإنه لم يعرف عنه أنه بكي في مسجد قط ، بل كان يعتقـد أن البكاء في المسجد رياء ومع ذلك فقد كان يبكي في بيته عند الصلاة والتهجد ، وهو بكرهه لذلك وللبس الصوف يريد أن يقضي على المظاهر الخارجية للتصوف لكي يكون صفة ذاتية تصل بين المرء وخالقه دون اتخاذ التصوف وسيلة للرياء والشهرة كما حصل زمن الأوزاعي ، ومما يوضح ذلك ما أورده يوسف بن ساباط موضحاً الانحراف في التصوف الذي ساد هذه الفترة فقال : « لو أن شخصاً ترك الدنيا كما تركها أبو ذر وأبو الدرداء ما قلت له زاهداً ، وذلك أن الزهد لا يكون إلا في الحلال المحض والحلال المحض لا يعرف اليوم »[2] ، فابن ساباط يحاول رد الزهد إلى ما كان عليه زمن الصحابة والتابعين متمثلاً بترك الشهوات والرياضة النفسية ، ويبين رأيه في الزاهد فيقول : « من صبر على الأذى ، وترك الشهوات ، وأكل الخبز من حلاله فقد أخذ بأصل الزهد »[3] .

وفي هذه الفترة وجدت عادة الترهب ولبس الصوف والعيش في الجبـــال بانفراد بين عدد ليس بالكثير من الزهاد ، فيذكر مثلاً أن العباس الموسوس كان يعيش بجبل لبنان منفرداً للعبادة ، وقد اعتبره بعض الناس موسوساً ومجنوناً ، ولكن قوله للشعر في مدح الله سبحانه لا يؤيد ذلك ، بل أن التفرد والترهب للعبادة قد أثّرا به ، وقد قال عنه محمد بن المبارك الصوري : « صعدت جبـل

---

(١) تذكرة الحفاظ ١ / ١٦٢ .
(٢) طبقات الشعراني ١ / ٦٧ .
(٣) قوت القلوب ١ / ٥٤٣ .

لبنان فإذا أنا برجل عليه جبة من صوف مكتوب عليها لا تباع ولا تشترى ولا توهب ، قد اتزر بمئزر الخشوع ، وارتدى برداء الورع ، وتعمم بعمامة التوكل ، فلما رآني استخفى وراء شجرة بلوط ، فناشدته الله أن يظهر فظهر .. فأنشد شعراً صوفياً – وقيل أن له اكلتان في كل شهر من ثمر الشجر ونبات الأرض منذ ستين سنة »[1] ، ولم يعرف متى توفي العباس ، إلا أن راوي الخبر محمد بن المبارك توفي سنة ٢١٥ هـ مما يدل من أن العباس قد عاش في النصف الاخير من القرن الثاني الهجري ، وقد كان العباد يختارون لبنان لمكان خلوتهم أو يفضلونه على غيره فقد رأينا كيف همّ العرباض بن ساريه أن يترك ماله ويأتي وادياً في لبنان يقيم فيه للعبادة . وربما كان ذلك تأثراً بالأديرة الكثيرة المنتشرة في ديار الشام ولبنان خاصة .

وقد كان بعض المتصوفة يلزمون المساجد ويقيمون فيها للعبادة كما يلزم الرهبان أديرتهم ، وقد ذكر ابن الجوزي عدداً كبيراً من العباد والعابدات الذين لزموا مساجد بيت المقدس ودمشق وغيرها للعبادة ، ويستطيع الدارس الرجوع إلى كتاب صفوة الصفوة للوقوف على مزيد من التفصيلات في هذا الموضوع .

هذه هي أهم الأمور التي امتاز بها الزهد والتصوف في الشام في هذه الفترة . ويلاحظ أن غالبية المجتمع الاسلامي الذي يدين بأن الجهاد هو الرهبانية في الاسلام قد أقبل على الجهاد والفتوحات : فهذا الأوزاعي يختار ثغراً من ثغور الشام فينزل فيه حتى يعتبر مرابطاً في سبيل الله ، وكذلك كل من نزل ثغور الشام وذلك لتعرض هذه الثغور لغارات دائمة من قبل الروم ، وهذا يبين أن الإسلام دين عمل وجهاد في سبيل الآخرة والدنيا معاً .

ومن مميزات التصوف في هذه الفترة أنه لم يرق إلى النواحي الفلسفية المعقدة ، ولم تؤلف فيه كتب أو نظريات محددة كما حصل بعد القرن الثاني الهجري ، وذلك أن التصوف كان غير متأثر حتى ذلك الوقت بالفلسفة اليونانية ، وكان يخطو أولى خطواته نحو التصوف الذي ظهر بعد ذلك .

---

(١) تهذيب ابن عساكر ٧ / ٢٧٣ .

الفَصل الثَالث

العُلوم الدنيَويَّة

١ ــ العلوم العقلية :

ا ــ الكيمياء
ب ــ الطب
حـ ــ الهندسة المعمارية

٢ ــ العلوم التاريخية :

السيرة والمغازي والانساب

١ــ العلوم العقلية :

ــ الكيمياء :

ارتبط علم الكيمياء منذ القرن الأول الهجرى بعـالم أموي عاش في الشام وهو خالد بن يزيد بن معاوية ، وقـد سبقت الشام بذلك غيرها من الاقطـار الاسلامية في الاهتمام بالكيمياء والتي كان يطلق عليها علم الصنعة . وكان خالد قد ترجمت له علوم كثيرة فقال عنه ابن النديم « عني بإخراج كتب القدماء في الصنعة وكان خطيباً شاعراً فصيحاً حازماً ذا رأي، وهو أول من ترجمت له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء. وكان جواداً يقال أنه قيل له لقد فعلت اكثر شغلك في طلب الصنعة فقال خالد ما أطلب بذاك إلا ان أغني اصحابي واخواني إني طمعت في الخلافة فاختزلت دوني فلم أجد منها عوضاً إلا أن أبلغ آخر هذه الصناعة ، فلا أحوج أحداً عرفني يوماً أو عرفته إلى ان يقف بباب سلطان رغبة أو رهبة. ويقال أنه صح له عمل الصناعة وله في ذلك عدة كتب ورسائل وله شعر كثير في هذا المعنى رأيت منه نحو خمسمائة ورقـة ورأيت من كتبه كتاب الحرارات وكتاب الصحيفة الكبير ، وكتاب الصحيفة الصغير ، وكتاب وصية الى ابنه في الصنعة » [1] ، ونتبين من هذه المقالة ان خالد كان البادىء في إدخال علوم الصنعة الى العالم الاسلامي ، وان هذا العلم كان يعتبر علماً راقياً على أساس انه استعاض به عن الخلافـــة ، وكان عمر بن عبد العزيز يقول عنه: « ما ولدت

---

(١) الفهرست ص ٤٩٧ – ٤٩٨.

أمية مثل خالد بن يزيد ماستثني عثمان ولا غيره »[1] . وكان بعضهم يقلل من قدر خالد واستطاعته في هذا الفن الذي لم يعرف لدى العرب من قبل بل هو من صناعة الروم ، لذا كانوا يشككون في مقدرة خالدمنه،فيحكى أن خالد بن يزيدقال لمحمد بن عمرو « أما يقوم علينا أحدمن أهل الحجاز إلا اختار المقام عندنا على المدينة فظن محمد أنه يعرض به فقال : وما يمنعهم وقد قدم من المدينة قوم على النواضح فنكحوا أمك، وسلبوك ملكك، وفرغوك لطلب الحديث وقراءة الكتب، ومعالجة ما لا تقدر عليه يعني الكيمياء وكان يعملها »[2] ، ولم يكن هذا العلم مباحاً لكل فرد في ذلك الوقت وذلك ان مريانوس هذا تلقى عنه خالد الصنعة كان يذكر ان أغلب علماء الكيمياء من الرومان كانوا ملوكاً كهرقل وهرمس وغيرهم ، وكان مريانوس هذا لا يعطي علمه إلا لمن يثق بدينه وورعه لأنه كان يعتبر ذلك سراً من الأسرار لا يجوز البوح به فقد قال مريانوس لخالد « لولا علمي بأن لك ديناً وورعاً وأنه لا يجوز ما أقوله لك إلى غيرك إلا لمن هو ثقة في دينه وأمانته وأنه إذا علمه أشد ستراً له وصوناً ما فعلت »[3] والمعروف ان ابن خلدون قد أنكر ما نسب إلى خالد بن يزيد من هذه الصنعة وذلك لقرب عهده بالبداوة فقال « وربما نسبوا بعض المذاهب والأقوال فيها لخالد بن يزيد ابن معاوية ربيب مروان بن الحكم « ومن المعلوم البين ان خالداً من الجيل العربي والبداوة اليه أقرب ، فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة ، فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنية على معرفة طبائع المركبات وأمزجتها ، وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد ولم تترجم اللهم إلا أن يكون خالد ابن يزيد آخر من أهل المدارك الصناعية تشبه باسمه فممكن »[4] .

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٣٢ .

(٢) نفسه ج ٤ ص ٢٤ .

(٣) خالد بن يزيد ، ديوان خالد ص ٥ مخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق رقم عام ٧٠١٤ .
وسيشار اليه بـ ديوان خالد .

(٤) تاريخ ابن خلدون جـ ١ ص ٩٥٢ .

وكثيراً ما كان اسم خالد يذكر مقترناً بالكيمياء والطب معاً ، وذلك لأن العلمين كانا توأمين ، فكان الكيميائي يمثل الصيدلي بالنسبة للطبيب حيث يحضر له بعض العقاقير التي يحتاجهـــا ، وقد وصف مريانوس لخالد بعض التجارب لاستحضار بعض العقاقير الطبية ، وذلك باستعمال مواد معينة يمزجها ويضعها على النار [١] ، وقد ذكر عز الدين بن علي التشابه بين صناعة الكيمياء وصناعة الطب فقال: « إعلم ان صناعة الكيمياء وصناعة الطب فرعان من الأصل واحد وهو العلم الطبيعي فهو أصلهما وإسّهما وذلك ان مبادئهما هي الأرض والماء والهواء والنار» [٢] ، وقد كان علماء الكيمياء يعتبرون ان هذه المبادىء تجتمع في أربعة صفات أيضاً تجتمع في بدن الانسان وقد نقـل مريانوس عن فيثاغورس قوله: «كما ان الأشياء كلها إنما كانت واتحدت من الواحد كذلك هذه الصنعة إنما هي من شيء واحد كما ان في بدن الانسان الطبائع الأربع خلقها الله تعالى، وهي مزاوجة الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة » [٣] ، إذن فقد تشابهت عناصر الطبيعة لتشابههما ، لذا كان الطب والكيمياء توأمين في نظر علماء ذلك العصر وقد وصف خالد بأكثر من مرة بأنه عالم بالطب والكيمياء ، فابن خلكان مثلاً يقول « كان من أعلم قريش بفنون العلم ، وله كلام في صنعة الكيمياء والطب كان بصيراً بهذين العلمين متقناً لهما » [٤] ، وقد مر أيضاً رأي ابن النديم فيه ، وقال اليافعي « قيل كان له معرفة بفنون من العلم منها علم الطب والكيمياء وكان متقناً لهما » [٥] .

ومع ان مريانوس رومي الأصل إلا أنه من الناحية العلمية يعتبر شامياً، فإن

---

(١) ديوان خالد ص ١٠ – ١١ .

(٢) نفسه ص ٣٦ .

(٣) نفسه ص ٥ .

(٤) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤ .

(٥) اليافعي ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، جـ ١ ص ١٧٦ ، ط الاولى (دائرة المعارف النظامية – حيدر اباد) ١٣٣٧ هـ .

العلم الذي يظهر في بلد ما هو من مبتكراتها وان كان أصل العـالم من بلد آخر ، ويذكر ان مريانوس كان يعيش في بيت المقدس قبل مجيئه إلى حمص،حيث سكن مع خالد في قصره المسمّى قصر خالد ، ثم حث خالد غالباً مولاه على حفظ كلام مريانوس و كتابته قائلاً له: « اعلم انه لا يتعلم علم مريانوس إلا العاقل الموفق بالله.. الزم واحفظ ما تراه من هذا الشيخ فإني أخاف أن يهلك قبل أن نأخذ علمـــه ولئن هلك قبل ذلك انها كسرة وأنا أرجو أن يورثنا الله تعـالى ذلك منه ويهب لنـا علمه بفضله »[1] وكانت أسئلة خالد تدور عن أصل الخلق وكيفيته ، فقد سأل مريانوس: «أمن أصل واحد أم أشياء هذا الخلق ؟ فأجابه : ان الخلق من شيء واحد وأصل واحد وجوهر واحد منه وبه ، لا يدخل عليه داخـل ولا غريب منه ولا ينقص منه شيء وقد قال في ذلك هرقل الملك لبعض تلاميذه.. ثم يورد قول اسطانس الحكيم : كل شيء من الأرض يخرج وإلى الأرض يعود»[2]، ثم سأله خالد : « فكيف إذا كان كما تقول هو شيء واحد وجوهر واحد وأرض واحدة كثرت أسماؤه ؟ » . فأجابه مستشهداً بقول هرقل الملك أيضـاً لبعض تلاميذه : « ان النواة من النخلة ومن النواة تكون الشجرة .. » . وعن هرمس المثلث قوله : « السنبلة من الحبة والحبة من السنبلة والأغصان الكثيرة من الشجرة والشجرة من النواة »[3] ، وهذا التعليل هو تعليل فلسفي أكثر منه كيميائي ، ومن هنا جـاء اتصال الكيمياء بالفلسفة حيث يمزج الكيميائي علمه بأقوال في الحـكم ، لذا كان يسمى العـالم حكيماً في ذلك الوقت ، وقد دعي خالد حكيم آل مروان ، قال ابن النديم : « كان خالد بن يزيـد يسمى حكيم آل مروان ، وكان فاضلاً في نفسه وله همة ومحبة في العلوم»[4] ، ولخالد أقوال كثيرة في الحكم

---

(١) ديوان خالد ص ٨ .

(٢) نفسه ص ٥ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) الفهرست ص ٣٣٨ .

فقد سئل : « ما أقرب شيء قال الأجل ، قيل فما أرجى شيء قال العمل، قيل فما أوحش شيء،قال الميت، قيل فما آنس شيء قال الصاحب المواتي، وقال : إذا كان الرجل مماَرياً لجوجاً معجباً برأيه فقد تمت خسارته ، وقيل له : ما الدنيا قال ميراث ، قيل فالأيام قال دول ، قيل فالدهر قال أطباق والموت بكل سبيله فليحذر العزيز الذل والغني الفقر .. ولما لزم بيته قيل له كيف تركت الناس ولزمت بيتك فقال هل بقي إلا حاسد على نعمة أو شامت بنكبة »[1]،ومما يدل على امتزاج الفلسفة بالكيمياء أقوال كثيرة لمريانوس قالها لخالد جواباً على اسئلته، فقد سأله عن العمل فقال مريانوس : « أول ما أقول لك وهو ابتداء العمل أحذرك أن لا تخرج عن الأصل ولا تطلب بدلاً... واعلم انه لا بد في هذا العمل من تزويج وتلقيح وولادة وتربية ، وليس علاج هذه الصنعة ببعيد عن خلق الانسان »[2] ، ونلاحظ أن الانسان هو المحور الرئيسي في كلام الكيميائيين القدماء ومنهم ماريانوس،حيث انه هو المثل لكل الأشياء، ويقيسون على تركيبه كل الأشياء الأخرى وقد أورد ذلك في أكثر من موضع إما من كلامه أو نقلاً عن كيميائيين آخرين ، فقد نقل عن ماريا قولها : « وكما لا يقدر أحد أن ينتزع جميع الشهوات من جسد الانسان كذلك النحاس لا يقدر الزئبق على تغييره وإذهاب لونه إلا في رأي العين فأما في الباطن فلونه باق تام »[3].وحتى التعبيرات الكيميائية التي أوردها مريانوس فيها أشياء كثيرة من صفات الانسان، فقد قال عن الحجر المغرواني:« من هذا الحجر جميع الطبائع التي تلتمسها الحكماء وتطلبها فهو يشبه النحاس ... فإن أصبتموه فانزعوا روحه من جسده فإنه ينتقل من طبيعة إلى طبيعة أخرى »[4] ويبدو أن بعض أقوال مريانوس تشبه الألغاز

(١) تهذيب ابن عساكر جـ ٥ ص١١٩ .
(٢) ديوان خالد ص ٨ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) نفسه ص ٩ .

بحيث لا نستطيع أن نفهم المراد بكلامه ولعلّ ذلك لوجود مصطلحات متعارف عليها في ذلك الوقت فقال مثلاً : اعلم أن لهذه الصنعة عملين وهما تركيبان وعند الفراغ من التركيب الأول يصلح للتضاعيف وعند الفراغ من الثاني يكون التمام »[1] .

وقد أمر خالد بإحضار بعض الفلاسفة اليونانيين من مصر للترجمة فأورد ابن النديم عنه أنه « أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي ، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة »[2] ، كما « نقل له اصطفن القديم كتب الصنعة وغيرها »[3] .

وقد كان لخالد بعض الرسائل والأشعار في الكيمياء يذكر ابن خلكان أن « له ثلاث رسائل تضمنت إحداهن ما جرى له مع مريانوس المذكور ، وصورة تعلمه منه والرموز التي أشار إليها وله فيها أشعار جيدة »[4] ، ويلاحظ أن خالداً كان يستخدم الشعر في تأليف الكيمياء وهو بذلك أول من قام بهذا الأمر أو من أوائل من قام بذلك ، ويذكر بروكلمان له عدة كتب ورسائل منها « اختيارات خالد وهو ديوان في الكيمياء مع مقدمة نثرية »[5] ، بالإضافة إلى رسائله لماريوس التي ذكرها ابن خلكان .

تحلية مياه البحر وخالد بن يزيد :

مما يدل على تقدم صناعة الكيمياء في ذلك الوقت أن تحلية مياه البحر كانت معروفة ويقوم بها العالم خالد بن يزيد ، ذكر ذلك ابن عساكر فأورد عن خالد

---

(١) ديوان خالد ص٩ .

(٢) الفهرست ص ٣٣٩ .

(٣) نفسه ص ٣٤٠ .

(٤) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤ .

(٥) بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي جـ ١ ص ٢٠٧ (دار المعارف بمصر) سنة ١٩٥٩ .

قوله : « إن شئتم أعذبت لكم ماء البحر ، فأتى بقلال من ماء ثم وصف كيف يصنع به حتى يعذب »[1] وهذا يدل على مدى التقدم العلمي الذي وصل إليه العرب في هذه الفترة .

ومع علم خالد إلا أنه كان لا يعتبر نفسه عالماً ولا جاهلاً بل انه جامع لكتب العلم مما يدل على تواضعه فقال : « عنيت بجمع الكتب فما أنا من العلماء ولا من الجهال »[2].

(١) تهذيب ابن عساكر جـ ٥ ص ١١٩ - ١٢٠ .
(٢) جامع بيان جـ ١ ص ١٣٢ .

ـ الطب :

إشتهر عدد من الأطباء زمن الدولة الاموية وغالبيتهم من النصارى ، وقد كان معاوية بن ابي سفيان يستعين بهم في الأمور الطبية ، ومن الأطباء الذين استعان بهم الحارث بن كلدة وأبو الحكم الدمشقي وابن آثال .

أما الحارث فهو من الطائف من بني ثقيف وقد درس الطب في فارس ثم رجع الى الجزيرة العربية واشتغل بالطب هناك ، ثم استدعاه معاوية ليستشيره ، وقد سأله معاوية « ما الطب يا حارث ؟ فقال : الأزم يا امير المؤمنين ، يعني الجوع » [1]،وقد كان للحارث بعض الآراء والوصفات الطبية ، وأغلبها نصائح للوقاية من الأمراض ، أو المحافظة على الصحة أكثر من أن تكون علاجاً لمرض، ومن هذه النصائح الطبية قوله : « من سره البقاء ولا بقاء فليباكر الغداء وليخفف الرداء وليقل غشيان النساء» [2] ،وقد كان اعتماده في علاجه على مزج بعض الأنواع الغذائية ببعضها ثم تقديمها للمريض ، فيذكر أنه لما عالج سعيداً عمل له دواء من « التمر فخلطه بالحلبة ثم أوسعها سمناً ثم أحساه إياه فكأنما أنشط من عقال » [3] .

---

(١) ابن ابي اصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الاطباء ص ١٦١ «دار مكتبة الحياة بيروت » ١٩٦٥ ، وسيشار اليه بـ عيون الانباء.

(٢) القفطي ، اخبار العلماء باخبار الحكماء ص ١١٢ ط اولى ليبزغ ١٩٠٣ «مطبعة السعادة بمصر » ١٣٢٦ هـ وسيشار اليه بـ اخبار العلماء .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

ومن هؤلاء الاطباء أبو الحكم ،قال عنه ابن أبي أصيبعة « كان طبيباً نصرانياً عالماً بانواع العلاج والأدوية وله اعمال مذكورة وصفات مشهورة . وكان يستطبه معاوية بن أبي سفيان ويعتمد عليه في تركيبات أدوية لأغراض قصدها منه »[١]، ويبدو ان بعثات الحج التي كانت زمن معاوية كانت ترافق ببعثة طبية معها ، وقد رافق أبو الحكم يزيد بن معاوية في موسم الحج فقال « ولي الموسم في أيام معاوية بن أبي سفيان يزيد بن معاوية فوجهني أبوه معه متطبباً له . وخرجت مع عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن العباس الى مكة متطبباً له »[٢] ، وقد عاش أبو الحكم حتى زمن عبد الملك بن مروان ولكن لم يذكر زمن وفاته ، وقد عالج عبد الملك في مرضه الذي مات فيه وحماه عن الماء : « حدث عيسى بن الحكم عن أبيه ان جده أعلمه أنه كان حمى عبد الملك بن مروان من شرب الماء في علته التي توفي فيها ، وأعلمه أنه متى شرب الماء قبل نضج علته توفي ... قال فاحتمى عن الماء يومين وبعض الثالث »[٣].

وكان ابن أثال طبيباً نصرانياً بدمشق اصطفاه معاوية بن أبي سفيان لنفسه. قال عنه ابن ابي اصيبعة « كان طبيباً متقدماً من الأطباء المتميزين في دمشق ، نصراني المذهب ، ولما ملك معاوية بن أبي سفيان دمشق اصطفاه لنفسه وأحسن إليه ، وكان كثير الافتقاد له والاعتقاد فيه ، والمحادثة معه ليلاً ونهاراً . وكان ابن أثال خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة ، وما منها سموم قواتل وكان معاوية يقربه لذلك كثيراً»[٤].

وقد خطا الطب زمن عمر بن عبد العزيز خطوة إلى الأمام وذلك بنقله تدريس الطب من الاسكندرية الى انطاكية وحران ، بنقله الطبيب عبدالملك بن

---

(١) عيون الانباء ص ١٧٥ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) عيون الانباء ص ١٧١ .

أبجر الكناني الذي أسلم على يد عمر حين كان في مصر ، وقد قال عنه ابن أبي اصيبعة « كان طبيباً عالماً ماهراً . وكان في أول أمره مقيماً في الإسكندرية لأنه كان المتولي في التدريس بها من بعد الاسكندرانيين الذين تقدم ذكرهم ، وذلك عندما كانت البلاد في ذلك الوقت لملوك النصارى . ثم ان المسلمين لما استولوا على البلاد وملكوا الاسكندرية ، أسلم ابن ابجر على يد عمر بن عبد العزيز ، وكان حينئذ أميراً قبل ان نصل اليه الخلافة وصحبه ، فلما أفضت الخلافة إلى عمر سنة تسع وتسعين للهجرة نقل التدريس إلى انطاكية وحران وتفرق في البلاد ، وكان عمر بن عبد العزيز يستطب ابن ابجر ، ويعتمد عليه في صناعة الطب »[1].

ولابن أبجر بعض النصائح الطبية التي تقي من الأمراض منها؛ « دع الدواء ما احتمل بذلك الداء، وهذا من قول النبي : سر بدائك ما حملك — وقوله « المعدة حوض الجسد والعروق تشرع فيه فما ورد فيها بصحة صدر بصحة ، وما ورد فيها بسقم صدر بسقم »[2] ، وذكره ابن جلجل باسم ابن ابجر وقال« انه كان يفحص الماء أي البول لعمر. كان طبيباً عالماً ، وروي ان عمر بن عبد العزيز كان يبعث اليه بمائه »[3] .

وقد استعان عمر بن عبد العزيز بطبيب يهودي يدعى ماسرجويه في تفسير كتاب اهرن بن اعين الى العربية ، قال ابن جلجل عن ماسرجويه« كان يهودي المذهب سريانياً ، وقد تولى في الدولة المروانية تفسير كتاب اهرن بن أعين القس الى العربية ، ووجده عمر بن عبد العزيز في خزائن الكتب فأمر بإخراجه ووضعه في مصلاة ، فاستخار الله في إخراجه الى المسلمين للانتفاع به ، فلما تم له في ذلك اربعين صباحاً أخرجه إلى الناس وبثه في أيديهم »[4] ، وقد عدد

---

(١) عيون الانباء ص ١٧١ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن جلجل، طبقات الاطباء والحكماء ص ٥٩ ، تحقيق فؤاد سيد (مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية القاهرة) ١٩٥٥ م .

(٤) نفسه ص ٦١ .

للقفطي لماسرجويه بعض الكتب منها « كتاب قوى الأطعمة ومنافعها ومضارها، كتاب قوى العقاقير ومنافعها » .

وقد كان الفصد عملية شائعة ، وكان يقوم به الحجام ، وقد حدّث عيسى ابن حكم الدمشقي عن أبيه قال : « إنه ركب مع أبيه حكم بمدينة دمشق ، فاجتازوا بحانوت حجام وقد وقف عليه بشر كثير ، فلما بصر بنا بعض الوقوف قال : افرجوا ،هذاحكم المتطبب وعيسى ابنه. فأفرج القوم ، فإذا رجل قد فصده الحجام في العرق الباسليق ، وقد فصده فصداً واسعاً . وكان الباسليق على الشريان فلم يحسن الحجام تعليق العرق فأصاب الشريان ، ولم يكن عند الحجام حيلة في قطع الدم . واستعملنا الحيلة في قطعه بالرفائد ونسج العنكبوت والوبر ، فلم ينقطع بذلك ، فسألني والدي عن حيلة ، فأعلمته أنه لا حيلة عندي . فدعا بفستقة فشقها وطرح ما فيها : وأخذ أحد نصفي القشر فجعله على موضع الفصد ، ثم أخذ حاشية من ثوب كتّان غليظ فلف بها موضع الفصد على قشر الفستقة لفاً شديداً، حتى كان يستغيث المفتصد منشدته ، ثم شد ذلك بعد اللف شداً شديداً ، وأمر بحمل الرجل إلى نهر بردى ، وأدخل يده في الماء ووطأ له على شاطىء النهر ونومه عليه وأمر فحسي محات بيض نيمرشت ، ووكل به تلميذاً من تلامذته وأمره بمنعه من إخراج يده من موضع الفصد من الماء إلاّ عند وقت الصلاة أو يتخوف عليه الموت من شدة البرد . فإن تخوف ذلك أذن له في إخراج يده » (٢) .

---

(١) طبقات الاطباء ص ٦١ .

(٢) عيون الانباءص ١٧٧ ، واخبار العلماء ص ١٢٣ .

– الهندسة المعمارية :

تمثلت الهندسة المعمارية زمن بني أمية ببناء المساجد والقصور ، فقد بنى عبد الملك مسجد الصخرة ببيت المقدس، وبنى ابنه الوليد مسجد دمشق ومسجد المدينة ، وقد استعان الأمويون بالروم في هذه العمارة، فجلبوا الصناع من بيزنطة وهذا ما تجمع عليه المصادر ، وقد نقل الاستاذ أسد رستم عن شارل ديل قوله في هذا المجال : « إن قبة الصخرة التي أنشأها الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان في بيت المقدس بين السنة ٦٨٧ والسنة ٦٩٠ م هي من حيث فنها نموذج مكمل للفن البيزنطي في القرن السابع . فشكلها المثمن الزوايا وقبتها ولا سيما تلبيس جدرانها بالرخام وتزيينها بالفسيفساء المذهبة ، جميع ذلك ينطق بأثر الفن البيزنطي ، ويرى هذا العالم الرأي نفسه فيما يتعلق بالمسجد الأموي في دمشق فيذكر أن الوليد ، عندما أراد أن يحوّل كنيسة مار يوحنا المعمدان إلى جامع، استعان بزميله فسيلفس الروم فأرسل له الصنّاع لهذه الغاية وان الكنيسة هذه أصبحت بعد تحويلها تشبه من الجهة الفنية بسيليقة بيزنطية ذات قبة وان الفسيفساء التي وشحت الجدران هي فسيفساء بيزنطية أيضاً »[1] .

ويقول كرزويل الذي ألّف كتاباً عن الهندسة المعمارية الإسلامية عن قبة الصخرة : « ربما كانت أقدم عمل في الهندسة المعمارية الإسلامية ، ومنشئها هو عبدالملك بن مروان ، وهي بناء مستدير مكوّن من قبة خشبية طول قطرها ٢٠،٤٤ متراً ، تقع على اسطوانة عالية ، ولها ستة عشر شباكاً ، وأربعة أروقة

---

(١) رستم ، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ، ط أولى (دار المكشوف) ١٩٥٥ . وسيشار إليه بـ «الروم» .

- واثنا عشر عموداً يكوّنون دائرة تحيط بالصخرة وتتبادل كل ثلاثة أعمدة مع رواق . وهناك اسطوانة مركزية طولها مساوٍ لقطرهـــا ، وهي دائرة للدعم موضوعة في وسط شكل مثمن طول ضلعه حوالى ٢٠,٦٠ متراً ومكوّن من ثماني حيطان علو كل منها ٩,٥ متراً .. »[١] .

وقد أنفق الوليد بن عبد الملك مبالغ طائلة في بناء المسجد الأموي بدمشق حتى أصبح من عجائب الدنيـــا السبع قال ابن العماد في حوادث سنة ٨٧ هـ : « وفيها ابتدىء ببناء جامع دمشق ودام العمل في بنائه وزخرفته بالجد والاجتهاد أكثر من عشرين سنة ، وكان فيه اثنا عشر ألف صانع وهو أحد عجائب الدنيا السبع »[٢] ، وقد بلغ من تكاليف بناء هذا الجامع والإنفاق عليه أن ضج أهل دمشق لخوفهم على عطائهم أن ينفذ إلا أن الوليـــد طمأنهم على ذلك فذكر ابن عساكر : « لما أخذ الوليد بن عبد الملك في بناء مسجد دمشق وظهر من تزويقه وبنائه وعظم مؤونته ما ظهر ، تكلم الناس فقالوا : ينفق في البناء ويتلف ما في بيوت أموالنا في نقش الخشب وتزويق الحيطان ! ثم كأنـــه حرمنا أعطياتنا واعتل علينا بذهاب المـــال وقلته ، فبلغ الوليد كلامهم والذي قالوا من ذلك ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس قد بلغني مقالتكم ، وانتهى إليّ ما خفتم من حبس أعطياتكم ودفعكم عن حقوقكم ، وليس الأمر على ما ظننتم ، ألا وإني أمرت بإحصاء ما في بيوتكم من المـــال فأصبت فيه عطاءكم ست عشرة سنة مستقبلة من يومي هذا »[٣] ، ويذكر البلاذري عن الوليد قوله : « وكان الوليد صاحب بناء واتخاذ للمصانع »[٤] .

---

(١) Creswell, A Short Account of Early Muslim Architecture, Richard Com. Britain , p. p. 18 - 19 .

(٢) شذرات الذهب جـ ١ ص ٩٧ .

(٣) تاريخ دمشق جـ ٢ ص ٢٤ .

(٤) أنساب الاشراف جـ ١ ص ٥٥ .

ومن المساجد التي بناها الوليد أيضاً « مسجد قصر الحلابات ، وهو مسجد صغير مساحته ١٠و٧٠ في ١١و٨٠ متراً ، وله دعامتان عليهما أقواس ، ويوجد به ثلاثة مداخل مستديرة ، ويحيط به من الخارج رواق معمد علوه ٣و٣٠ متراً مغطى بسقف خشبي منحدر وعشرة ثقوب لاستقبال دعامات الخشب التي ترى قرب أعلى الواجهة الغربية . وقد بنيت جدرانه من حجر الجير بسمك ٨٢ سم ، بداميك علوها ٤٠ سم . أما عرض المحراب فهو ١و٢م وفوقه نافذة كعين الثور ، وهناك حلية معمارية تمتد حول القسم الداخلي وترتفع ١و٢ متراً فوق الأعمدة .. والمسجد مسقوف بثلاثة قناطر متوازية »[١] .

أما سليمان فقد بنى مدينة الرملة وجامعها كما بنى جامع حلب فقال كرزويل: « بنى سليمان مدينة الرملة وجامعها الذي هدم بالزلازل سنة ١٠٣٣ م وكان بأعمدة من المرمر ، كما بنى جامع حلب »[٢] .

وقد بنى هشام مسجدين كبيرين هما مسجد حران ومسجد الأبيض في الرملة وقد وصف كرزويل مسجد حران فقال : « وبنى هشام مسجد حران الكبير وهو مستطيل مساحته مائة متر مربع تقريباً ، بني من حجارة مربعة في مداميك معدل ارتفاعها ٣٧ سم . وأفضل مـا بقي منه هو الحائط الشرقي حيث بقي النصف الشرقي على حاله سليماً ما عدا فجوة اتساعها ستة أمتـار في الوسط . وللمسجد مدخل مهيب إلى الشمال تمامـاً من واجهته كما في مسجد دمشق ، كما يوجد في صحن المسجد بركة أو حوض اتساعه ١و٦ متراً . وتحوي الواجهـة الداخلية للمسجد أربعة ممرات تمتد من الشرق إلى الغرب وقد بقي من كل ذلك عدد من الدعائم وعمودين والكثير منها ملقى على الأرض ، وان القوس الوحيد الباقي هو القوس الرئيسي الكبير والقريب من الصحن »[٣] ، كما بين كرزويـل

(١) كرزويل ص ١٠٦ .

(٢) نفسه ص ١٠٨ .

(٣) نفسه ص ١٥١-١٥٢ .

« أن بناء المسجد يجمع بين فن العمارة لما بين النهرين والنظام الكلاسيكي القديم »[1].

ووصف المقدسي جامع الأبيض في الرملة وهو من أعمال هشام فقال : « ليس في الإسلام أكبر من محرابه ولا بعد منبر بيت المقدس أحسن من منبره وله منارة بهية بناه هشام بن عبد الملك »[2].

وبنى الخلفاء الأمويون كثيراً من القصور في المدن والبادية : فقد بنى الوليد ابن عبد الملك قصر المنيا ، وقصير عمرة ، وحمام الصرخ .

ويقع قصر المنيا في الجزء الشمالي الشرقي من بحيرة طبرية كما يقول كرزويل ، وقد اكتشفه مادر سنة ١٩٣٢ م ، وكذلك شنيدر الذي قال عنه : « انه مستطيل ، ويشبه من الخارج الـ (كاسترا) على الحدود الرومية في الاردن — له برج مستدير في كل زاوية ، وبرج نصف دائري قطره ٤ أمتار في وسط كل جانب ما عدا الشرقي منها حيث يوجد برج البوابة العجيب وعرضه ٥ و ١٦ م ، وقد بنيت الحيطان بعناية من حجر الجير بسمك ١٫٤ م كما يحوي المدخل الرئيسي على غرفة طولها ٦ م قائمة بين برجين ربع دائريين . وهناك فجوة نصف دائرية نحو اليمين والشمال وفوق ذلك قبة مزخرفة وحلية معمارية وردية الشكل . وفي الجانب الداخلي مدخل مقوس عرضه ٣٫٧٥ م يفضي إلى قاعة عرضها ٧م وطولها ١١ م ، وهي تفضي بدورها إلى الساحة الرئيسية ، وقد أظهرت الحفريات أن رواقاً بالأعمدة يحيط حول هذه الساحة ويقوم على قناطر تشبه أربع لامات لاتينية وستة أعمدة على كل جانب . ويقع المسجد في الزاوية الجنوبية الغربية وعرضه ١٣٫١ م وارتفاعه ١٩٫٤٢ م . ويوجد في الجزء الأوسط من الجانب الجنوبي مجموعة من الغرف علوها ١٩٫٤٢ م كالمسجد وعرضها ٤٢٫٢٠ م ومن الممكن أن تكون قد أعدت للاحتفالات لأن تزيينها كان على درجة عظيمة من

---

(١) كرزويل ص ١٥٤ — ١٥٥ .
(٢) احسن التقاسيم ص ١٦٥ .

الروعة . أما القسم الأوسط فيحوي قاعة كبيرة مربعة طول ضلعها ٢٠ مترا ، وتتصل بالساحة بثلاثة أبواب . وكان البلاط والحيطان مغطاة أصلاً بالواح من المرمر حتى ارتفاع معين ثم تزين الحيطان بالفسيفساء .. » [١]

أما القصر الآخر من اعمال الوليد فهو قصير عمره وقد ذكره كرزويل أيضاً فقال : « يقع في الصحراء بطرف وادي بطم نحو ٥٠ ميلاً شرقي عمان ، اكتشفه موزل سنة ١٨٩٨ م وهو بناية صغيرة مبني من حجر الآجر الاحمر المجلوب من التلال المجــاورة ويتألف من قسمين رئيسيين : الأول قاعة مستطيلة للحضور اتساعها ٨,٥ م في ٧,٥ م مع فجوة مظللة مفتوحة من الجهــة الجنوبية ويجانبها غرفتان . والثاني : حمام يحوي ثــلاث غرف . وعند المدخل فإن أول ما يدهش المرء هو نظام القناطر الغريب . وقد قسم المربــع الداخلي الى قوسين معترضين لثلاثة فسحات بعرض متساوٍ... ويعتبر هذا القصر واحداً من أقرب النماذج للامح الفن المعماري الاسلامي » [٢] ، إلا ان كرزويل يعتقد انه ربما يرجع *هذا القصر إلى العصر الهليني فيقول : « ومن الممكن ان قصير عمره يرجــع الى* العصر الهليني المتأخر بسوريا » [٣] وذلك لوجــود بعض الرسوم على جدرانه والمعروف ان المسلمين كانوا يمنعونها ، كما وجد فيه الزخرفة بالجص وهي زخرفة معروفة زمن الفترة الرومانية .

وعلى نفس نمط قصير عمره ذكر كرزويل قصر حمام الصرخ من أعمال الوليد أيضاً ويرجح الكاتب بناءه بين سنتي ٧٢٥ م — ٧٣٠ م .

أما سليمان فقد بنى قصر الحائر الشرقي ويقع على بعد ٦٠ ميلاً شمال شرقي تدمر و٤٠ ميلاً جنوبي الرصافة ، ويلاحظ استعمال الآجر في بنائه فقــال كرزويل في ذلك « ان استعمال الآجر في قصر الحائر شيء شاذ في سوريا ، فقبل

---

(١) كرزويل ص ٨٢–٨٤.
(٢) نفسه ص ٨٥–٨٦ .
(٣) نفسه ص ٩٥ .

الاسلام ، كانت العمارة تعتمد على الحجر مع استثنائين : قصر ابن وردان وقصر أندرين الكبير ، ففي كليهما أعمدة من الآجر مع الحجر، ولكن الآجر المستعمل هو آجر بيزنطي رقيق مساحته ٣٠ في ٣٤ في ٣،٥ سم و٣٤ في ٣٧ في ٤سم بينما الآجر المستعمل في قصر الحائر أصغر بالطول والعرض وأكثر بالسمك وهو كالآجر الذي استعمل في بناء بوابة بغداد في الرقة سنة ٧٧٢ م ، ويظهر ان تأثيرين قد أثرا في بنائه وهما البيزنطي وما بين النهرين »[١] .

ومن أعمال هشام قصر المشتى وقصر الطوبا ، أما المشتى فهو أعظم قصور بني أمية شهرة ، اكتشفه ليارد سنة ١٨٤٠ م وهو يبعد ٢٠ ميلاً جنوبي عمان و٣ أميال شمال شرق محطة زيزياء على خط الحجاز الحديدي ويقول عنه كرزويل : « إنه يحتوي على سياج حجري عظيم مساحته ٤٤ متر مربع، وهو محاط بأبراج نصف دائرية ، وله مدخل في وسط الجانب الجنوبي ، أما علو الحيطان فيتراوح بين ٣ — ٥،٥ م عدا عن الجزء المزخرف من الواجهة المهدومة . ويبلغ سمك الجدار ١،٧ م ، أما أبراج الزوايا فيبلغ قطرها ٧ م ، والتي في الوسط نحو ٥،٢٥ م ما عدا برجين بجوار المدخل وهما بشكل نصف مثمن فعرضهما ٦،٣٠م. أما البناء فهو من حجر الجير ذي اللون الكهرماني، وعلو المداميك يختلف من ٣٧ الى ٣٤ سم . وخلف المدخل مباشرة هناك قاعة الدخول وطولها ١٧،٤٠ م حيث تفضي الى ساحة سعتها ١١و٢٧ م وارتفاعها ٢٣ م ، وبجانب هذه الساحة ساحة رئيسية مساحتها ٥٧ م٢ ويقع في الجانب الشمالي مدخل مثلث الأقواس يؤدي الى قاعة ملكية كبيرة علوها ٢١،٦٠ م ... »[٢] .

أما القصر الآخر وهو قصر الطوبا « فيقع في وادي غضف ٦٠، ميلاً جنوب شرقي عمان اكتشفه موزل سنة ١٨٩٨ م وهو مستطيل الشكل ، مساحته ١٤٠،٥ في ٧٢،٨٥م »[٣] .

---

(١) كرزويل ص١٢٢ — ١٢٣ .
(٢) نفسه ص ١٢٤ — ١٢٦ .
(٣) نفسه ص ١٢٩ .

ولو ألقينا نظرة على هذا الفن المعماري لرأيناه قد ابتدأ زمن عبد الملك بن مروان ببناء مسجد الصخرة ، ومعنى ذلك ان العرب قبل ذلك منذ الفتح الإسلامي للشام وحتى زمن عبد الملك قد أغفلوا هذا الفن ولم يستعينوا بالعمال الاجانب فيه ، ومع ان بعض الروايات قد عزت بعض أعمال عبد الملك وإبنه الوليد في بناء المساجد إلى مباهاة النصارى ، إلا أن بعضها الآخر يلمح إلى أن الوليد مثلاً قد بنى مسجد دمشق لأن المسجد القديم قد ضاق بالمسلمين لازدياد عددهم .

وقد تأثر العرب بالفن المسيحي في بناء المساجد كالمآذن مثلاً، يقول عنها كرزويل : « أما المآذن فكانت أبراجاً مربعة طويلة ، مأخوذة من أبراج الكنائس الموجودة في سوريا قبل الإسلام »[1] .

وكما استعان العرب بالروم وبالمسيحيين في سوريا كذلك استعانوا بالفرس كما رأينا وخصوصاً بالزخرفة بالفسيفساء ، « كما اتخذوا من القلاع الرومانية نماذج لهم في إقامة قصورهم الصحراوية ، وهي قلاع ممتدة من خليج العقبة الى تدمر »[2] ، ومن ناحية الأقواس فقد استخدم الأمويون القوس نصف الدائري وربع الدائري وغيرها من أنواع الأقواس المعروفة آنذاك ، كما عملوا القبب للمساجد وهذا نظام بيزنطي كما قال الاستاذ رستم . أما من ناحية التصوير فإن هناك صوراً بالجص رسمت على بعض الجدران في القصور مما يدل على ان التصوير كان مسموحاً به في هذه الفترة .

وقد ساعد فن الهندسة المعمارية في ظهور علم آخر وهو علم الخط ، وذلك للكتابة على المساجد وتزيينها بآيات القرآن الكريم ، فقد قيل عن خالد بن أبي الهياج : « أنه كان كاتب الوليد بن عبد الملك وهو الذي كتب الكتاب الذي في قبلة مسجد النبي ﷺ بالذهب من سورة (والشمس وضحاها إلى آخر القرآن)

---

(١) كرزويل ص ١٥٦ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

وهو أول من كتب المصاحف في الصدر الأول »[1] .

ومن المهندسين العرب الذين ظهروا زمن بني أمية ووفد الى الشام المهندس عمر الوادي وقد كان زمن الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك قال ياقوت عنه : « عمر الوادي نسبة إلى وادي القرى بين المدينة والشام ، وهو عمر بن داود بن زاذان مولى عثمان بن عفان ، وكان مهندساً في أيام الوليد بن يزيد بن عبدالملك ، ولما قتل هرب وهو استاذ حكم الوادي »[2] ، ويذكر أن حكم الوادي كان مغنياً وأن الذي قدمه الى الوليد بن يزيد هو استاذه المهندس عمر.

وقد ترجم في هذه الفترة في الشام بعض الكتب الهندسية عن اليونان ، وكان المترجمون الذين ترجموا كتب الطب هم أنفسهم الذين ترجموا كتب الهندسة وذلك ان المترجم كان يتخصص بجميع الفروع العلمية ، ومنهم (هلال بن ابي هلال الحمصي ترجم من كتاب ابلونيوس (المخروطات) اربع مقالات من أصل سبع [3] . وقال عنه ابن أبي أصيبعة : « كان هلال صحيح النقل ولم يكن عنده فصاحة ولا بلاغة في اللفظ »[4] .

ومن المترجمين زروبا بن ماجوه قال عنه ابن أبي أصيبعة : « كان قريب النقل وما هو في درجة من كان قبله »[5] .

---

(١) الفهرست ص ٩ .
(٢) معجم البلدان مادة وادي القرى .
(٣) الفهرست ص ٣٧٣ .
(٤) عيون الانباء ص ٢٨٠ .
(٥) نفس المصدر والصفحة ،

٢ـ العلوم التاريخية :

السير والمغازي والأنساب .

كان عالم الأخبار في الجاهلية بمثابة المؤرخ في ذلك العهدفكان يروي الحوادث التي وقعت سواء كان منها تاريخياً أو حوادث طريفة ، لذا كان أغلب المعمرين من رواة الأخبار أو بالأحرى أن المعمر قد يكون مؤهلاً ليكون عالماً بالأخبار، وأغلبها ما كان يتعلق بأيام العرب وحروبهم ، ولما كانت هذه الأيام تحدث بين القبائل لذا كان على الراوية أن يكون عالماً بالأنساب وبالقبائل وبمفـــاخرها ومثالبها ، ومن هؤلاء الإخباريين عبيد بن شريه الجرهمي وعلاقة بن كريم أو كرسم ، أما عبيد فقد إستدعاه معاوية إلى الشام ليسأله عن أخبام الأمم وعن اطرف شيء صادفه في حياته .قال عنه ياقوت : « وفد على معاوية ... وعاش ثلاثمائة سنة وقال بعضهممائتي وعشرين سنة إلا أننا نظن انه عاشها في الجاهلية وأدرك الإسلام فأسلم ..قال له معاوية : كم أتى عليك ؟ قال : مائتان وعشرون سنة ، قال : ومن أين علمت ذاك ؟ قال : من كتاب الله ، قال ومن أيّ كتاب الله ؟ قال : من قول الله سبحانـــه (وَجعَلنَا الليـلَ وَالنَهارَ آيتَين فمحَونَا آيةَ الليل وجعَلنَا آيةَ النَهـارِ مُبصِرةً لِتَبتَغوا فضلاً من رَبّكم ولِتَعلموا عَددَ السِنين والحِسَاب) . فقال له معاوية : وما أدركت ؟ قال : ادركت يوماً في أثر يوم ، وليلة في أثر ليلة »[1] ، ويذكر ابن النديم أن معاويـــة سأله

---

(١) ياقوت ، معجم الادباء جـ ١٢ ص ٧٣ . نشره مرجليوث ط الثانية (مطبعة هندية بمصر) ١٩٢٣ م .

أسئلة تتعلق بالتاريخ ثم أمر الكتبة أن يدوّنوا أقواله ، فهذا يكون أول تدوين للتاريخ في الشام بل وكافة الأقطار الإسلامية : فقال : « فسأله عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الألسنة وأمر افتراق الناس في البلاد وكان استحضره من صنعاء اليمن فأجابه إلى ما أمر به ، فأمر معاوية أن يدوّن وينسب إلى عبيد بن شرية ، وعاش عبيد بن شرية إلى أيام عبد الملك بن مروان وله من الكتب كتاب الأمثال ، كتاب الملوك وأخبار الماضين »[1] ، ومع أن عبيد قد عاش إلى زمن عبد الملك إلا أنه يعتبر جاهلياً لأنه لم يرو إلا عن حوادث الجاهلية وأخبارها وأمثالها ولم يرو شيئاً عن السيرة النبوية أو المغازي مع أنه قد عاصر الرسول : ويبدو أنه لم يكن يرى من حقه أن يروي السيرة لأنه ربما لم يشهد الغزوات مع الرسول ولا صاحبه في حياته ، وأن رواة المغازي والسير كانوا من الذين حضروا تلك المغازي وصاحبوا الرسول فلما اتى عصر التابعين كان لكل حافظ أن يروي عن الصحابة ما يشاء. ويروى أن معاوية سأل عبيداً عن أعجب ما شاهده في الجاهلية فقال له : « اخبرني بأعجب شيء رأيته في الجاهلية ، فقال : اني نزلت بحي من قضاعة فخرجوا بجنازة ... »[2] ثم يروي قصة طريفة .

أما علاقة ابن كريم ويذكره ياقوت بإسم كرسم فقد روى عن عبيد بن شريه وكان عالماً بأيام العرب وهو من سمار يزيد بن معاية قال ابن النديم : « علاقة كريم الكلابي من بني عامر بن كلاب في أيام يزيد بن معاوية عارف بأيام العرب وأحاديثها وهو أحد من أخذت عنه المآثر له كتاب الأمثال نحو خمسين ورقة رأيته »[3] .

ـ رأينا كيف أن الصحابة كانوا وحدهم الذين يروون جهاد النبي وسيرته حيث

(١) الفهرست ص ١٣٣ .

(٢) عيون الاخبار ، جـ ٢ ص ٣٠٥ . والسجستاني ، المعمرون والوصايا ص ٥٢ .

(٣) الفهرست ص ١٣٢ – ومعجم الادباء جـ ١٢ ص ١٩٠ .

حضروا وعاشوا هذه الأحداث فقد روى عبادة بن الصامت خبر بيعة العقبة الأولى والثانية [١] ، وقد روى الصحابة أو أغلبهم مثل هذه الحوادث ولكنهم لم يرووها على اساس انهم مؤرخون بل كان التابعون يلحون بالسؤال عليهم لمعرفة ما جرى في بدر وأحد والخندق بالتفصيل ، وكان من هؤلاء التابعين من تخصص في الرواية فسأل كثيراً من الصحابة من الذين حضروها فنسبت هذه الأقوال إلى التابعي ، كالزهري مثلاً وأبي إدريس الخولاني . وبعد وفاة النبي شهد بعض الصحابة فتوحات الشام والعراق ، فرووا أيضاً أحداثاً دقيقة عن سير المعارك والغزوات : فقد اشترك أبو امامة الباهلي في فتح الشام ، فروى عنه المؤرخون بعض الأحداث التي حدثت معه بصورة مباشرة وهذا مـــا يضفي على الخبر صبغة مهمة ، إذ أن سير المعركة قد يكون معروفاً لدى الجميع ، ولكن دقائقها ليس كذلك فقد ذكر الواقدي مثلاً في فتوح الشام وصفاً دقيقاً لمعركة اليرموك عن عبادة بن الصامت روى فيه دقائق بالغة في الاهمية ، حتى وصف انفعالات بعض المسلمين وأحاسيسهم أثناء المعركة [٢] . كما أورد الطبري عن أبي امامـــة بعض اخبار اليرموك والأحداث التي شاهدها في تلك المعركة [٣] .

وقد ورد في القرآن أخبار الأمم والأنبياء السابقين ، فسأل الصحابة عن تفصيلات ذلك بعض أهل الكتاب وتأثر بعضهم بأقوالهم ومنهم سلمان الفارسي الذي أورد عن سيدنا نوح أخباراً قد تأثر بها بالإسرائيليات كما يبدو فقال: « عمل نوح السفينة اربعمائة سنة وانبت الساج اربعين سنة حتى كان طوله ثلثمائة ذراع » [٤] .وكان لكعب الأحبار أثره في التاريخ كما كان في التفسير بل إنه قد مهّد للفتنة الكبرى بين علي ومعاوية حين ألمح لمعاوية أنه سيلي الخلافة بعد

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ١٤٠ ، ١٤٩ .
(٢) الواقدي ، فتوح الشام جـ ١ ص ١١٣ — ١١٤ « مطبعة العلوم الادبية بمصر » لات .
(٣) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٥٩١ .
(٤) نفسه جـ ١ ص ٢٢٤ .

عثمان ، قال الطبري : « ما زال معاوية يطمع في الخلافة بعد مقدمه على عثمان حين جمعهم فاجتمعوا اليه بالموسم ثم ارتحل فحدا به الراجز :

ان الأمـــير بعده علي وفي الزبير خلف رضي

قال كعب كذبت صاحب الشهباء بعده يعني معاوية فأخبر معاوية فسأله عن الذي بلغه، قال نعم انت الامير بعده ولكنه والله لا تصل اليك حتى تكذب بحديثي هذا فوقعت في نفس معاوية » [1] .

أما من الصحابة المشهورين في النسب فدغفل بن حنظلة ،قال ابن عساكر : « دغفل بن حنظلة يقــال إن له صحبة ويقال لا صحبة له ، استقدمه معاوية وأمره ان يعلم ولده يزيد وروى ان النبي ﷺ توفي وهو ابن خمس وستين سنة »[2] . وقال ابن عساكر أيضاً : « وأرسل اليه معاوية يسأله عن أنساب العرب وعن النجوم وعن العربية وعن أنساب قريش فأخبره بذلك » [3] .

ولهذه العوامل المذكورة من قدوم الصحابة إلى الشام والإهتمام بالانساب والفتوحات والرواية عنها ما جعل من الشام في عصر التابعين وتابعيهم مكاناً مهماً في أمر المغازي ، قال ابن عيينة : « من أراد الإسناد والحديث الذي يسكن عليه فعليه بأهل المدينة ، ومن أراد المناسك والعلم بهـا والمواقيت فعليه بأهل مكة ، ومن أراد المقاسم وأمر الغزو فعليه بأهل الشام » [4] ، وهذا ما جعل الاوزاعي يستهجن تأليف كتاب في السير من قبل عراقي وذلك لأن مغازي الرسول والصحابة كانت من جهة الشام : « لما وقع (السير الصغير) بيدالاوزاعي قال لمن هذا الكتاب، فقيل لمحمد العراقي فقـــال : ما لأهل العراق والتصنيف

(١) تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٣٨١ .
(٢) تهذيب ابن عساكر جـ ٥ ص ٢٤٢ .
(٣) نفسه جـ ٥ ص ٢٤٣ .
(٤) تاريخ دمشق جـ ١ ص ٣١٦ .

في هذا الباب فإنه لا علم لهم بالسير ، ومغازي رسول الله ﷺ وأصحابه كانت من جانب الشام والحجاز دون العراق ، فإنها محدثة فتحاً » [1] ، أما ابن تيمية فيذكر ان أعلم الناس بالمغازي أهل المدينة ثم أهل الشام ويوضح سبب ذلك فيقول : « فأهل المدينة أعلم بها لأنها كانت عندهم وأهل الشام كانوا أهل غزو وجهاد فكان لهم من العلم بالجهاد والسير ما ليس لغيرهم ، ولهذا أعظم الناس كتاب أبي اسحق الفزاري الذي صنفه في ذلك وجعلوا الأوزاعي أعلم بهذا الباب من غيره من علماء الأمصار » [2] . وأقوال ابن تيمية هذه صحيحة إلى مدى بعيد ، فقد اشترك عدد كبير من التابعين في فتوحات الشام والجزيرة وفلسطين ومن هؤلاء عبد الرحمن بن غنم الذي اعتبر أيضاً من الصحابة ، فقد روى له البلاذري بعض الحوادث زمن الفتح الإسلامي لفلسطين [3] ، كما ان له روايات كثيرة بعد ذلك منها « ذكر عام الرمادة واستغاثة عمر بولاة الأمصار » [4] .

ومن التابعين الشاميين الذين شهدوا الفتوح شراحيل بن مرثد وهو أبو عثمان الصنعاني قيل عنه : « أدرك أبا بكر وشهد اليمامة وفتح دمشق وروى عن سلمان الفارسي وأبي الدرداء قال ابن حبان : صاحب الفتوح يروي المراسيل » [5] ، وقد أوردت له المصادر وصفه لفتح حمص وحصار دمشق وكيفية فتحها [6] .

ولم تكن كل الأخبار هي أخبار فتوح أوغزوات بل حصلت حوادث أخرى

---

(١) الرد على سير الاوزاعي ص ٣٠٢ .
(٢) مقدمة في التفسير ص ١٥ .
(٣) فتوح البلدان ص ١٧٢ .
(٤) تاريخ الطبري جـ ٣ ص ١٩٣ .
(٥) تهذيب التهذيب جـ ٤ ص ٣٢٠ .
(٦) تاريخ دمشق جـ ١ ص ٥٠٠ .

سواء كان ذلك زمن الخلفاء الراشدين أو زمن الأمويين فكان العلماء التابعون يروون هذه الحوادث ، فمثلا روى رجاء بن حيوة قصة استخلاف عمر بن عبد العزيز » [1] كما روى « سعيد بن واقد أخباراً عن عمر بن عبد العزيز» [2].ومن رواة الاخبار الشاميين أيضاً عبادة بن نسي الذي روى « غزوة معاوية لعمورية» [3] ، وجبير بن نفير من التابعين الشاميين روى حوادث في فتح قبرص من قبل المسلمين [4] .

وقد اهتم التابعون في الشام بالأخبار الواردة في القرآن فأخذوا يروونها بلغتهم الخاصة فكان ذلك أقرب إلى الموعظة منه إلى الاخبار . ومن هؤلاء شهر بن حوشب الذي روى أخباراً عن قارون مستعيناً بالقرآن الكريم فقال : « فوعظه قومه على ما كان من بغيه ونهوه عنه وأمروه بانفاق ما أعطاه الله في سبيله والعمل فيه بطاعته » [5] . وقد استعان الوليد بن مسلم أيضاً وهو من تابعي التابعين بالقرآن كما استعان أكثر التابعين في رواياتهم ، وذلك حين روى عن عيسى بن مريم [6] . كما روى حسان بن عطية قصة عن أحد ملوك بني اسرائيل مع عيسى بن مريم حين أحيى الموتى [7] ، كما اهتم الرواة المسلمون بأخبار المعارك بين الفرس والروم وذلك لورود سورة في القرآن تحكي عن انكسار الروم ثم غلبهم في النهاية على الفرس ، مما جعل بعض رواة الأخبار يتتبع تلك الوقائع بينهم ، فكان القرآن باعثاً قوياً لدراسة التاريخ : وقد ذكر الوليد بن مسلم قدوم كسرى الى الشام وظهوره على الروم ثم رجوعه لمناصرة

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٥ ص ٧ ٣ .
(٢) انساب الاشراف جـ ١ ص ٦٧ .
(٣) فتوح البلدان ص ١٩٥ .
(٤) تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٣١٨ .
(٥) نفسه جـ ١ ص ٣١٤ .
(٦) تاريخ دمشق جـ ١ ص ١٩٧ .
(٧) نفسه جـ ٢ ص ٩٧ — ٩٨ ،

ملك الخزر على ملك الهند [1] .

ومن الذين أثّروا تأثيراً كبيراً في الناحية التـــاريخية من سيرة ومغازي وأنساب في هذه الفترة الزهري ، فإنه حجازي وشامي في نفس الوقت، وهذان البلدان قد حازا السبق في مجال المغازي والسير ، وقد جمع كل ما يستطيع من علم اهل المدينة وقدم به الى الشام ، وكان يجمع أقوالاً متعددة للحوادث التي جرت زمن الرسول ويدوّن هذه الأقوال على اختلافها كما فعل في حديث الافك حيث قال : « كل قد حدثني بعض هذا الحديث وبعض القوم كان ادعى له من بعض وقد جمعت كل الذي حدثني القوم » [2] ، ولذلك فإننا نجد اسم الزهري موجوداً في كافة المراجع التاريخية التي ظهرت بعد القرن الثـــاني كالطبري والبلاذري ، كما روى عنه محمد بن اسحق وذلك لأنه روى اكثر السيرة والمغازي والمعارك التي حصلت زمن النبي والصحابة ، وقد كانت اكثر رواياته عن عروة وعائشة ثم عن أنس بن مالك ، فمما رواه عن عروة غزوة بدر [3] ، وغير ذلك من الأحداث والوقائع ، وروى عن أنس أموراً متعلقة بسيرة النبي وأعماله الدنيوية مثل : « ان النبي كوى اسعد بن زرارة من الشوكة » [4] ، وأحياناً يروي الخبر مرسلاً ، فقد حدّث محمد بن اسحق عن الزهري : « ان رسول الله أراد يوم الخندق ان يفتدي بثلث ثمار المدينة فاستشار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة»... [5] ،وقد أورد الحاكم النيسابوري عن الزهري أربعاً وعشرين غزوة للرسول ابتداء من غزوة بدر وحتى غزوة وادي القرى [6] . ومن رواياته أخبار الكتب والعهود التي للرسول والتي بعث بها الى الملوك أو إلى البلدان ، وهذه قد

(١) نفسه جـ ١ ص ٣٦١–٣٦٢ .
(٢) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٢٦٤ .
(٣) نفسه جـ ٣ ص ١٣٥.
(٤) نفسه جـ ٢ ص ١١٧ .
(٥) الخراج ص ٢٠٧ .
(٦) معرفة علوم الحديث ص ٢٩٢ .

يعثر عليها وقد تروى إذا لم توجد ، وقد روى الزهري كتاب الرسول إلى هرقل عن أسقف نصراني أدركه في زمن عبد الملك بن مروان ، وقد روى له قصة الكتاب واثره على هرقل والبطارقة [1] ، ويذكر البخاري ان اسم هذا الأسقف هو ابن الناطور النصراني [2] . وقد سمى الزهري فترة النبي بفترة الوحي وهي مدة بعث سيدنا محمد حتى وفاته ، قال ابن تيمية : وفي حديث الزهري انه سمى فترة النبي فترة الوحي » [3] .

وكما روى الزهري عن فترة الوحي روى كذلك عن فترة الصحابة وكان يروي عن نفس المصادر التي روى عنها : «فحدث عن أنس بن مالك عن يوم السقيفة ، وروى حديث السقيفة أيضاً عن عبيد الله بن عبد الله بن عباس » [4] وهذا ما يدل على أنه كان يروي الحادثة الواحدة عن اكثر من راو ، أو انه ربما أخذ من كل راوية شيئاً معيناً من هذه الحادثة فيجمعها ويرويها جميعها ، علماً بأن الزهري كان كثير السؤال حتى انه« كان يسأل النساء في البيوت» [5] . وآخر حدث رواه الزهري ولا يمكن القطع بذلك هو موقف الحسن بن أبي طالب من معاوية [6] ، والمعروف ان الزهري قد توفي سنة ١٢٤ هـ فكان بإمكانه أن يروي إلى خلافة هشام بن عبد الملك ، ولكننا نلمح أن المؤرخين قد رووا عنه اكثر ما رووا في السيرة النبوية وفي أخبار الصحابة ، ولكنهم لم يرووا عنه شيئاً يذكر عن تاريخ بني أمية مثلاً ،وهذا يعني أن الزهري كان يعتقد أن في ذكر تاريخ الرسول والصحابة هو من الاعمال الدينية التي حض

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٢٩٢ .
(٢) صحيح البخاري جـ ٨ ص١٥٥ .
(٣) تفسير ابن تيمية ص ٢٠٠ « مطبعة بومباي الهند » ١٩٥٤ م .
(٤) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٤٤٥ .
(٥) تهذيب التهذيب جـ ٩ ص ٤٤٩ .
(٦) تاريخ الطبري جـ ٤ ص ١٢١ .

الإسلام على اتباعها فكان عمله دينياً أكثر منه تاريخياً .

وكان الزهري عالماً بالنسب أيضاً ، وقد اهتم به المسلمون لمعرفة نسب الرسول ثم أقرب الناس إليه كما أسلفنا للعطاء : قال الليث عن الزهرى مبيناً فضله في النسب : « وان حدّث عن الأنساب لقلت لا يعرف إلا هذا » (١) . إلا أن الزهري قد اعترف أن عبد الملك بن مروان أعلم منه في الأنساب فقال عنه « فجعل يسألني عن انساب قومي قريش فلهو كان اعلم بها مني » (٢) وقد استخدم الزهري علمه بالسنّة والقرآن في السيرة وفي بيان بعض الأحداث ومناسبات التنزيل مما يدل على أن السيرة لم تكن منفصلة عن غيرها من العلوم الدينية ، فقد قال الزهري عن قوله تعالى : « (وقَاتِلو هم حَتى لا تَكون فِتنَةٌ ويكونَ الدينُ كلهُ لله) قال : نزلت في كفار قريش والعرب » (٣) . وكان الزهري يكتب كما علمنا في الحديث كل شيء ومن ضمن ذلك السيرة والمغازي ، ولكننا لا نعرف شيئاً عن السيرة التي كتبها لخالد بن عبد الله القسري وربما لم يكملها .

أما في عصر تابعي التابعين فقد بدأ تدوين السير ، فألف محمد العراقي كتاباً في السير انتقده الأوزاعي كما اسلفنا ، أما في الشام فمن مؤلفي السير في هذا الوقت أبو اسحق الفزاري والأوزاعي ،ولم يصلنا شيء من هذه التآليف وعرفنا ذلك من المصادر فقط ، فقال ابن قتيبة : « ابو اسحق الفزاري ابراهيم بن محمد قيل انه صاحب سير » (٤) ، وقال سفيان بن عيينة : « ما ينبغي أن يكون رجل أبصر بالسير منه» (٥) ، ويذكر السخاوي أن « لخالد بن هشام الأموي

---

(١) تهذيب التهذيب جـ ٩ ص ٤٤٩ .
(٢) تاريخ الاسلام جـ ٥ ص ١٣٩ .
(٣) فتوح البلدان ص ٨١ .
(٤) ابن قتيبة ، المعارف ص ٥١٤ .
(٥) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٨١ .

أخبار الأمويين وغيرهم »[1] ، وقد مرّ معنا علم الأوزاعي بالمغازي والسير حتى أنه غمر مالك بن أنس بها حين اجتمع به في المدينة بينما غمره مالك بالحديث .

وكان الرواة أحياناً يروون عن علماء مجهولين أو عن محدثين ليسوا مشهورين بدرجة كبيرة فمثلاً رواية بقية بن الوليد لفتح فلسطين : « رواها عن مشايخ من أهل العلم »[2] ، وهذه صفة واضحة في نقل الروايات ، حيث يسأل الراوي من حضر معركة أو رأى حادثة معينة أو سمع بها وكان موثقاً ، وقد اتبع ذلك في روايته أيضاً عالم كبير في المغازي والسير في الشام وهو الوليد بن مسلم فقد روى حصار دمشق عن عدة شيوخ دمشقيين فقال : « اخبرني غير واحد من شيوخ دمشق قالوا ... ثم يذكر حصار دمشق »[3] وكان يحدث عن الجند مباشرة فقال : « حدثني شيخ من قدماء الجند ممن كان يلزم الجهاد في الزمان الأول أن أهل الشام كانوا إذا غزوا الطوائف كانوا ينزلون أرباعاً »[4] . وقد كان الوليد متأثراً بأهل الكتاب في الأمور التي تتعلق بالأنبياء السابقين والأمم الغابرة ، واعتقد أن ذلك راجع لعدم وجود المصادر الأخرى لدى المسلمين أو لأن بعض أهل الكتاب قد اسلموا . وروى الوليد أيضاً عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير وسعيد بن عبد العزيز ومكحول الدمشقي[5] وحدّث عن محمد ابن مهاجر الأنصاري « مسير هرقل إلى بيت المقدس وحروبه مع كسرى الذي غلب الروم في الشام ثم عودته لمناصرة ملك الخزر على ملك الهند »[6] . وقد كان الوليد من أصحاب السير والمغازي قال عنه ابن النديم : « أنه من

---

(١) السخاوي ، الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ، ٢٩٥ تحقيق فرانز روزنثال « مطبعة العاني بغداد » ١٩٦٣ .

(٢) فتوح البلدان ص ١٦٤ .

(٣) تاريخ دمشق جـ ١ ص ٥٢٠ .

(٤) نفسه جـ ١ ص ٢٦١ .

(٥) نفسه جـ ١ ص ٥٢١ .

(٦) نفسه جـ ١ ص ٣٦١ – ٣٦٢ .

اصحـــاب السير والأحداث وله من الكتب كتاب المغازي [1] . ومن الذين رووا عن الوليد وكان لهم فضل في هذا المجال سعيد بن عبـــد العزيز : إلا أن الذي يلمحه الدارس هو إختلاف الروايات عن سعيد بن عبد العزيز وأحياناً عن غيره : فيذكر مثلاً عن سعيد أن يزيد بن أبي سفيان قد دخل دمشق قسراً وان خالد دخلها صلحاً ذكر ذلك ابن عساكر ، وذكر البلاذري عنه ايضاً أن يزيد بن أبي سفيان دخلها صلحاً وهذا تناقض واضح ، وبعض الروايات تقول أن أبا عبيدة هو الذي دخلها قسراً . فقد أورد ابن عساكر عن سعيـد قوله : « ان يزيد بن أبي سفيان دخل من باب الصغير قسراً ، وخالد بن الوليد من باب الشرقي صلحاً ، فالتقى المسلمون في المقسلاط فأمضوا الأمر على الصلح » [2] ، وبخلاف ذلك أورد البلاذري عن سعيد قوله : « دخل يزيد دمشق من الباب الشرقي صلحاً فالتقيا بالمقسلاط » [3] ، وفي الرواية تناقض آخر ، وهو أن ابن عساكر يورد أن الذي دخل من الباب الشرقي هو خالد بن الوليد، والبلاذري يذكر أن الذي دخل من الباب الشرقي هو يزيد بن أبي سفيان ، ولعل ذلك مرده إلى اختلاف الشيوخ الذين روى عنهم سعيد ، والاختلاف في الروايات كثير ، وقد أورد البلاذري اكثر فتوح الشام عن سعيد مثل فتح دمشق واليرموك وغير ذلك من الوقائع ، وكانت روايته لتلك الوقائع رواية قصصية .

ومن رواة الأخبار الشاميين في هذه الفترة عبد الرحمن بن يزيد بـن جابر ويونس بن يزيد الذي روى عن الوليد بن مسلم وعن الزهري مشاهد النبي وقال عنه أبو زرعة الرازي : « انه أعلم بأمر المغازي والسير من الأوزاعي » [4] ، وكذلك عبد الرحمن بن جبير فقد أورد له ابن كثير بعض الروايات عن غزو

---

(١) الفهرست ص ١٥٩ .
(٢) تاريخ دمشق ج ١ ص ٥٠٢ .
(٣) فتوح البلدان ص ١٤٧ .
(٤) الاعلان بالتوبيخ ص ١٥٩ .

الشام ونزول الروم قرب اليرموك وقدوم خالد إلى الشام مدداً [1] ، كما أورد له ابن عساكر حديث إرسال الجيوش من قبل أبي بكر إلى الشام [2] ، وعبد الرحمن هو ابن جبير بن نفير من التابعين الشاميين الرواة .

وقد كان في هذه الفترة عدد من النسّابين ورواة الأخبار معاً منهم أبو اليقظان سحيم بن حفص والأبرش الكلبي وقد عاشا في الشام : أما أبو اليقظان فقد تحدث عنه إبن النديم فقال : « هو سحيم بن حفص وسحيم لقب واسمه عامر بن حفص كان عالماً بالأخبار والأنساب والمآثر والمثالب ثقة فيما يرويه وتوفي سنة تسعين ومائة وله من الكتب كتاب حلق تميم بعضها بعضاً ، كتاب أخبار تميم ، كتاب نسب خندف واخبارها ، كتاب النسب الكبير ويحتوي على نسب اياد ، كنانة ، أسد بن خزيمة ، هذيل بن مدركة ، قريش ، بني طابخة ، قيس عيلان، ربيعة بن نزار ، تيم بن مرة ، كتاب النوادر رأيته بخط ابن سعدان وغير ذلك من النسب » [3] ، وقد روى عنه البلاذري بعض الأخبار عن عمر بن عبد العزيز نقلها أبو اليقظان عن جويرية بن أسماء » [4] .

أما الأبرش الكلبي وهو ثلابة نسّابة وكان مصاحباً لهشام ، قال الجاحظ « لما افضت إليه — يعني هشاماً — الخلافة سجد ، وسجد من كان عنده من جلسائه والأبرش شاهد لم يسجد ، فقال له : ما منعك أن تسجد يا ابرش قال : ولم أسجد وأنت اليوم معي ماشياً وغداً فوقي طائراً ، قال : فان طرت بك

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية في التاريخ ج ٧ ص ٦ ، ط الاولى (مطبعة السعادة بمصر) ١٩٣٢ م . وسيشار اليه بـ البداية والنهاية .

(٢) تاريخ دمشق ج ١ ص ٤٩٧ .

(٣) الفهرست ص ١٣٨ .

(٤) انساب الاشراف ج ٢ ص ٦٩ .

معي ؟ قال : أتراك فاعلاً ؟ قال نعم : قال الآن طاب السجود »[1] وتروى هذه الحادثة أيضاً مع عبد الحميد الكاتب ومروان بن محمد آخر خلفاء بني امية .

وكان بنو امية يستفسرون أحياناً كثيرة من العلماء وأصحاب الأنساب عن حوادث معينة : كعروة بن الزبير وعوانة بن الحكم الكوفي الذي كان يضع الأخبار لبني أمية قال ياقوت : « كان عثمانياً وكان يضع أخباراً لبني أمية »[2] .

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ٣٤٥ .
(٢) معجم الادباء جـ ١٦ ص ١٣٧ — ١٣٨ .

خاتمة

يتبين للدارس مما تقدم كيف كانت الحياة العلمية تسير في الشام خلال القرنين الأولين للهجرة ، وانها سارت في ثلاثة اتجاهات أولها الاتجاه الديني ، حيث حض الإسلام على العلم ، وحث على طلبه ورفع من شأن المتعلمين فأخذوا يبحثون في كافة النواحي الدينية من تفسير وقراءات وحديث وفقه ومغازي وسير ولم تقتصر العلوم الشامية على الناحية الدينية بل تعدت ذلك إلى النواحي العلمية الطبيعية كالكيمياء والطب والهندسة المعمارية ،مما يؤكد حرص العرب المسلمين على عدم التفريق بين علم ديني أو دنيوي ، ومع أن العلوم الدينية كانت تحوز قدراً أكبر من العناية إلا أن ذلك لا يمنع من أن المسلمين قد حرصوا أيضاً على الناحية العلمية الدنيوية مما كان له عرته بعد ذلك في العصر العباسي في العراق حيث بلغت هذه العلوم ذروتها .

ويلاحظ الدارس لفترة الحياة العلمية في الشام في هذين القرنين ، كيف ان القرآن كان هو المحور والأصل الذي نشأت حوله أكثر العلوم إن لم نقل كلها ، فقد ابتدأ المسلمون يهتمون بالتعلم أولاً ليقرأوا القرآن فامتلأت المساجد بحلقات التعلم ثم نشروا العلم في المجالس والبيوت ، وتبع ذلك اهتمام بتفسير القرآن وقراءته واستنباط المواعظ والقصص منه وأخذ الأحكام ، ثم يأتي الاهتمام

بالحديث لأنه يفسر القرآن ويوضح بعض ما غمض من معانيـــه ، ومن هنا نشأ الاهتمام بالحديث والسنة التي اعتبرت المصدر الثاني للتشريـع بعد القرآن .

ويبين مدى اهتمام العرب بالناحية الدينية فيهذه الفترة انهم كانوا يستخدمون العلوم كافة في خدمة الدين الجديد ، ولو أخذنا مثلاً السير والمغازي والأنساب ونحن نعرف أن العرب كانوا يعرفون هذه العلوم في الجاهليــة في روايتهم لأيام العرب ومعرفتهم بأنسابهم وقبائلهم،إلا أنهم في العصر الاسلامي استخدموا هذه العلوم لمعرفة غزوات الرسول والصحابة وأخبار الفتوحات ، كما استخدمــوا الانساب أيضاً لمعرفة نسب الرسول وأقرب الناس إليه من أجل العطاء .

وقد ظهر اتجاه ثالث في هذه الفترة وهو مرتبط أيضاً بالقرآن إلى حدبعيد ، ولكنه ينحو منحى الجدل في بعض المعاني القرآنية والتبصر فيها ، وهذا يمثل بداية ظهور الاتجاهات المذهبية والفرق الاسلامية التي تعتمد الجدل والكلام في مبادئها كالمعتزلة مثلاً ، وكان هذا الاتجاه نتيجة منطقية لوجود عدد من الموالي غير العرب دخلوا الاسلام وهم يحملون عقلية مخالفة لعقلية العربي ، أو إسلام بعض أهل الكتاب من يهود ونصارى ودخولهم في الاسلام ومعهم معتقداتهم القديمة ، مما أثـر ذلك على بعض المسلمين العرب فاعتنقوا أفكارهم وساندوها . ومع أن نية هؤلاء سواء كانوا موال أو من أهل الكتاب كانت حسنة أم سيئة فان ذلك مرده إلى الله وحده ، ولكن ما يعنينا هو أن حركة فلسفية تعتمد الكلام والجدل قد بدأت تظهر في الشام منذ أواخر القرن الأول الهجري .

المصادر والمراجع

أ ـ المخطوطات :

١ ـ البلاذري ، أبو العباس أحمد بن يحيى ـ أنساب الأشراف ، المكتبة السليانية الاستانة رقم٥٩٨ .

وهو موجود بمكتبة الجامعة الأميركية بنسخة مصوّرة .

٢ ـ ابن عساكر ، أبو القاسم علي بن الحسن : تاريخ دمشق ، المكتبة الظاهرية ، دمشق ، رقم ب ـ ١٢٥٦.

٣ ـ خالد بن يزيد ، ديوان خالد ، المكتبة الظاهرية دمشق، رقم عام ٧٦١٤ .

ب ـ المصادر والمراجع العربية :

١ ـ ابن أبي أصيبعة ، أحمد بن القاسم : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ،نقله وصححه امرؤ القيس بن الطحان ، دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦٥ .

٢ـ ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد: الكامل في التاريخ، دار صادر وبيروت ، ١٩٦٥ .

٣ ـ السفاريني ، محمد: لوامع الأنوار البهية . مطابع الأصفهاني ، جدة ، ١٣٨٠ هـ .

٤ ـ الأشعري ، أبو الحسن علي بن إسماعيل : مقالات الإسلاميين واختلاف

المصلين ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط أولى ١٩٥٠ مكتبة النهضة المصرية .
٥- البخاري ، محمد بن اسماعيل : فتح الباري بشرح صحيح البخاري ط أولى مطبعة الخيرية سنة ١٣٢٥ هـ .
٦- بروكلمان، كارل: تاريخ الأدب العربي، مطبعة دار المعارف بمصر، ١٩٥٩م.
٧- البغدادي ، أبو بكر أحمد بن علي : تقييد العلم ، صدّره وحققه يوسف العش ، المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٤٩ م.
٨- البغدادي ، عبد القاهر بن طاهر : الفرق بين الفرق ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، نشر مكتبة محمد علي صبيح بمصر ، مطبعة المدني القاهرة لا ت .
٩ - البكري ، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٧ م .
١٠- البلاذري ، أبو العباس أحمد بن يحيى : فتوح البلدان ، نشره الدكتور صلاح الدين المنجد ، مطبعة لجنة البيان العربي القاهرة ١٩٥٦ م.
- أنساب الاشراف ، الجزء الأول ، تحقيق الدكتور محمد حميدالله طبعة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، لا ت.
١١ - الترمذي ، أبو عيسى محمد : صحيح الترمذي ، مطبعة الصاوي بمصر ١٩٣٤ م.
١٢ - توما ، سويريوس : تاريخ الكنيسة السريانية الانطاكية ، مطرانية بيروت ١٩٥٣ م .
١٣- ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ، تفسير ابن تيمية ، مطبعة بومباي الهند ١٦٥٤ م.

- مجموعة الرسائل الكبرى ، ط الاولى (المطبعة العامرة الشرفية بمصر ١٣٢٣ هـ .
- مقدمة في أصول التفسير ، تحقيق جميل الشطي ، ط الأولى ، مطبعة الترقي بدمشق ١٩٣٦ م .
١٤- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط الثالثة نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة لا ت.
١٥- ابن الجزري ، محمد بن محمد : غاية النهـــاية في طبقات القراء ، مطبعة السعادة مصر ١٩٢٣م.
- النشر في القراءات العشر ، أشرف على تصحيحه عـــلي محمد الضباع مطبعة مصطفى محمد القاهرة ، لا ت .
١٦- ابن جلجل ، أبو داود سليمان بن حسان : طبقـات الأطباء والحكماء ، تحقيق فؤادسيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية القاهرة ١٩٥٥م .
١٧- ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي : صفة الصفوة ، ط الأولى، مطبعة حيدر آباد الهند ١٣٥٦ هـ .
- سيرة عمر بن عبد العزيز، نسخه وصححه محب الدين الخطيب مطبعة المؤيد بمصر ١٣٣١ هـ .
- نقد العلم والعلماء أو تلبيس إبليس، نشره محمد أمين الخانجي مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٠هـ.
١٨- الحاكم النيسابوري ، أبو عبدالله محمدبن عبد الله : معرفة علوم الحديث نشره وصححه معظم الحسين ، المكتب التجاري للطبـــاعة والتوزيع ، بيروت لا ت.
١٩- حتي ، فيليب : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - دار الثقـــافة ، بيروت ١٩٥٠م .

٢٠ ـ ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن علي : تهذيب التهذيب ، دار صادر وبيروت ، عن طبعة حيدر آباد ، ١٣٢٥ هـ .
ـ لسان الميزان ، ط الأولى ، دائرة المعارف النظامية حيدر آباد ١٣٣٠ هـ.

٢١ـ ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد : الاحكام في أصول الأحكام ، عن نسخة أشرف عليها أحمد شاكر ١٣٤٥ هـ ، مطبعة الإمام بمصر لا ت.
ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل ، صححه وليد عبد الرحمن خليفة ، ط الاولى ، مطبعة محمد علي صبيح القاهرة ،١٣٩٧ هـ.
ـ ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل، مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٠م .

٢٢ـ الحميري ، نشوان بن سعيد : شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم مطبعة بريل ، لندن ١٣٧٠ هـ .

٢٣ ـ ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، المجلد الأول ، القسم الأول ، منشورات دار الكتاب اللبناني ، دار الطباعة العربية ، بيروت ، ١٩٥٦م .

٢٤ـ ابن خلكان ، أبو العباس أحمد بن محمد : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط اولى (مكتبة النهضة المصرية) ١٩٤٨ م.

٢٥ ـ الخياط ، أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد : كتاب الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد ، المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ، ١٩٥٧م.

٢٦ـ دائرة المعارف الاسلامية .

٢٧ـ الداني ، ابو عمرو عثمان بن سعيد : كتاب التيسير في القراءات السبع ، عني

بتصحيحه اوتو برتزل لجمعية المستشرقين الألمانية، مطبعة الدولة استنبول ـ ١٩٣٠ م .

٢٨ ـ الدينوري ، احمد بن داود : الاخبار الطوال ، دار احياء الكتب العربية القاهرة ، ١٩٦٠ م .

٢٩ ـ الذهبي ، شمس الدين محمد بن محمد : تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام، مطبعة السعادة بمصر ـ عن مكتبة القدسي ١٣٨٣ هـ.

ـ تذكرة الحفاظ ، اعتنى بطبعه مصطفى علي ، مطبعة دائرة المعارف النظامية ـ حيدر آباد ـ لا ت .

ـ دول الإسلام ، ط الثانية ، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ١٣٦٤ هـ.

ـ سير اعلام النبلاء ، دار المعارف بمصر ، لا ت .

٣٠ ـ الرازي ، أبو محمد عبد الرحمن بن ابي حاتم : كتاب الجرح والتعديل ، ط الاولى ، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد ١٣٦٠ هـ .

٣١ ـ رستم ، اسد : الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ، ط اولى ، دار المكشوف ـ بيروت ١٩٥٥ م .

ـ كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، مطبعة دار الفنون ـ بيروت لا ت .

٣٢ ـ الزبيدي ، أبو الفيض مرتضى بن محمد ، تاج العروس من جواهر القاموس.

٣٣ ـ الزرقاني ، محمد عبد العظيم : مناهل العرفان في علوم القرآن ، ط الثالثة دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة لا ت .

٣٤ ـ الزركشي ، أبو عبد الله محمد بن بهادر : البرهان في علوم القرآن ، ط

الاولى تحقيق محمد أبو الفضل، مطبعة البابي الحلبي، مصر.
١٩٥٧ م .
٣٥ ـ ابن زيد الحنبلي ، احمد بن محمد ، محاسن المساعي في مناقب الاوزاعي ، مكتبة الحياة ،بيروت١٩٦٧ .
٣٦ ـ السجستاني ، أبو حاتم سهل بن محمد : المعمرون والوصايا ، تحقيق عبد المنعم عامر ، دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٦١ م .
٣٧ ـ ابن سعد ، محمد : الطبقات الكبرى ، دار صادر وبيروت ١٩٥٨ م .
٣٨ ـ ابن سلام ، ابو عبيدة القاسم :الاموال، صححه وعلق هوامشه محمد حامد الفقي ، لا طبعة ولا ت .
٣٩ ـ السيوطي ،جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر : الاتقان في علوم القرآن جمعه أبو الوفاء الهوريني ، المطبعة الكستلية بمصر ١٢٧٩ هـ .
ـ تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، ط الثانية ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٦٦ م .
٤٠ ـ الشافعي ، أبو عبد الله محمد بن ادريس : الأم جـ ٧ ، أشرف على طبعه وتصحيحه محمد زهري النجار،نشر مكتبة الكليات الأزهرية، مطبعة شركة الطباعة الفنية المتحدة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٦١ م .
٤١ ـ الشعراني ، عبد الوهاب : طبقات الشعراني ، المطبعة الشرفية ، القاهرة، ١٢٩٩ هـ .
٤٢ ـ الشهرستاني ،محمد بن عبد الكريم : الملل والنحل ، مطبعة محمد علي صبيح مصر ١٣٤٧ هـ .
٤٣ ـ الشيرازي ، أبو اسحق ابراهيم بن علي: طبقات الفقهاء ، نشر دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٩٧٠ م .

٤٤ ـ الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير : ـ تاريخ الأمم والملوك ، مطبعة الاستقامة ـ القاهرة ١٩٣٩ م .

ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ط الثانية ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥٤ م .

ـ كتاب اختلاف الفقهاء ، عني بنشره يوسف شخت ، مطبعة ليدن ١٩٣٣ م .

٤٥ ـ الطوسي السراج ، عبد الله : اللمع في التصوف مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٦٠ م .

٤٦ ـ ابن عبد البر ، أبو عمر يوسف : جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغي في روايته وحمله ، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة ـ لا ت .

٤٧ ـ ابن عبد الحكم ، عبد الله : سيرة عمر بن عبد العزيز ، تحقيق أحمد عبيد ، ط الأولى المطبعة الرحمانية ـ مصر ١٩٢٧ م .

٤٨ ـ ابن عبد ربه ، ابو عمر احمد : العقد الفريد ، تحقيق احمد امين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٤٨ م .

٤٩ ـ ابن عرنوس ، محمود بن محمد : تاريخ القضاء في الاسلام ، المطبعة المصرية الأهلية ، القاهرة ، لا ت .

٥٠ ـ ابن عساكر ، ابو القاسم علي بن الحسن ، تاريخ مدينة دمشق ، المجلدة الاولى ـ تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، مطبعة المجمع العلمي العربي بدمشق ، ١٩٥١ م .

ـ المجلدة الثانيــة ، القسم الأول ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، مطبعة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٤ م .

تهذيب تاريخ ابن عساكر ، هذبه ابن بدران ، مطبعة روضة

الشام بدمشق ١٣٣١ هـ .

٥١ ـ العسكري ، أبو احمد الحسن بن عبد الله : شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ، تحقيق عبد العزيز احمد ، الطبعة الأولى ، مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٦١ م .

٥٢ ـ ابن العماد الحنبلي ، عبد الحي بن احمد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، نشرته مكتبة القدسي ١٣٥٠ هـ .

٥٣ ـ الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد : احياء علوم الدين ، صححه احمد سعيد علي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٣٩ م .

٥٤ ـ غورديه ، لويس : فلسفة الفكر الديني بين الاسلام والمسيحية ، تعريب صبحي الصالح وفريد جبر ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٧م .

٥٥ ـ الفارسي ، ابو علي الحسن بن احمد : الحجة في علل القراءات السبع ، بلا طبعة ، ١٩٦٥ م .

٥٦ ـ ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم : تأويل مختلف الحديث ، صححه وضبطه محمد زهري النجار ، دار القومية العربية للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٦ م .

ـ تأويل مشكل القرآن ، شرح وتحقيق احمد صقر ، ط الاولى دار احياء الكتب العربية ١٩٥٤ م .

ـ عيون الاخبار ، دار الكتب المصرية ١٩٢٥ م .

ـ المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ـ ط الثانية ، دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٩ م .

٥٧ ـ القرطبي ، ابو عبد الله محمد بن احمد : الجامع لأحكام القرآن ، الطبعة الثالثة ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٧ م .

٥٨ ـ القفطي ، ابو الحسن علي بن يوسف : اخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٦ هـ .

٥٩ ـ القلقشندي ، ابو العباس احمد بن علي : صبح الاعشى في كتابة الانشاء ، المطبعة الاميرية القاهرة ١٩١٨ م .

٦٠ ـ ابن قيم الجوزية ، شمس الدين محمد بن ابي بكر : اعلام الموقعين عن رب العالمين ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط الثانية ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٥ م .

ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكم والتعليل ، مطبعة دار الكتاب العربي مصر ، لا ت .

٦١ ـ ابن كثير ، إسماعيل بن عمر : البداية والنهاية في التاريخ ،مطبعة السعادة بمصر ، ط الاولى ١٩٣٢ م .

ـ تفسير ابن كثير ، مطبعة المنار ـ مصر ١٣٤٣ هـ .

٦٢ ـ إبن ماجة ، محمد بن يزيد : سنن ابن ماجة ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٥٢ م .

٦٣ ـ ابن المرتضي ، احمد بن يحيى : طبقات المعتزلة ، المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٦١ م .

٦٤ ـ المسعودي ، علي بن الحسين : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٥٨ م.

٦٥ ـ المقدسي ، محمد بن احمد : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، تحقيق ميخائيل جان دوغويه ، مطبعة بريل ليدن ، ١٩٠٦ م .

٦٦ ـ المقدسي ، المطهر بن طاهر : البدء والتاريخ، تحقيق ارنست لرو ـ باريز ١٨٩٩ م .

٦٧ ـ المقري ، ابو العباس احمد بن محمد : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، المطبعة الميرية المصرية ، لا ت .

٦٨ ـ المكي ، محمد بن علي : قوت القلوب في معاملة المحبوب ، ط اولى ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٦١ م .

٦٩ ـ الملطي ، أبو الحسين محمد بن احمد : التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ، طبعة مكتب نشر الثقافة الاسلامية ، ١٩٤٩ م .

٧٠ ـ ابن نباتة ، جمال الدين : سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، مطبعة المدني للقاهرة ، ١٩٦٤م .

٧١ ـ ابن النديم ، محمد بن اسحق : الفهرست ، المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٨ هـ .

٧٢ ـ النسائي ، احمد بن شعيب : سنن النسائي ، المطبعة المصرية ١٩٣٠ م .

٧٣ ـ النووي ، أبو زكريا يحيى بن شرف : تهذيب الاسماء واللغات ، عنيت بنشره شركةالعلماء بمساعدةادارة للطباعة المنيرية القاهرة ،لا ت

٧٤ ـ النويري ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب : نهاية الارب في فنون الادب ، المؤسسة المصرية للتأليف والطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٣ م .

٧٥ ـ ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك : تهذيب سيرة ابن هشام ، تحقيق عبد السلام هارون ، ملتزم للطبع والنشر دار سعد بمصر ١٣٧٤ هـ.

٧٦ ـ ابن هشام ، أبو محمد عبد الله : شرح قطر الندى وبل الصدى ، مطبعة السعادة بمصر تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة بمصر ط العاشرة ١٩٥٩ م .

٧٧ ـ الهمذاني ، احمد بن محمد : البلدان ، مطبعة ليدن ، ١٣٠٢ هـ .

٧٨ ـ الواقدي ، محمد : فتوح الشام ، مطبعة العلوم الادبية ـ مصر لا ت .

٧٩ ـ وكيع ، محمد بن خلف : اخبار القضاة ، صححه عبد العزيز المراغي ، ط أولى مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٤٧ م .

٨٠ ـ اليافعي ، ابو محمد عبد الله بن اسعد : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، ط الاولى، دائرة المعارف النظامية ـ حيدر آباد ١٣٣٧ هـ.

٨١ ـ ياقوت ، شهاب الدين أبو عبد الله : معجم الادباء ، ط الثانية نشره دافيد صمويل مرجليوث، مطبعة هندية بمصر ١٩٢٣ م .

ـ معجم البلدان .

٨٢ ـ اليعقوبي ، احمد بن أبي يعقوب : تاريخ اليعقوبي ، دار صادر وبيروت، ١٩٦٠ م .

٨٣ ـ أبو يوسف ،يعقوب بن ابراهيم :الرد على سير الأوزاعي ، عني بتصحيحه والتعليق عليه أبو الوفا الأفغاني ، عنيت بنشره لجنة احياء المعارف النعمانية بحيدر آباد . لا ت .

ـ الخراج ، ط الثانية ، المطبعة السلفية بمصر ١٣٥٢ هـ .

جـ – المراجع الأجنبية :

1 - Creswell, K : A Short Account of Early Muslim Architecture, Richard Com. Britain . 1958 .

2 - Schacht, Joseph : Introduction to Islamic Law ، Oxford Univ. Press . 1964 .

- The Origins of Muhammadan Jurisprudence. Oxford Univ. Press. 1958 .

3 - Seale, Morris. S. : Muslim Theology . Luzac and Company Limited . London 1964 .

4 - Watt, W. Montgomery : Free Will and Predestination in Early Islam . Burleigh Press. pristol . 1948 .

5 - Encyclopedia Britannica .

المحتويات

صفحة

طبع في مطابع
دار لبنان
للطباعة والنشر
بيروت

EDUCATIONAL LIFE IN DAMASCUS

In First & Second Century of Hegira

By

K. D. ZAROU

Dar Al-Afaq Al-Jadidah

Beirut - Lebanon